

زَنُوفِیَا

ملکہ ندر

تالیف
محمد فرید ابوحدید

obeikandi.com

زينب وياسا



بقلم الأستاذ محمد فرید أبو حیدر

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى ناشا — ١٥ شارع المنابة

obeikandi.com

مقدمة

ليس القصص جديداً في الأدب العربي ؛ فقد كانت القصة منذ القدم وسيلة للعرب ، كما كانت وسيلة للمشاركة على اختلاف مدنيتاتهم للتعبير عن آرائهم في الحياة ، يضمنونها فلسفتهم وأدبهم ومثلهم العليا . وإن كان قوم من النقاد الغربيين قد أنكروا على العرب استعدادهم في فن القصص فما ذلك إلا مبالغة في إبداء الرأي الجارف ، فإنهم رأوا أن القصة قد بلغت اليوم في العالم الأوربي والأمريكي إلى ذروة الجمال والفن ، على حين كانت القصة العربية الحديثة لا تزال تتلمس الخطى نحو التعبير الصحيح ؛ ورأوا أن كتاب القصة في الأدب العربي لا يزالون قلة بين الأدباء ، فوثبوا من هذه الملاحظة إلى قولهم إن العرب لا يستطيعون القصة ولا يقبلون عليها ؛ بل قالوا إنهم لا يجدون في طبعهم مواتاة على إتقان فنها . وليس في سوق النقد شيئاً أكثر خطراً على الحقيقة من أن تؤخذ قلة الكم في الإنتاج على أنها دليل على ضعف القوة الطبيعية الكامنة ، أو أن يتخذ ببطء الحركة آية على ضالة الحياة في الكائن الذي يتحرك . فقد تكون قلة الإنتاج ناشئة من أسباب أخرى غير الضعف ، وقد تكون الحركة البطيئة حركة الوليد الناشئ الذي يبلغ بعد حين مدى قوته وقصارى التبرز في

عدوه . ونحن إذا رجعنا إلى الماضي لم نجد أدب اللغة العربية خالياً من القصة ، بل لقد كان للقصة فيه مكان عظيم ؛ ولا شك أن الباحث المنصف يقر بما كان لأدب القصة العربي من فضل في تطعيم القصة الأوروبية وبمائها إلى أول حركتها منذ القرن الثالث عشر الميلادي . وليس هذا موضع الإطالة في ذكر البرهان على أن القصة كانت وسيلة طبيعية للتعبير في الأدب العربي القديم ، أو على أنها اليوم تسير قدماً في سبيلها نحو اتخاذ المكان المقدر لها عند قمة الفنون الأدبية ؛ وحسبنا أن نقول إن الأدب العربي أخذ يتجه في اهتمام إلى هذا الباب ويدرك خطورته ويقيم له الوزن الذي هو جدير به في حياة الفكر . وليس تأخر الأدباء العرب في إظهار ما للقصة من خطر في أديهم ناشئاً من قلة استعدادهم لهذا الفن ، أو أن طبيعتهم قد أقعدتهم عن أن يجولوا فيه على قدر كما جال رصفاؤهم في الأدب الغربي . فتمة أسباب كثيرة أدت إلى هذه النتيجة ، وكان أكبر هذه الأسباب أن سلك القصص في أكثر الأحوال — إن لم يكن فيها كلها — ينظم حادثة من الحوادث تقع نتيجة لفرزة من الغرائز أو عاطفة من العواطف ، أو يصف علاقة من العلاقات البشرية ، يستجيب لها خيال القارئ ويستغرق فيها ، ويجعلها الأديب وسيلة إلى التعبير عن نفسه ، فيلبس الشخص ما يشاء من الثياب ، وينطق ألسنتهم بما يريد من المعاني في أثناء استيلائه على خيال قارئه .

وليس من شك في أن أقوى الغرائز من خوف أو دفاع أو سيطرة أو انقياد، وأقوى العلاقات البشرية من كره وحب أو نضال أو تعاون كل ذلك يتخذ صورة أروع وأكثر مساساً بالنفوس إذا وصلت بمعانى الحب أو الموت؛ أو بقول آخر لا يكون وصف الحوادث ذا أثر عميق في النفوس إلا إذا لمس القلوب في أرق مواضعها إحساساً : في موضع لا يخلو منه قلب إنسان في أى مركز اجتماعي، وأى مرتبة من مراتب الثقافة . فلا بد أن توجد في القصة صورة الرجل والمرأة ، صورة الابن والأم أو الزوج والزوجة أو الحب والحبيسة . وقد توجد صورة أخرى غير هذه لا تقل عنها روعة ، صورة الأبوة والبنوة ، صورة الميلاد والموت ، صورة الجهاد في الحياة ومقابلة الأخطار التي تهددها ؛ ومن حول هذه الصورة تتوزع الأشعة من العواطف الانسانية المختلفة التي تجعل للقصة حياة شاملة تتسع للتعبير وتهب الفنان الألوان التي يستطيع منها أن يرسم لوحته العقلية .

وقد كانت بلادنا العربية عامة منذ عهد قريب محرومة من ناحية هامة من هذه النواحي ؛ فكان المجتمع لا يعرف اسم المرأة إلا من وراء ستار ؛ وكانت حياتنا العامة من جهة أخرى لا تزال خافية تحت ضباب السيطرة والاستبداد ، سيطرة الحاكم المطلق وطغيان الطبقات .

فلم يكن الفنان يستطيع أن يرسم صورة تضم في شخوصها

امسأة؛ وما كان الشعب ليقدّر صورة يرى فيها المرأة، لأنه بغير شك يدرك أنها صورة ضرورية لا تمثل حقيقة .

وكانت سيطرة الطبقات من جهة أخرى تحول بين الشعب وبين ملاقة الحياة في معانيها العالية؛ فما كانت الحياة لعامة الشعب إلا سمياً وراء القوت أو تدارياً من وطأة الحكم . ولكن ذلك المصير قد انقضى أو كاد ، وطلع بعده فجر عصر جديد ، صارت المرأة العربية فيه بادية عاملة ، وإن كانت لا تزال تتمثر في أولى خطواتها بين الجد والهو، وتزل أحياناً في مزالق القدر وهي تحسب أنها تقصد إلى منافذ النور والحياة ؛ ولكنها على أية حال قد أخذت تتحرك ، وقد أخذت تجد في المجتمع مكاناً لها ؛ ونرجو أن تكون عما قريب على عرشها النقي تمثل فيه الأمومة الطيبة والزوجية الطاهرة والبنوة المسالمة ؛ وهذا كان من طبيعته أن يزود الأدباء بعنصر جديد يجعل لقصصهم رنة الصدق ، ويلقى عليها أنوار الطبيعة الغنية بالألوان .

ومن جهة أخرى أخذ الشعب يتطلع إلى الحياة الحرة ، ويرتاد جوانب المجهول ، وأخذ يدرك معاني الحياة ومآسى الموت ، ويجرب عنف النضال ، ويقاسى شدائد الهزيمة ، ويدوق لذات الانتصار ؛ وأخذ يدرك المعاني الأخيرة في الحياة ، فلا عجب إذا انعكست هذه المعاني إلى الأديب ، فوجدت فيه المعبر عنها المسجل للحاجات القلوب تجاهها . ومن ثم أخذت القصة العربية تحيا ، وأخذت

تتجه نحو غايتها ، وإن كانت تتمتع في انخراط السبيل بين التقليد والابتكار من جهة ، وتتردد من جهة أخرى بين تملق الفرائز وتهذيب الطبائع .

فلا شك أن القصص العربي لا يجد في تراثه الأدبي ما يكفي لتوجيهه في أسلوبه ؛ فقد انقطعت الصلة بين الأسلوبين القديم والحديث ، إذ كانت القصة العربية القديمة من نتاج عقل تفصل بيننا وبينه أحقاب طويلة . فالصلة لا بد أن تكون بين الأسلوب العربي الحديث وبين الفن الأوربي الحاضر . أليس الفن الإنساني وحدة منذ الأزلية ؟ أليس الفن الأوربي الحاضر وارث المديت القديمة مصريها ويونانيها ورومانيها وعربيها ؟ وإذا كان الأمر كذلك أليس هو ملكا مشاعا يستطيع الأدب العربي أن يستمد منه في غير عار ولا حرج ؟ ولـكننا عند ما أتجهنا إلى الأدب الأوربي لنلتمس منه الهداية في الفن القصصى تشعبت بنا السبل وتعقدت دوننا الأمور ثم فإن مذاهب القصص الأوربي لا تكاد تقع تحت حصر ، وإن لأوربا مبادئ وفلسفة إن وافقت العرب في ناحية اشأزت منها نفوسهم في ناحية أخرى . والعرب وإن شاركوا الأوربيين في نواح من الطبع الإنساني يخالفونهم في نواح أخرى من التقاليد والعادات والفلسفة في الحياة . والقصة لا تكون إلا صورة من ذهن الشعب ، تنعكس فيها فلسفته وآراؤه ومثله العليا ، أو تصور فيها المسالك التي ينبغي له أن يتخذها في

الحياة . فإذا كانت القصة لا تصور للشعب ما يقدره لم يتخذها
إلا لعبة وتسلية ، ولم ينظر إليها إلا كما ينظر إلى حركة الضحكة
أو إلى مجانة المجان ؛ قد يقف عندها حيناً ليلهو ، وقد يقبل عليها
حيناً ليدوق لذة عابرة ، ولكن قلبه لا يتعلق بها ، ولا يرن فيه وتر
استجابة لصوت ندائها

فكان لابد للقصة العربية أن تستمد وحيها من الطبع
العربي ، ومن المثل العليا العربية ومن الفلسفة العربية المطعمة
بالنظرات الحديثة ، ثم من الحياة الحديثة في البيئة العربية الجديدة .
وكان لا بد لها كذلك من أن تكون وسيلة للتعبير عن آمالنا
وعن خواج نفوسنا ، وأن تكون صورها من صور حياتنا لا من
نسيج باهت مزور منقول بالمسف إلينا من حياة غريبة عنها .
فالقصة العربية في حاجة إلى أصرين : أسلوب فني رائع ووحى

عربي صريح

وفي هذا وهذا وحده موضع النقص الذي لا تزال القصة
العربية تتطلع إلى علاجه وتترنح في خطاها نحوه . على أننا
نلمح في نهضة تلك القصة ما يبشر بأنها عن قريب مهيأة
إلى طريقها الطبيعي ، وعند ذلك تتحدر فيه إلى غايتها في قوة
وحياة ماثلة .

والقصة في الأدب الحديث أفسح مجال للأديب لأنها تسمح
له أن يجول وأن يخلق في الاتجاه الذي يريد . ولقد جاء وقت كان

فيه العالم العربي لا يتخذ وسيلة للتعبير إلا في الشعر أوفى المقالة ،
وذلك عندما لم تكن الظروف مواتية له لإحياء القصة في
صورتها الحديثة . ولكن الشعر والمقالة لا يصلحان اليوم للتعبير
عن كل ما تجيش به نفس المجتمع العربي ، فان حدودها أضيق
من أن تتسع لكل المعاني في حرية ووضوح ، والصور التي
يمكن أن يبدعها الشاعر لا يمكن إلا أن تكون صوراً ثابتة
تنقصها حركة الحياة . فالشعر إن كان وسيلة للنطق بصرخة أو
لرسم لوحة فانه غير أهل لأن يحمل الحركة ، ولا أن يتيح
للأديب المدى / الواسع الذي ينطلق فيه إلى قصاراه في سهولة
طبيعية كسهولة أنفاس الحياة .

وفي القصة احتمالات لا حد لها في فنون الأدب ، فهي مطية
للفيلسوف والاجتماعي ، وأداة لتحليل النفسى والعلمى ، وفيها
يستطيع الشاعر أن يلمس القلوب وأن يبدع في التصوير ، وفيها
يمجد الأديب الجو الطلق الذي يمكنه من التعبير عن نفسه
وتصوير أحاسيسه . وموضوع القصة كذلك يختلف باختلاف
مظاهر الحياة ؛ ففيه من السبل ما لا حد له ما دامت سبل الحياة
الانسانية لا حد لها ، وفيه اتساع المكان ، فيستطيع الكاتب
أن ينتقل في أقطار الأرض وأن يخلق إلى ما وراء الأرض في
أجواز الكون ؛ وفيه كذلك اتساع الزمان ، فيستطيع القصصى
أن يعود إلى الأحقاب البعيدة أو أن ينفذ إلى غيب الأبدية .

وللقصصى العربى إذا شاء أن يابجأ إلى كنوز رائعة لا تزال
مدخرة فى تراثه الأدبى تنتظر أن تخرج إلى النور ، ومناجم
فى جوف الحياة الغابرة والحاضرة لا ينقصها إلا حسن الصناعة
وإجلالؤها فى صور الحياة فنية بارعة جديدة .

وقد رأى كاتب هذه القصة فى ذلك التراث الزاخر ما استغرق
اهتمامه وملك عليه نفسه منذ تعلق بالأدب . وليغفر لى القارى
أن أتحدث عن نفسى على كراهة فى طبيعى للتحدث عن النفس ،
فما أقصد إلا أن أطلع على شىء من سيرة هذه القصة التى أقدمها
بين يديه :

كان التاريخ يبدو لى إذا قرأته غير تلك السير التى يقرؤها
الناس عادة ليستخرجوا منها علماً أو عظة ؛ كنت أقرأ التاريخ
فاذا بى أحيا مع من أقرأ سيرتهم ، وأعاشر أهل العصور الغابرة .
كأنما أنا من بعضهم ، أ كاد أشعر بأنفسهم وأحس إحساسهم ،
وأهتز لما يهزهم ، وأغضب لما يغضبون له ، وأسر لما يسرهم ،
وأألم معهم فى محنهم . وكنت إذا قرأت فى كتب الأدب
أشعر بنشوة عجيبة لما فيها من آيات تسطع فى الذهن كما يسطع
النور على صفحات الجواهر الصافى ؛ وكنت أرى دائماً أن تلك
الكنوز أثنى من أن تبقى فى مخابئها ، وأن تلك العصور أكرم
وأنبى من أن تبقى طريحة فى سجل الزمن الذى انطوى ؛
وما أكثر ما كان لتلك السير من آثار فى نفسى وفى عقلى !

وما أعظم ما كان لتلك العصور الماضية من إيتاس لو حشة حاضري !
فاندفعت نحوها وعكفت عليها ، كأنما وجدت في ذلك الماضي
وطنى ، وكأنما وجدت في تلك الكنوز ذخيرة حياتي ، وقد
رأيت أن أنتهج في ذلك الفن الذي ملك على قلبي نهجاً ، فأقدمت
على بعض توالييف سابقة منذ عشرات من السنين نالت من النجاح
حظاً ليس بالقليل ، ثم لفقتني عن المضي في سبيلي عوامل مما
يعتري المرء في حياته من شواغل أو علل .

ثم استأنفت السير بعد لآي ، وكانت وجهتي في سيري الجديد
أن أغترف من تراث العرب الباهر ما لو جلاه أديب موهوب
حق جالوته لأغنى الأدب الحديث بثروة رائعة لا زيف فيها ؛
وكان يطمعني في المضي إلى ذلك القصد ما عرفته في أدب الغرب ،
فإن أروع ما في ذلك الأدب إما مستمد من صفحات التاريخ ،
وإما موحى به من روح الأدب القديم ؛ فعمزمت على أن أتجه في
منهجي نحو القصص العربي الذي يعرفه الناس في صورة ساذجة ،
فأعيد عرضه في ألوان الحياة الحديثة ، ووددت لو تواتبني القوة
ويطاوعني الطبع على أن أبلغ ما تصبو إليه نفسي ، فأخرج للناس
صورة الحياة التي يمتلي بها قلبي في ثوب مختلس من تلك الكنوز
الثمينة ، فأكون كالصائع إذا استعار رسماً قديماً فأبرزه في حلينة
جديدة يرفرف عليها روح القديم فوق هيكل حي جديد .
وكان من أثر ذلك الاتجاه ثلاث قصص : أولاها قصة

حرب البسوس ، وثانيتها قصة الملك الضليل ، وهذه ثالثها قصة (زنوبيا) .

وليس لى أن أدعى أنني قد نجحت في مقصدي أو أن الطبع قد واتانى ، فوفقت في الخلق إلى شئ يمكن أن يسمى إبداعاً وخلقاً ؛ فإن ذلك الحكم من حق القارى ، ولا تجدى فيه دعوى المؤلف . وإنه لحسبى من جزاء لو عرفت أن تلك القصص لقد لقيت عند قرائها قبولا ووافقت منهم موضع الرضا . وقد بدأت بطبع هذه القصة ، وإن جاءت في التأليف أخيرة ، ولعلى مردفها إذا أراد الله بأخواتها ، حتى يكمل ما أعددت من حلقات تلك السلسلة . وإذا كان في مشيئة الله أن أمضى في سبيل التأليف بعد ذلك كان ما شاء ، حتى أكمل مجموعة كان في عزى أن أتمها فأسميها (مع الزمان) .

وأما (زنوبيا) موضوع هذه القصة فقد سنحت لى إذ كنت أقرأ قصة الزباء العربية ، وكنت أرى بعض الأدباء يحسبونها زنوبيا صاحبة السيرة العجيبة في تاريخ تدمر ، التي ذكر مؤرخو أوروبا قصتها مفصلة في سياق ذكر تاريخ دولة الروم . وكنت قد قرأتها من قبل منذ سنين طويلة ، فما وقفت لنقدها ، ولا حفلت بتحليل حوادثها ، فانما قرأتها ولا أزال صبيغاً ، إذ كان أكبر همى أن أرتاد كتب الأدب في التماس اللذة وفي طلب طلاوة الجديد ، فلما عدت إلى قراءتها بدت لى صورة للزباء

ليس فيها شبه من ملكة تدمر التي عرفتها ، وبدأت لي القصة في مجموعها شائبة تافهة ليس كما أعرف من قصص العرب التي خلدوها في المفاخرة بأيامهم ؛ فقد كانت تدمر مقر مدنية ، وهذه تدمر الزباء قرية بدوية ساذجة ، وكانت زنوبيا وحيدة بين نساء العالم في ثقافتها وسموها وعمق فكرها وحسن تدبيرها ؛ وهذه الزباء إنما تمثال احتيال المرأة الساذجة التي تطيع أدناً غرائزها ، وكانت تدمر دولة عظيمة تنافس دولة الروم المظمية وتحطم دولة فارس المنتصرة ؛ ولكن تدمر الزباء كانت تدب في أفق ضيق من منافسة حقيرة فيما بينها وبين الحيرة .

ثم قارنت تواريخ الملوك الذين ورد ذكرهم في القصتين ، فبدأ لي أن الزباء لا يمكن أن تكون هي زنوبيا ؛ فهي إما ملكة سابقة تشبهها في الاسم وإما أن تكون قصتها قد حرفت وشوهت حتى صارت لا تنبئ عن حقيقتها .

كانت الزباء في القصة العربية تعاصر عمرو بن عدى أمير الحيرة ، وقضت نحبها منتحرة بالسهم عندما أغار عليها ذلك الأمير بعد أن احتال عليها بحيلته الساذجة حتى أدخل جنوده إلى مدينتها . ولا شك أن عمرو بن عدى كان عند ذلك في فتوة وقوة حتى يستطيع النهوض إلى القتال وتدبير الحيلة والتحرك مع فرسان الحيرة ليلتمس وسيلة الانتقام من الزباء ، ليأخذ بثأر خاله جديمة . ولكن عمرو بن عدى مات في أوائل حكم سابور ، وكان عند

موته شيخاً قيل إنه بلغ فوق المائة من السنين ، فلا شك في أنه حارب الزباء إن صحت القصة قبل أيام سابور بكثير من الأعوام .
وأما زنوبيا فقد كانت ملكة تدمر في أواخر حكم سابور ، فلا يمكن أن تكون معاصرة لعمر بن عدى . وتقلب بها الأحوال في حوادث جليلة وحروب عظيمة كانت تدمر فيها تقارع دولة الفرس حتى صرعتها ، وتنازع الروم السيادة حتى أوشكت أن تنزعها ، وحاربت أمباطورين من ملوكها حتى كادت تفوز على رومة وتصير عاصمة العالم المتمدن كله ؛ ثم خانتها الأقدار ، فهزمت وكسرت جيوشها في مواقع لا تزال أصدائها تتردد في صحف التاريخ ، إلى أن انتهى الأمر بأسرها ، فذهبت إلى رومة لتسير في موكب الأمباطور (أورليان) وهي ذليلة ، وقضت سائر حياتها في قصرها الذي أحسن به الأمباطور عليها فوق نهر التير في (روما) بعد أن نسيت مجدها وملكها .

نخرجت من ذلك التحليل وهذه المقارنة إلى رأى من رأيين :
فأما أن تكون زباء تدمر غير زنوبيا ، وإما أن تكون القصة قد داخلها التحريف حتى طمس معالمها وأبدل محاسنها ، ولم يبق منها إلا تشابه الاسم في الملكة ومدينتها .

ولكني رجحت الرأى الأول ، فإن إيراد أسماء الملوك وذكر مدى حكمهم يدل على أن تدمر كانت في يوم من الأيام في حكم الزباء التي عاصرت عمرو بن عدى ؛ ولعل تلك المدينة كانت عند

ذلك في أول نشأتها ، ولم تبلغ ما بلغت بعد ذلك من مدنية وغنى وقوة ؛ فليس يبعد أن تكون الزباء ملكة العهد الأول ، وأن تكون زنوبيا وارثة ملكها التي وجدت في مهد الملك ما ساعدها على بلوغ تلك الثقافة ، وإنماء ذلك الفكر الذي عرف عنها ، والتي ساعدتها ظروف العالم على أن تبني في تدمير تلك المدنية العظيمة على الأساس الضئيل الذي خلفته لها الزباء التي سبقتها . ولا يمكن أن يكون بين الزباء وزنوبيا أقل من عشرين أو ثلاثين عاما ؛ فقد كانت زنوبيا لا تزال شابة ، وهي شريكة أذينة العظيم زوجها الذي كان بطل الدولة الناشئة ؛ فالزباء حرة أن تكون أمها ، بل هي أخرى أن تكون لها جدة من قبل أبيها . ولكن سؤالا كان دائما يعترض ذلك الرأي ويكاد يقعد بي عن الأخذ به ، وهو أن التاريخ العربي لم يذكر (زنوبيا) مع عظمتها ، وذكر الزباء في قصة لا يبدو منها إلا وصف لمدنية تافهة وشخصية بدوية ساذجة . فهل كان العرب يحتفلون بتخليد الأذى ويهملون عند ذكر أيامهم الأسمى ؟ .

ولكني لم ألبث أن وجدت من ذلك الحرج مخرجا . فان قصة (الزباء) بلا شك منقولة عن تواريخ سابقة ، نقلها أمثال الطبري عن مؤلفات الفرس ، لأنها لم تكن في قلب بلاد العرب ، بل كانت نائية في طرف البادية من الشمال ، فلم يكن العرب ليخلدوا ذكرها عند ذكر مفاخراتهم والاحتفاظ بذكر أيامهم ؛ وكانت

دولة تدمر أقرب إلى الأنباط ، على حين كان ملوك الحيرة من صميم القبائل المنتسبة إلى قحطان . وما كان الفرس ليخلدوا ذكر زنوبيا التي حطمت دولتها مجدهم وأذلت كبرياءهم . وما كان عرب الحيرة ليحفظوا في أيامهم ذكر الملكة التي أعلت مجد تدمر حتى طمست ذكر الحيرة وحلقت بعظمته فوقهم . فما كان من العجيب أن يهمل ذكرها الفرس حتى لا يخلدوا في التاريخ معرفة خذلانهم في حربها . ولم يكن من العجيب أن يتجاهلها عرب الحيرة ، فلا يذكروا إلا جدتها التي استطاعوا في نضالهم معها أن يبلغوا ما أرادت لهم الكبرياء من فوز ساحق .

وليس من العجيب بعد كل ذلك أن تساق قصة الزباء في كتب الفرس في سياق يبرز تفاهة ملك تدمر وبدائيتها وقلة شأنها وسخافة ملكتها ، فقد كانت الزباء جدة عدوتهم زنوبيا ، وكانت ملكة لتدمر التي أذاقت ملكهم سabor مرارة الانكسار بعد النصر العزيز .

هذا الرأي الذي أدّاني إليه بحثي جعلني أذهب إلى أن زنوبيا كانت حفيدة للزباء ، ولم أنكر قصة الزباء ، فان إنكارها يحتاج إلى دليل إيجابي لم يتوفر اليوم عندي .

ومهما يكن من أمر فقد وجدت في تصوير تدمر وفي وصف حياتها وتاريخها مئة للنفس ونزوة للخاطر . وكنت وأنا اتنقل في الخيال مع الملكة الفاتنة كأني أحياء في حاشيتها وأسير في ركابها .

بل لقد كنت أنفذ إلى أعماق فكرها ، وأسمع نبرات صوتها العذب ، وأنظر إلى مفاتيح حسنها البارع .
ولئن صح أن الكاتب إنما يصف في وصفه بعض ما في نفسه ، وأنه يلبس شخصه ثوبا من نسج طبيعه ، فأنى أحيا في شخص هذه القصة ، وينطق قلبي في ثنايا أحاديثهم ، فإن هزت القصة قوادأ من الأفئدة زاد ذلك في متعتي . وحسبي بعد ذلك كله أني قضيت عاما أو بعض عام في عشرة كريمة لجمع من كرام الأصدقاء ، وإن كان يفصل بيني وبينهم عصر طويل أزال ما بقي من معالمهم وطمس على آثارهم .

وبعد فما هو معنى الزمان ؟ إن هو إلا خيال من خالق العقل البشرى ، وفي تخليد الصور جمع بين الأشقات الذين تقطع بينهم الأحقاب . وما عالم المادة الحاضر إلا مثل عالم المادة الماضي ، كلاهما زائل فان وأما عالم الصور فجميعه في الأبد لا يتفرق .

محمد فريد أبوهميد

obeikandi.com

صائر الأسود

كانت المدينة لا تزال هادئة ساكنة لا يسمع فيها إلا نفس
النسيم الوديع إذ يهب بين سعف النخيل الباسقة ، وكانت النجوم
ترنو إلى الطرق الخالية وانية كأنها تهوّم للنوم بعد طول السهر ؛
وانبلج الفجر من الأفق الشرقي متباطئاً كما تفتح فتاة منعمة عينيها
في استرخاء وفتور ، وهي مترددة في التيقظ ، إذ لا تجد حاجة
لها تقلقها من فراشها الوثير . وكان القمر قد غاب في الأفق
الغربي منذ حين ، فسكتت الكلاب ، وأغمضت جفونها ،
وقد اطمأنت إلى السكون العميق .

وكانت أسوار المدينة — أسوار تدمر — عالية منيعة وأبوابها
المالية الضخمة تحرس الناس من عاديّات الصحارى ، فلم يكن لها
حاجة إلى كثير من الجند للسهر على الدفاع عنها ؛ ولهذا لم يكن
فوق الأسوار إلا أفراد من حملة المشاعل يدورون بين حين
وآخر فوقها ثم يعودون إلى أبراجهم آمينين . فلما بدا خيط الفجر
الأول أطفأوا النيران ومالوا على جنوبهم يخطفون سنة من النوم
قبل أن تشرق الشمس ، إذ كان كل شيء في تدمر ينم عن
الدعة والاطمئنان والسلام .

ولكن ما كاد الحراس يستقرون في مضاجعهم حتى سمعوا

ضجة أيقظتهم فزعين . فقاموا يتنادون في دعر واضطراب ؛
وأسرعوا إلى نوافذ الأبراج ينظرون أنى جاءت إليهم أصوات تلك
الضجة ، وكان الفجر قد تكشف وبدأ نوره الرفيق ينتشر
ويتسع ، فرأى الحراس ركباً مقبلاً يتقدمه فرسان يركضون
وهم ينفخون في الأبواق نفخاً متداركاً ، حتى إذا اقترب الركب
من الأبواب سمعوا أصوات النداء ، فإذا هي أصوات أصحاب لهم
خرجوا بالأمس إلى الصحراء في صحبة الأمير العظيم أذينة صاحب
تدمر وقائد جيوش الشرق وسيد الأرض من جانب الفرات
إلى حدود مصر . وكان قد خرج بالأمس منذ الصباح على عزم أن
يقضى في الصيد أياماً أو أسبوعاً كعادته ، وخرجت معه امرأته
سيدة تدمر وشريكته في الأمر وصاحبته في حله وترحاله (زنوبيا) .
ولم يكن عند الحراس علم أن سيدهم يعود في ذلك الصباح ،
فراعهم أنهم رأوا موكبه مقبلاً ، وأسرعوا نحو الباب الأعظم
لاستقباله وهم يتساءلون عما عاد به قبل أن يبلغ أربه من صيد
السباع والضواري ، كما اعتاد في كل مرة يخرج فيها للنزهة
مع صاحبته !

وفتح الباب الكبير بعد شيء من الكد ؛ فقد كان
مصراعاه الحديديان ، وما وراءهما من دعامات ، وأقفال وقضبان
تحتاج إلى كثير من السواعد القوية كيما تنزاح عن مواضعها ،

فلم يقدر الحراس القلائل على فتحه إلا وقد صار الأمير وزوجته على المدخل ينتظران في قلق .

وكان الأمير راكباً على فرس ، وإلى جانبه فارسان يسندانه على درعين قد وضعتا خلفه ، ومال عليهما قليلاً في فتور ، وهو يكاد يكون مغمض العينين .

وسارت الأميرة خلفه ، وقد بدا على وجهها القلق والحزن وهي تنظر نحوه في إشفاق تنطق به عينها السوداء . دخل الأميران وسار وراءها الأتباع ، وأسرع الحراس يتبعون الركب ، وأخذوا يسألون إخوانهم عما أصاب سيدهم فعاد به إلى تدمر في مثل تلك الحال . ثم أشرقت الشمس ، وصحأ أصحاب القوافل الذين قضوا ليلتهم خارج الأسوار ، وكانت الأخبار قد تسربت إليهم أن أذينة عاد من صيده قبل أن يصيب منه شيئاً ، وأنه رجع ضعيفاً يسنده أصحابه ، وأخذ كل منهم يشارك في إيراد خبر أو التماس علة ، ولهذا كانت أسواق تدمر في ذلك اليوم مضطربة يعلوها جو من الغموض والخشية والوجوم .

ولكن لم يطل أمد ذلك الاضطراب في المدينة ، فما هو إلا أن انتصف النهار حتى سمعت الأبواق من ناحية قصر الأمير مؤذنة بخروجه ذاهباً إلى المعبد العظيم — معبد الشمس — فوقف الناس على جانبي الطريق الأعظم ليملاؤا أعينهم منه ، وليطمئنوا على أنه لم يصبه أذى .

وكان الطريق الفسيح يمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى مسافة تقرب من ميل ، وحوله على الجانبين صفان من الأعمدة المرمية الوردية اللون ، على رأس كل منهما تمثال أو رمز مصور أو لوح قد نقش عليه شرائع المعاملات . واتصلت على حافى الطريق وراء هذه الأعمدة متاجر السلع وقصور الأعيان ومنازل عمال الحكم .

وسار الموكب ، فانطلقت فى الطلبة كوكبة من فرسان عليهم المغافر الصفراء ، والدروع الحديدية السوداء ، وهم فى سلاح تام من سيوف ورماح وأقواس .

وكانت جيادهم العربية تسير بهم واثبة خفيفة مرحة كأنها ترقص بهم فى خيلاء .. وأقبل أذينة فى وسطهم على فرسه الأدهم الذى لم يكن فى بلاد العرب مثله فى سرعة جريه ، ولا فى جمال منظره . وكان يسير على عادته على الرأس أسمر اللون فى حمرة تشبه لون الخمر ، وكانت عيناه السوداوان تلمعان وهو يلتفت باسماً بين حين وحين إلى الشعب المزدهم ، يهتز إذ يسمع هتافه ودعاءه وإعجابه . وكان رأسه معصوباً بمنديل من الحرير الأحمر ، ويمناه مقبوضة إلى صدره بحالة من السكتان الأبيض ، وقد أمسك بعنان فرسه بيسراه . وبدت على معصمه الجواهر تتلألأ فى ضوء الشمس ، من سوارذهى عريض يبدو من كم ردائه الأرجوانى . وكان التاج الذهبى فوق رأسه وعليه حلية بديمة من صنع مصر ، نقش

جوانبه بأشكال من زهر البشنين ورأس النخيل . فكان مظهره
ينم عن مكانه الجديد الذي حل فيه منذ سنين -- أمير الشرق
من جانب الفرات إلى حدود مصر .

وسارت زنوبيا إلى جانبه على فرس أبيض ، تلبس حلة من
الحرير الأبيض ، وعلى رأسها تاج صغير من الذهب المحلى بالجواهر ،
ويبدو في مقدمته رأس الأفعى التى اعتاد ملوك مصر أن يجعلوها
فى تيجانهم ؛ وكانت تفخر بأنها جمعت إلى دمها العربى ورائة مجد
جدتها كليوباترا ملكة مصر ، وكان شعرها الأسود الفاحم يتدلى
لامعاً من تحت التاج كأنما هو حاشية من الحرير الدمشقى ، فكان
الناظر إليها كأنه ينظر إلى تمثال بديع الصنع للإلهة إيزيس فى
معبد الشمس . وكان وجهها الدقيق الأسمر يطفح بشراً
وزهواً ، لولا سحابة من القلق تمر به كلما نظرت إلى ناحية زوجها
البطل ، ولكنها لا تلبث أن تزول تحت ابتسامة عذبة كلما سمعت
هتاف الشعب المتراحم على جانبى الطريق .

وسار الموكب متجهاً إلى المعبد حتى إذا بلغه نزل أذينة
من فرسه ومد يسراه إلى الأميرة ليساعدها على النزول وهو يبسم
لها . فردت له الابتسامة ثم وثبتت إلى الأرض خفيفة ، وسارت
إلى جانبه بين صفين من الحراس والفرسان ، وسار وراءهما الأتباع
والأصراء حتى دخلوا المعبد لتأدية الصلاة لإله الشمس فى
المعبد الكبير ، شكراً له على حمايته فى الليلة السابقة من الأسد

الذى عدا عليه فى أثناء صيده وكاد يمزق أعضائه .
لم يشأ أذينة أن يمر عليه ذلك اليوم وهو محتجب فى قصره ،
فقد كان يعرف أن أهل تدمر قد سمعوا بمودته من الصيد تسنده
جنوده ، وعرف أن قصته سوف تنتشر بينهم وتذهب فيها الظنون
مذابها ، فأراد أن يظهر لهم ليعرفوا أنه لم يصبه أذى من ذلك
الأسد الفاتك الذى كاد يذهب بحياته لولا شجاعته ولولا ذكاء
امراته زنوبيا ، وإخلاص أصحابه الذين كانوا معه فى الصيد .
فانه خرج بالأمس كمادته إلى الصيد وخرجت معه امرأته ، لأنها
كانت تحب أن تصحبه فى تلك الرحلات الشاقة ، وكان يحاول أن
يتجه إلى آجام الأسود ومساكن السباع من الوحش لينازلها ،
إذ كان يرى صيد الظباء والوعول وأمثالها من الأوابد دون
ما ينبى لمثله أن يتعرض له . وكانت الليلة مقمرة ، فرأى عند
غروب الشمس آثار أسد ، فثارت رغبته فى اقتفائه على ضوء
القمر ؛ ولم تشأ امرأته أن تقاوم رغبته ، لأنها كانت تعرف أنه
إذا ثارت نفسه إلى شىء لم يستطع أحد أن يمنعه منه ؛
ولكنها كانت تحس قلقاً شديداً من أن يتعرض لذلك الصيد
الخطر فى ضوء القمر الخافت الخافت وكانت وهى تسير قريباً منه
يخيل إليها أن أشباحاً من السباع تتراقص حولها وتتوابع
أمامهما ؛ ولذلك كانت تسير حذرة مترقبة ، وتحاول أن تكتم
مخاوفها فى صدرها خوف أن ينقص شىء من قدرها فى قلب زوجها

البطل الحبيب الذى لا يعرف الخوف ؛ وطال بهم السير فى أثر الأسد حتى أحسوا التعب يدب فى أجسامهم ، فأراد أذينة إشفافاً على زوجه أن يعيل للراحة عند كثيب من رمال ناعمة صفراء كالذهب . فسبق أصحابه قليلاً لكي يختار مكاناً للجأوس ، وكان فى ذيل الكثيب أجمة ملتفة الأغصان ، فلمحت زنوبيا بعينها المترقبتين حركة خفيفة فى شجيرات على حافة الأجمة ، فانتفضت مدعورة وصاحت على الجند مشيرة إلى الأجمة ، وسمع أذينة صيححتها فالتفت نحوها فى فزع يحسب أن قد أصابها أذى ، فوجدها تشير نحو الأجمة ، وهى تصرخ وقد وضعت يديها على خدها ووقفت صرّاعة ذاهلة . فأسرع مشرعاً رمحاً واتجه نحو الأجمة فى حين أسرع الجنود وراءه وأشرعوا رماحهم ، وما كادوا يبلغون سيدهم حتى كان أسد عظيم قد خرج من بين الأشجار ووثب عليه ورماه على الأرض وقذف رمحاً من يده . فجرى الجنود نحو الأسد يصرخون ، فلما رأهم يقبلون نحوه ترك الرجل الصريع بعد أن مرق جلد رأسه وحطم عظم يده اليمنى ، واتجه إليهم وهو يزجر ويضرب الأرض بذيله غاضباً ، فتردد الجنود قليلاً ثم هجموا عليه فوضعوا فيه رماحهم . فترامى الأسد إلى الوراء من قوة الصدمات ، ولكنه هز نفسه ولا تزال أسنة الرماح فى صدره ووثب على أحدهم فجذّله وأفرغ فيه غضبه ، فحطم رأسه ومارق أعضائه ، ثم ارتقى إلى جانبه صريعاً . فذفف عليه الجنود بأسياقهم ، وعادوا ينظرون

ماذا أصاب صاحبهم فوجدوه قد مات ؛ فأسرعوا نحو أذينة فرأوا
الأميرة عنده مكبة عليه تلمس أعضائه ، وتنظر في وجهه وهي
تناديه بصوت خنقته المبرات . فتتحرك أذينة في فتور ونظار إلى
وجهها الذي قلبه الارتياح الشديد وتبسم لها ، وهم يريد القيام
وهي تساعد . ولكنه صرخ من الألم الذي أحسه في ذراعه
اليمنى وعاد فرقد إلى جانب الكتيب خائراً . فأخذت تمزق ما معها
من المناديل والمصائب ، وعصبت رأسه وربطت ذراعه . وساعدها
الجنود على ذلك ، ثم حملوا سيدهم بقلوب واجمة وركبوا عائدين إلى
تدمر يسندونه على درعين كما وصفناه إذ يدخل من باب المدينة .
رنت جوانب معبد الشمس بأناشيد الكهنة عليهم المسوح
السوداء ، وتقدم الأمير وزوجه نحو المذبح فقربا القرابين وركما إلى
جانبه يصليان لإله الشمس والإله بعل على حمايتهما وبركتهما .
وانتهت الصلاة بعد حين وذهب الموكب خارجا ، فمال أذينة
إلى مجامر البخور فألقى فيها حفنة من المر واللبان والأعواد
العطرية ، ووقف قليلا يستروح وأثمتها ، وكان إلى جانب زنوبيا
معلمها الرومي (لونجين) فالت إليه وهمست في أذنه كلمة ، ثم نظرت
إلى رجل حسن الهيئة في لباس غريب كان واقفاً في آخر الجمع .
فتبسم المعلم وقال لها :

— لو رآه أتباعه هنا لانفضوا من حوله . هذا المنافق !

فقالت له الأميرة هامة :

— صه ! إنه يسمعك في هذا السكون ، أما تعرف أنه

صديق الأمير ؟ .

فقال (لونجين) ، وقد خفض صوته :

— هو يزعم لأصحابه أنه لا يعرف غير المسيح .

فقالت زنوبيا في لهجة اللوم :

— ألا تحب أن يشاركنا اليوم في هذا الفرح أيها السيد

الحكيم ؟ .

فهز الرجل رأسه وقال :

— إنني لا أكره أن يكون معنا حيث نكون ، ولكني

لا أستطيع أن أفهم كيف يذهب بعد ذلك إلى هؤلاء الأتباع

الأغبياء ويصفنا عندهم بأننا أنجاس !

فنظرت زنوبيا إليه نظرة لوم ، ولكنها تبسمت وقالت له :

— سنرى الليلة ماذا يكون من دفاعك أيها الصديق عندما

تجلس لمناظرته . قد كان الأمير يريد أن يسمع مناظرتكما بعد

عودته فلتكن إذاً الليلة . فإنها تذهب عنه الضجر وتروح عن

نفسه وتنسيه آلامه .

وكان أذينة قد تحرك عند ذلك ، فذهبت زنوبيا إلى جانبه ،

واتجهوا نحو باب المعبد ، وسار الموكب في آثارهما ، ولكن الشيخ

الذي كانت الأميرة تحدث معها عنه تأخر وسار وحده . فنظروا

أذينة حوله ، فلما لم يجده قريباً التفت في الجمع يبحث عنه حتى
رآه فناداه :

— تقدم أيها السيد الكريم . تقدم أيها الأب (بولس)
السمسطاني .

فنظرت الميون نحو الرجل وهو يتقدم نحو الأمير الواقف
في انتظاره ، فجعله أذينة عن يساره واستأنف السير إلى الباب وهو
يحدثه ؛ ومضى (لونجين) الرومي سائراً وراء الأميرة يختلس النظرات
إلى الأسقف المسيحي في كراهة ظاهرة . وكان وجهه يزداد ظلمة
كلما رأى الأميرة تشترك مع زوجها ومعه في الحديث .

المرأة الأسيرة

لم يستطع أذينة أن يجلس في تلك الليلة في مجلسه العام كما كان يحب ؛ واضطر إلى قضاء الليلة في فراشه متألماً محموماً . فقد ألحق به ظفر الأسد جراحاً كأنها جراح السهام المسمومة . وقضت زنوبيا الليلة جالسة إلى جوارده ، تضمد له جراحه وتعنى بتنظيفها ، وتذر المقاقير عليها ، كما وصف الأطباء لها . وكانت عظمة واحدة من عظام الذراع قد أصابها كسر ، فجبُر ذلك الكسر ولفَّت الذراع بعد أن شدوها على شريحة مصقولة من الخشب .

ولم ينم أذينة إلا قبيل الصباح ، فذهبت زنوبيا إلى مخدعها بعد أن وكلت خدمته إلى وصيفتين من وصيفاتها وعبدین من عبيده الأوفياء ، وأمرت أن يدعوها إذا ما صحا سيدهم .

ولكن النوم لم يواتها ، فقضت سائر الليلة تقرأ في إلياذة (هومير) لعلها تجد فيها ما يصرف أفكارها عن القلق ، أو يبعث إليها رغبة النوم . ولكنها بقيت مضطربة قلقة حتى طلعت الشمس ، فدخلت الوصيفة (ليس) تسير على حذر وخفة ، خوف أن تزعج سيدتها ، فوجدتها ممددة على أريكة والكتاب في يدها ؛ فنظرت إليها مندهشة وحيثما تحية الصباح قائلة :

— نعم صباح مولاتى الأميرة .

فوضعت زنوبيا الكتاب من يدها ، وردت تحيتها فى فتور ،

ثم تمطت وقالت :

— اطفئى يا ليس هذه الشموع ، فانى لم أحس بطاوع

الصباح .

ثم قامت إلى صرّاة من المعدن اللامع ، فنظرت فيها وجهها ،

وقالت وهى تسوى شعرها الغزير :

— احملى إلى ثوباً يا ليس .

فقات ليس وهى ذاهبة إلى خزانة الثياب :

— أتريد سيدتى الخروج ولم تنم ليلتها ؟

فتنفست زنوبيا وقالت وهى تسوى سوارها الذهبى

حول ذراعها :

— وكيف أنام يا ليس ؟ كيف أنام والأمير يعانى ما يعانى .

إن آمالى وآمال كل تدمر فيه . لقد أصابه ظفر الأسد . لقد

أصابه ظفر الأسد .

وعادت ليس بالثوب إلى سيدتها ، وجعلت تسويه عليها

وهى واقفة تنظر إلى تمثال ذهبى قائم على قاعدة من المرمر فى

أقصى مخدعها . وكانت وهى تلبس ثيابها تتمم ببعض ألفاظ

كانها تصلى ؛ ولكنها بعد قليل انصرفت هن التمثال مقطبة

وقالت فى صوت كأنه الأنين :

— أواه . ما هذا إلامية !

ثم أتجهت إلى ليس وقالت :

— ليتنى يا ليس أجد ملجأ أنصرف إليه . ما هذا إلا صنم .

فنظرت إليها ليس فى خشوع وقالت مترددة :

— أتجهى إلى الله يا مولاتى .

فالتفت زنوبيا إليها بسرعة ، وقالت وقد فتحت عينها
الواسعتين فى اندهاش :

— الله ! لقد سمعت الزاهد فلانس يذكره فى اطمئنان ،

ورأيتك تصلين له كل ليلة فى خشوع ، ولكن . . .

فأطرقت ليس صامته حيناً قصيراً ، ثم قالت بصوت خافت :

— أتجهى إلى الله يا مولاتى ، أتجهى إليه فهو وحده الذى

يؤمن الخائفين .

فقالت زنوبيا بصوت متهدج :

— إن قلبى يفهم ، ولكن عقلى ظآن إلى المعرفة . أحس

بالظلم إلى الحقيقة ، وأشعر بالضمف يهز قلبى . ليتنى أستطيع أن

أفهم يا ليس .

فهزت ليس رأسها خاشعة ولم تجب ، واستمرت زنوبيا فقالت :

— ليتنى أصدق . ليتنى أقدر على أن أومن كما تؤمنين أنت ،

وكما يؤمن هؤلاء الضعفاء المساكين الذين يستمعون بالإيمان .

فتعجرات ليس وقالت فى حماسة :

— إن نور الإيمان يملأ القلب اطمئناناً . يكفى الإنسان أن
يمتلى قلبه بذلك النور .

فوضعت زنوبيا يدها على رأس ليس وقالت بمعطف :

— إنك تتحدثين في حماسة وقوة . إن دعاء المؤمنين يفيد
يا ليس . لو كنت أستطيع الإيمان مثلك لدعوت إلى من
أجل أذينة .

فركت الفتاة بقرب سيدتها ، وضمت كفها وجعلت
تصلى ، ووقفت زنوبيا تنظر إليها وصدرها يضطرب وعيناها
مبالتان بالدمع ، حتى فرغت من صلاتها ، فقامت مطرقة ووقفت
إلى جانب الأميرة وقالت :

— إنه يستجيب الدعاء يا مولاتى . هو الحب الأقدس الذى يملأ
كل مكان ويسمع كل صوت . صلى له إذا شئت وهو يستمع لك .
فنظرت إليها زنوبيا وقالت كأنها تخاطب نفسها :

— وكيف أدعوه ولست أعرفه . ليتنى كنت مثلك .

ثم وقفت فجأة كأن خاطراً خطرها ، وقالت مسرعة بعد
صمت قصير :

— وهل يشفى أذينة ؟ .

فقالت ليس :

— لقد شفى الأكمه والأبرص وأحيا الأموات ، وسترين

يا مولاتى أنه لا يخيب الدعاء .

فركت زنوبيا كما كانت ليس راكعة وجعلت تدعو كما كانت الفتاة تدعو ، وركعت ليس إلى جانبها تشاركها الصلاة حتى انتهت الأميرة من دعائها ؛ فقامت ووضعت يدها على كتف الفتاة قائلة :

— لتكوني آية عندي إن شفي أذينة .

ثم تنفست ومضت خارجة وليس في أثرها تتجهان إلى مخدع الأمير .

اقتربت زنوبيا من سرير زوجها فوجدته لا يزال نائماً ، وأخبرتها الوصيفتان بأنه نام هادئاً منذ تركته ، فاستبشرت وأصرت الوصيفتين أن تذهبا لتصيبا شيئاً من الراحة ، وأقامت أخوين لتقوموا في مكانهما على خدمته ، ثم عادت إلى مخدعها وقد زال عنها كثير من قلقها واضطرابها .

وسارت حول المخدع تنظر في وجوه التماثيل التي كانت قائمة في جوانبه على قواعد من المرص أو النحاس . وكانت تقف عند كل منها لحظة ثم تهز رأسها في شك وتمضي إلى غيره ، حتى وقفت عند تمثال نصفي ، وجعلت تتأمل محاسنه . ثم التفت إلى وصيفتها وقالت :

— إنني لم أسمع من قبل حديثاً مثل حديثك يا ليس . لقد طالما هداني معلمي لونيحين في فلسفته إلى جليل المعاني في أسرار هذا الكون . علمني معنى الألوهية ومعنى الطبيعة . حدثني عن

السبب الأول والمُثُل والروح . علمنى كيف يتسامى العقل
الإنسانى حتى يبلغ مراتب الكمال ، ويمتزج بها فى لحظات
قصيرة من التجلى . ولكنى لم أجِد فى فلسفته ذلك المعنى الذى
تحدثين عنه .

« ما أحوج الخائفين إلى من يلجأون إليه ! وما أحوج
الأسقياء إلى من يشقون فيه ! وما أحوج الضعفاء إلى من
يستجبرون به ! لقد نمجوز عن التسامى والامتزاج بمراتب الكمال ؛
ولكنك تقولين إن فى استطاعتنا ونحن الضعفاء العاجزون أن
نلجأ إلى قلب مملوء بالحب يستجيب لدعائنا ، ويفتفر خطايانا ،
ويمد إلينا يده فى الملمات . هذا شيء آخر يا لميس . ولئن كان
الله الذى تحدثين عنه يجيب دعوتى »

فقاطعتها لميس بحماسة :

— إنه لا يخيب الدعاء يا مولاتى .

فقات زنوبيا وقد أعدتها حماسة الفتاة :

— إذا لجمت له تمثالاً هنا أصلى له كل مساء .

فقات الفتاة باسمعة :

— هو فى كل مكان يا سيدتى لا يحتاج إلى تمثال . صلى

له متى شئت وأنى شئت .

فالتفت إليها زنوبيا وترددت قليلاً ثم قالت وقد زالت

عنها رقتها :

— ولكن يا ليس . . . لم تنبهه إلى ما بدا
فنظرت إليها الفتاة في شيء من الخوف لها :
نوبيا فقالت :

— ولكن هؤلاء النصارى يعبدون الشيطان . إلههم .
إلى الكهوف وحدهم ليناجوا الشياطين ، ولا يظهرون مع الناس
في أعيادهم وصلواتهم . فكيف تقولين إن إلههم هو الحب
الأقدس ؟ لا . لا . إلهك تخدعني نفسك أو تريدني أن تخدعيني .
فحاولت الفتاة أن تجيب ، ولكن زنوبيا لم تدع لها
فرصة للحديث ، بل قالت لها في شيء من الجفاء :
— ناوليني عقدى اللؤلؤى .

ووقفت تنظر إلى تمثال من الذهب كان أمامها وقد بدا على
وجهها الإعجاب والكبر . وأسرت ليس في شيء من الارتباك
إلى خزانة الجواهر وعادت بعقد من اللؤلؤ الثمين كأن حباته قطع
من عنقود كرمة تنبت الجواهر ، وقدمته إلى سيدتها في خشوع
وقد بدت على وجهها علامات الخيبة والأسف . إن الأميرة قد
تغيرت عما كانت عليه منذ ساعة ، وعاد عقابها إلى ظمئها ، وقلعها
إلى ضيقه وظلمته ، منذ أحست شيئاً من الاطمئنان على سلامة
الأمير . وضعت زنوبيا العقد حول عنق التمثال وجعلت تسويه
وتنظم دوائره ، ثم بعدت قليلاً وجعلت تتأمل منظره وقالت باسمة :
— إن حسننها خالد يا ليس . لن ينسى العالم اسم جدتي

السبب الأول والثاني هؤلاء الروم قد أساءوا إلى اسمها ودنسوا
الإنسانى حتى ييئس ، فانها قد تحدث أكاذيبهم وخلدت اسمها
قصيرة من التجا

« كانت جدتى ملكة لم ير العالم مثلاً لها . وإنى إن نخرت بآبائى
من العرب من أبناء أذينة الممايق فانى أخفر كذلك بأنها جدتى .
انظرى يا ليس إلى عقد الجواهر حول عنق تماثلها ، ثم تصورى
كيف كانت كاليوبترا فى الحياة » .

ونظرت إلى ليس كأنها تطلب منها مشاركتها فى الإعجاب
ومماونتها فى الإطراء ؛ ولكن الفتاة كانت صر تبكة مهمومة لا تفكر
إلا فى شيء واحد ، وهو جفاء سيدتها لدينها بعد أن كادت ترق
له . ولما رأت الأميرة جهود الفتاة مضت فى حديثها فقالت :

— لقد كانت جدتى ملكة فيما أرادته كله . عرفت كيف تملك
البلاد ، وكيف تملك الناس ؛ وفوق كل ذلك عرفت كيف تملك
زوجها البطل أنطون . لقد ملكته كأتم ما تملك المرأة الرجل .
فهى ملكة على النساء جميعاً إن لم تكن ملكة على الدول !

وصممت قليلاً تفكر ثم استأنفت قائلة وهى تنففس :

— أواه ! ليتنى كنت مثلاً . إننى أعبد أذينة وأأكتفى
بعبادته . قد اتخذته بعلى وإلهى ، ولم أملكه لنفسى . ليتنى
أقدر أن أملكه كما ملكت جدتى أنطون لنتحدى العالم كما تحدته .
إذا لنجحننا حيث أخفقا ، وحققنا ما عاقهما الحظ العاثر عن إتمامه .

ونظرت إلى ليس ، وكانت في حماسها لم تنتبه إلى ما بدا
عليها من الحزن ، فلما وجدتها مطرقة واجمة قالت لها :

— مالك يا ليس واجمة ؟

ثم جذبتها نحوها وضممتها بمطف قائلة :

— هل آلتك شيء من قولي ؟

فقالت ليس في ارتباك ظاهر وهي تبتسم :

— حرسك الله يا مولاتي !

فقالت زنوبيا في صوت خافت :

— إن اضطراني سر الذي يجمع بي . أيسطيع إلهك أن

يساعدنا على ما نريد ؟ إنه لو ساعدنا على الوقوف في وجه روما ،

وجعل تدمر عاصمة الشرق كله ، لكانت تلك آية الآيات عندي .

إذاً لما ترددت في الإيمان يا ليس .

ففتحت الفتاة عينيها في دهشة ولم تجب ، واستمرت

زنوبيا قائلة :

— أيسطيع إلهك أن يساعدنا على ذلك ؟ .

فقالت الفتاة في تردد :

— إنه يستطيع كل شيء يا مولاتي . يستطيع أن يساعد

على كل شيء إذا كان في الخير والمحبة والسلام .

فارتدت زنوبيا إلى الوراء قليلاً وعاد إليها جفاؤها وقالت

في شيء من الحنق :

— إذا كان في الخير والمحبة والسلام ؟ إذا فهو لا يساعد إلا من تقف همته عند المحبة والسلام . إذا فهو لا يسد الطعنات في الحرب ، ولا يقوى القلوب في المآزق ، ولا يعين على النصر والمجد ؟ هو إذا رب الفتيات من أمثالك ، ورب المساكين ، ورب الذين لا مأرب لهم في الحياة .

فשמعت ليس أنها قد أخطأت في إجابتها ، ولم تدرك كيف تستطيع أن تعالج ما بدر منها ، ولم تدرك شيئاً آخر تجيب به غير ما تحدثت به . إنها لم تعرف من دينها غير الصلاة والخير والمحبة والسلام ، ولم يخطر في قلبها أن يكون للدين مقصد غير أن تطعمن به القلوب وتطهر . ولهذا وقفت مبهوتة أمام سيدتها الخائفة ، ولم تقدر على شيء غير أن ثارت الدموع في عينيها وهي تقول في لهجة الاعتذار :

— لست أعرف يا مولائي . لست أعرف إلا أنه يقدر على كل شيء فيه الخير والسلام .

فتركتها زنوبيا وسارت وحدها حول المخدع تنظر في وجوه الأصنام الذهبية والمرصية ، حتى وقفت عند أحدها وجعلت تتأمله حيناً ، ثم هزت رأسها ودعت ليس إليها وقالت لها :

— تعالى إلى يا ليس . إني قسوت عليك في قولي مرة أخرى . لقد أدرك المسيحيون بقلوبهم ما عجز عنه الفلاسفة العقلاء بدرسههم وبخبرهم . إني أسخر من نفسي كلما نظرت إلى هذه القطع

التي يصنعها الناس بأيديهم ثم نضعها هنا لنتقرب إليها بالصلوات والدعاء . أنا أيضاً زنوبيا أفعل ذلك كما يفعله أجهل أهل الصحراء . قد يقدر العقل أن يدرك إذا استطاع القلب أن ينفتح . وإني اليوم أبصر شماعاً من النور ينفذ إلى قلبي .

ثم وضعت يدها على رأسها وقالت :

— أواه ! إن قلبي يضطرب وإن صدري يزدحم بما فيه .

تعبت منذ ليلتين لم أذق فيهما نوماً . ولم تردني القراءة إلا تعباً . أتركيني ههنا يا ليس قليلاً لأستريح حتى يصبحو الأمير ، فإذا تنبه من نومه فأمرني إلى وأيقظيني .

فخرجت ليس وقد سرّى عنها بعض التسرية ، ووقدت زنوبيا على أريكة وأسندت رأسها إلى وسادة وأغمضت عينيها . وبقيت ليس في مخدع الأمير ، وهي تردد أقوال سيدتها العجيبة ، لا تدري إن كانت قد غضبت عليها أو رضيت عنها ، وإن كانت قد رقت للمسيحية أو أغلق قلبها إلى الأبد دونها . وتمثلت صورة كايوبترة فلمحت ما بين الجدة والحفيدة من شبه في الخماسن ، وتذكرت أقوالها التي سمعتها منها أول مرة عن أملها الفسيح في المجد ، وأنها تؤمن بدين المسيح لو ساعدها الله على تحقيق أملها . فقامت عند ذلك وانتحيت من المخدع ناحية ، وأخذت تصلي وتدعو في حماسة وحرارة أن ينصر الله تلك الأميرة ويحقق أملها ، لعل قلبها يلاين فتصير تدمر معقلاً للمؤمنين .

طيسى

كانت ليس فتاة بيضاء طويلة واسمة المينيف سوداء
الحاجبين ، وضاحية الجبين ، يبدو على وجهها خفر ينم عن وداعة .
وكان شعرها الأسود الطويل مسدلاً وراء ظهرها فى غداً
كثيفة لامعة قد زينته بقطع من الذهب فى رباط من كتان
مصر الرقيق . وكان جسمها فى كمال خلقته كأنه دمية مثال
بارع ، فاذا سارت مشيت خفيفة فى خطى هادئة متسقة ، وإذا
تكلمت كان صوتها مطمئناً ، وكان حديثها مثلاً يتغنى الطير ؛
وكانت أقرب الوصيفات إلى زنوبيا وأحبهن إليها ، إذ لم تكن
وصيفة من بين الخدم أو العبيد ، بل كانت ناشئة فى بيت الأمير ،
أتى بها أذينة صبية من أنطاكية بعد مقتل أبها ، وكان له
صديقاً . كان أبوها عربياً مسيحياً يخدم فى جيش قيصر الروم
أميراً على كتيبة عربية ، ثم قتل فى بعض مواقع الحرب المتصلة ،
فترك ابنته لا عائل لها ، وكانت أمها ماتت منذ ولادتها ، فحملها
أذينة معه إلى تدصر ، وجعلها بينه وبين امرأته زنوبيا فى مكان
الابنة الكريمة ، ولم يحاول أن يحملها على دين غير دينها ، برا
بصداقة أبها ، فنشأت فى بيته مسيحية لا تجدد حولها إلا العطف
والبر ، ولا تجدد فى نفسها إلا الصفاء والسلام والشكر . واتخذتها

الأميرة بعد أن شبت وصيفة لها لكي تصقلها بمعاشرة هلية أهل المدينة من نساء الأمراء ، ولكي تتم لها أدبها بمداومة مجالستها ومخالطتها . وكانت تبيح لها أن تذهب في أيام الآحاد وأعياد النصارى إلى الكنيسة الصغيرة التي كان المسيحيون يجتمعون فيها لكي تؤدي معهم الصلاة ؛ ولكنها كانت تمنعها من شهود غير ذلك من مجامع أصحاب هذا الدين الجديد ، خوفاً عليها مما كانت تسمعه عنهم من تهمة وظنون .

وعرفت الفتاة في اختلافها إلى الكنيسة فتي مسيحياً كان في خدمة الأمير ، وأنست إليه منذ كان يصلي في كل أحد إلى جانبها ، حتى إذا ما انتهت الصلاة عاد معها إلى القصر يشيعها . ثم يتركها بعد أن يودعها بدعوة مباركة ، وتودعه بدعوة مثلها مباركة .

كان ذلك الفتى حسان بن عدي ، وهو فارس باسل اتصل بجيش أذينة منذ سنوات ، جاءه هارباً من جيش الروم في دمشق ، يريد أن ينجو بنفسه من الاضطهاد الجارف الذي أحدثه قيصر الروم (قاريان) . فلما لجأ إلى أذينة وجد عنده الأمن والاطمئنان ؛ فقد كان ذلك الأمير العربي لا يعبأ على أي دين يتعبد صاحبه ما دام يراه عربياً باسلاً . وما هو إلا قليل حتى صار حسان من أحب فرسانه إليه ، وأقربهم إلى ثقته .

انتهت ليس من صلاتها في مخدع الأمير أذينة وهو نائم في

ذلك الصباح عقب ليلته المسهدة ، وجلست حينئذ تناجي خواطرها
وآمالها ، وتنتظر أن يصحو الأمير من نومه فتسرع إلى
سيدتها لتوقظها كما أصرتها ، وعند ذلك تذكرت أن ذلك اليوم
كان يوم أحد ، وأنها لم تذهب إلى الكنيسة كما دتها إذ شغلها
حوادث القصر وأحاديث الأميرة ، وما أثارت تلك الأحاديث
فيها من هموم وأمانى .

وأحست بخوف شديد أن يمضى ذلك اليوم بغير أن تذهب
إلى صلاتها ، فاقتربت من سرير الأمير فوجدته لا يزال نائماً ،
فخرجت مسرعة تريد أن تدرك الصلاة في الكنيسة قبل أن
يفوت وقتها ، مؤملة أن تعود إلى القصر قبل أن يصحو سيدها
من نومه . وكانت وهى في طريقها مسرعة جائشة النفس ، ثائرة
الأحزان ، حتى إذا ما بلغت الكنيسة وجدت الجمع يصلى
فأسرعت إلى موضعها ، واشتركت في ترتيل الدعاء ، وكان قلبها
متجهماً إلى الله تدعوه لكي يبرى أذينة كما أبرأ على الأرض
المرضى ، وكما أعاد الحياة إلى الأموات .

ولما فرغت من الصلاة قامت مطرقة ، وجعلت تجفف عينيها ،
وبادرت تريد السير ، فأسرع حسان نحوها في لهفة لم يملك نفسه
من إظهارها ، وسار إلى جانبها صامتاً والقلق باد في عينيها العاطفتين .
كان حسان قد لحظ في أول الصلاة غيابها ، وأحس في قلبه
قلقاً وحزناً لم يفرغ إلى مساءلة نفسه عن كنههما ؛ فقد شغلته

الصلاة عن مثل هذه المسألة إلى حين . ثم رآها مقبلة تخفق قلبه خفقة وتدفع إليه البشر ، ولكنه جحد نفسه وصرفها إلى ما هو فيه من العبادة ؛ ثم سمع صوتها المتهدج في الصلاة ، فلم يستطع أن يمنع من صدره هزة من القلق والإشفاق ، ورآها بمد الصلاة بجفف عينيها فلم يملك أن يقاوم وخزة الألم التي اعترته . عجب حسان من أمر نفسه ، وسار إلى جانبها يفكر في ذلك الشعور الذي رآه فجأة يملأ جوانب نفسه . ذلك شعور لم يفتن إليه من قبل ، ولم يحسب أنه يجدد لفتاة مثلها غريبة عنه لم يعرفها إلا في سويحات عابرة من الحياة في أوقات العبادة .

لقد كان في الحق يترقب أيام الأحاد لكي يصل إلى جانبها ، وكان يجد طرباً يسرى في نفسه كلما سار معها يشيعها إلى القصر ، وكثيراً ما كان يذكرها وهي غائبة فيحس حنيناً إليها ، ويجلس ساعة أو بعض ساعة لكي يتأمل صورتها ويستعيد القليل الذي عرفه من خصالها . لقد كانت لا تتكبر على الفقراء الذين يصلون في تلك الكنيسة المتواضعة ، وكثيراً ما كانت ترسل إليهم الهدايا أو تساعد المعوز منهم أو تعود المريض . كانت تفعل ذلك وهي الناشئة في قصر الإمارة التي لا تعرف إلا حياة النعيم والدعة ، وما ذلك كله إلا لأنها صادقة في حب المسيح .

كان حسان يعرف نفسه مسيحياً تقياً ، ولكنه لم يشعر بحب المسيح بمثل تلك الحرارة التي أصبحت تدق صدره إلا منذ عرفها .

كانت هذه الأفكار تضطرب في صدر حسان ، وهو يسير إلى جانب الفتاة ، حتى ظهر اضطراب نفسه في حركة أنفاسه وتقلب نظراته ، واعتراه ارتباك وتردد في إشاراته وحركاته ، وجعل يسائل نفسه : أمن حقه أن يسألها عن سبب حزنها وعما أثار الدمع في عينيها ؟ أم أن الحاجز الذي يحجب بينهما من تفاوت الأقدار يأصره بأن يبقى على ما اعتاده معها من ملازمة البعد والتحفظ ؟ وكأن ليس قد أحست بما يدور في نفسه من الخواطر فقطعت الصمت قائلة له :

— ألم تصل من أجل الأمير يا حسان ؟

فقال حسان مسرعاً :

— عفواً يا سيدي . لم يخضر لي ذلك في الصلاة .

ونظر إليها كأنه يعتذر .

فقالت له في لهجة لوم رفيق :

— لعلك لم تصل من أجله لأنه لا يعرف المسيح ؟

فتردد حسان لحظة ثم قال بصوت ضعيف :

— هو ما تقولين يا سيدي .

فنظرت نحوه بيمينها الواسعتين كأنما تستغفر له عن خطيئته

ثم قالت :

— صل من أجله يا حسان . إنه يحسن إليك وإلى .

فأطرق حسان وقد تمثل صدق قول الفتاة ، وتذكر ما لقيه

من بر أذينة بعد عسف الروم واضطهادهم ، ثم قال وهو ناظر
إليها كالستعطف :

— سأ كفر عن خطيئتي يا سيدتي . وحسبه دعاؤك .

فأنت . . .

ثم عاوده ارتباكاً وتردده فسكت ومضى في السير إلى جانبها
صامتاً حتى بلغا القصر .

عاد حسان بعد أن ودع لميس ، وسار مطرقاً يفكر في الفاظه
التي فاه بها ويزنها ويحاسب نفسه عليها .

ودخلت لميس ، بسرعة لترى الأمير خوف أن يكون قد صحا
أثناء غيابها ، فلما بلغت المخدع لقيت سيدتها عند الباب ، وكان
وجهها متهللاً تعاوه حمرة ، وتلمع عيناها ببريق السعادة . ولم تنتظر
زنوبيا حتى تتلقى تحية الفتاة أو اعتذارها ، ففتحت لها ذراعها
وضمتها إلى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت بصوتها العذب :

— أبشرى يا لميس لقد أصبح الأمير مسافى . إنه اليوم
يطلب الطعام ويتحدث ويضحك . أبشرى يا لميس .

فضحكت لميس ضحكة وديعة أودعت فيها ما خالجهما من
سرور وقالت :

— الشكر لله يا سيدتي ، لقد تقبل دعائي .

فأخذت زنوبيا بيدها ودخلت بها بسرعة نحو حجر القصر

وهي تقول :

— إذا كنت تصلين له ؟

فقلت ليس :

— صليت له وتضرعت لله . إنه يقبل الدعاء .

فضحكت زنوبيا وقالت :

— اسرعان ما استجاب لك إلهك ! إنه يحبك يا ليس

فقلت ليس متحمسة :

— إنه يجيب الدعوة الخالصة يا مولاتي .

فضحكت زنوبيا مرة أخرى وقالت :

— سأجعل له تمثالا هنا لكي تصلي عنده يا ليس . لا بد

من ذلك .

وعند ذلك بلغت باب مخدعها فغيرت الحديث فجأة وقالت :

— جهزي لي أحسن ثيابي يا ليس . واحملي إلى حليتي .

فذهبت ليس مسرعة تلبس أمرها ، وجملت زنوبيا تخلع

ثيابها ، وقالت في أثناء ذلك :

— ما كنت أحسب إلهك يقدر على شيء يا ليس ، هكذا

كان يقول أعداؤكم عنه ، ولكنه شفى لي أذينة . أليس هكذا

تقولين يا ليس ؟

فقلت ليس :

— أجل لقد استجاب دعائي .

قالت ذلك وهي منهمكة عند الخزان تختار من الملابس ما

تطمئن إلى أنه يروق سيدتها الأنيقة ، ومن الحلى ما تظنه
يوأثم تلك الملابس ويبرز محاسنها ، ثم عادت تعين سيدتها على
التزين وهي تنظر إلى عينيها لترى هل لقي اختيارها عندها قبولا .
ونظرت زنوبيا إليها وهي مقبلة على تسوية الحلة عليها فقالت
لها وهي باسمة :

— لقد ألهاني صرض الأمير عن الإفضاء إليك بنخب يسرك
يا لميس .

فنظرت إليها الفتاة ولا تزال دائبة على تسويتها :

-- ليس بعد سرورى بشفاء سولاي الأمير شيء
يزيدنى سرورا .

فاستمرت الأميرة على ابتسامتها وقالت :

— هكذا تقول الفتاة دائماً وهي تخادع نفسها . أنت
أهل للخير كله يا لميس . لقد أتى إلى الأمير قبل خروجه للصيد
خاطب لك من أبناء الأصراء .

فأمسكت لميس عن خدمتها ، ونظرت إلى الأميرة في دهشة
يشوبها الذعر وقالت :

-- خاطب لى ؟ .

فقالت زنوبيا وقد فارقتها الابتسامة :

— نعم . ولكنى لم أجد فرصة لكي أحمل إليك النبأ . فكيف
كنت أذكر ذلك وقد اتى الأمير ما لى ؟ أوه ! ما كان أظلم تلك الليلة !

وأغمضت عينيها كأنها تريد أن تبعد من ذهنها صورة
تلك الليلة الكريهة . ثم استأنفت بعد قليل قائلة :
— يسرنا أن نجد لك زوجاً من الأكفاء . إنه كفء
كريم وفتى جميل .

فترددت ليس لحظة ، ثم هزت رأسها وقالت بغير اهتمام :
— مولاتى ا دعى ذكر هذا .
فقالت زنوبيا :

— إنك لم تسمى بعدُ كل ما أحب أن أقوله لك .
أنا لم أقل لك اسم الرجل . إنه عمرو بن أسيد .
ثم نظرت إليها وقالت باسمه :

— ولا شك أنك الآن تحبين مواصلة الحديث ؛ فهو ابن
سيد من سادات سلاييح .

وكانت ليس أثناء هذا مرتبكة حتى لم تستطع أن تفرغ
كعادتها لإيقان خدمتها ، وأخذ صدرها يضطرب ؛ فنظرت إليها
الأميرة وتركت ملابسها وقالت لها بصوت فيه شيء من الغضب :
— ما لك لا تتكلمين يا ليس ؟

فزاد اضطراب ليس وأمسكت عن عملها وأطرقت قائلة :
— ليس عندي شيء أقوله يا مولاتى .

فقالت زنوبيا وهي تنظر إليها بدهشة :

— أرى النبأ لم يسرك يا ليس ، وهذا أمر عجيب ! لقد

حسبتك تطربين وتهنئين نفسك بهذه السعادة .
فلم تستطع لميس أن تمالك نفسها ، وأفلتت منها دموعها
وقالت في ضراعة :

— مولاتى ! مولاتى ! ترفقى بى كما كنت تترفقين أبدأ .

فلانت الأميرة ورقت لها وقالت بصوت عاطف :

— فكري يا لميس ، ولا تطيمي خرافات الحق . أظنك

لا تريدن الزواج من غير مسيحي ، هذه خرافة . لقد رحب
الأمير بضيفه أسيد عند ما جاءه بخطبك لابنه . وهو لا يختار لك
إلا كفاً كريماً .

ثم وضعت يدها على رأس الفتاة الباكية ، وجملت تمر بها
عليه برفق وهى تقول كأنها تحدث نفسها :

— حقا لقد سمعت أن فى المسيحيين كبراً عمن لم يكن

على دينهم ، وهم يرغبون فى أشباههم فى الدين وإن كانوا غير
أكفاء لهم ، ولكن هذا حق يا بنيتى . هذا حق وخرافة . فإن
يمنعك شئ من عبادة إلهك إذا شئت فى بيت عمرو كما تعبدينه
هنا فى بيت أذينة .

ولكن الفتاة بقيت جاثية إلى جوارها وهى تبكى ، فعاد

الغضب إلى زنوبيا وقالت :

— مالك لا تجيبين يا لميس ؟ إن فى الأمر لسرا . إن فى

الأمر لسرا . قولى . تكلمى .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

— لا أريد زواجاً . لا أريد زواجاً . هذا كل شيء .

فسكنت زنوبيا لحظة ، ولعت عيناها لمة خاطفة ، كأنما
صر بخاطرهما رأى سريع ، ثم تبسمت وأخذت بيد الفتاة
وجذبتها إليها وقالت لها بصوت عاطف :

— جفني هذه الدموع وتكلمي . كلمي صديقتك زنوبيا
كما كانت صديقتك تكلمك ، تكلمي يا ليس . لقد طالما حدثتك
عن نفسي فإذا أنت تحدثت إلي تحدثت إلي قلب عاطف أمين . قولي
يا ليس هل ثم فتى ؟ . . .

ثم وضعت يدها على رأسها ، وجعلت تمسح على شعرها
الناعم وهي تنظر إلى عينيها . فنظرت الفتاة إليها لحظة وهي
متردة ثم أطرقت وقد اشتدت حمرة وجهها الجميل وجعلت
تبكي صامتة .

فقالت زنوبيا بصوت هادي :

— ومن هو يا ليس ؟ أهو كفاء لك ؟

فرفعت الفتاة رأسها ، وكأنها قد اعتزمت أحراً جديداً ،
وتغيرت هيئتها فهدأت بعد اضطرابها ، وبرقت عيناها الواسعتان ،
وقد جفت منهما الدموع ، وقالت :

— كنت أحب يا مولاتي أن تكوني بي أكثر رحمة

فلا تحمليني على قول أرى فيه إذلالاً لنفسي . وما دمت قد أبيت

إلا أن تعرفي ما عندي ، فاعلمي أن قلبي منصرف عن الزواج .
ولست أعرف أحداً من الفتيان أحب أن أتزوج منه كما تظنين ،
فلا أعرف إلا فتى عرفته في الصلاة ، لم أكلمه في غير الصلاة ، ولم
يكلمني إلا في مواساة الضعفاء ، ولم نتحدث يوماً إلا عن المسيح
والشهداء ، وليس في نفسي نحوه إلا ما أحسه من مشاركته
إياي في حب المسيح .

فقاطعتها زنوبيا في شيء من الغضب المكتوم وقالت :
— وكيف ترينه ؟ .

فأسرعت الفتاة قائلة :

— أراه أفضل الناس وأكرمهم وأشجعهم وأقدسهم .
ثم نظرت إليها نظرة ثابتة بعينيها الواسعتين وهما لا تطرقان .
فأطرقت زنوبيا أمام نظرة الفتاة ، وكانت أول مرة تغضى
فيها زنوبيا أمام نظرة إنسان . وقالت كأنها تحدث نفسها :
— أنت لا تعرفين ما عندك يا بنية ولكني أعرفه .

ثم تنفست نفساً عميقاً ، ووقفت حينئذ صامتة ، ثم تذكرت أنها
كانت تريد إتمام زينتها للذهاب إلى أذينة ، فقالت في سرعة وهي باسمه :
— هلمى يا بنيتي الآن لاتمام لبسي . لقد ألهيتني عن نفسي
وأنا أكاد أكون عارية . هلمى إلى هذا الثوب فأحسني تسويته
على . أما هذا الحديث فانه أحب إلى في وقت آخر في سكون
الليل إذا البدر بدا .

أسر أمبراطور الروم

عم الفرخ أرجاء تدمر عندما ذاع نبأ شفاء أذينة مما ألم به من صراع الأسد ، وأكسبه ذلك الحادث الجليل ذكراً يتردد في أنحاء البلاد بأنه قاهر السباع ، فكانت حلقات الشعب تتجمع أيام الأسواق في رحاب المدينة تسمع قصائد الشعراء وأغاني القيان في مدحه والاشادة بشجاعته .

وجلس في يوم بعد تمام شفاؤه في قصره يستقبل وجوه تدمر وكبار جندها ، ووفود قبائل العرب الذين أتوا إليه يحملون هدايا شيوخها ، ووفود مدائن الشام الذين جاءوا يؤدون لأذينة المظيم تحية الولاء للأمير أغنى بلادهم وأكثرها عمراً ، وكان من بين الوفود جماعات أتوا من الاسكندرية وآخرون من أنقرة ليظهروا للأمير الشرق عرفان بلاد الأمبراطورية الرومانية لمكانته وفضله . كان ذلك اليوم أسعد أيام (زنوبيا) ، إذ اجتمع لها السرور بشفاء زوجها البطل الحبيب ، وسرور آخر لا يقل عنه بأن ترى تدمر محط رحال وفود أقطار العالم . وامتلاً قلبها بأملها الأثير أن تصبح تدمر ذات يوم سيدة كل تلك الأقطار وقبلة دولها .

وخرج أذينة في أصيل ذلك اليوم إلى معبد الشمس سائراً في موكب رائع من جنده وضيوفه على خيل عربية أصيلة ، وكان

أهل المدينة كلهم فى عيد شامل أبرزوا فيه كل ما عندهم من ربة
وثررة ، وأرخوا لأنفسهم العنان فى المرح والغناء والقصف .
واختلط مع أهل المدينة فى ذلك العيد العميم جماعات من
الصحراء الذين جاءوا بقوافلهم إلى تدمر من أطراف السواحل
فى الجنوب والشرق والغرب ، فكانت طرق المدينة تضم ألواناً
من الوجوه ، فيها من كل سن وجنس ، وألواناً من الملابس
والأزياء ، بين شملة الأعراى ، وملاء الرومى ، وقباء الفارسى .
وفى مساء ذلك اليوم مدت الموائد لإطعام الوفود فى إيوان
القصر ، واجتمعت عليها أطايب ما فى الشرق وما فى الغرب من
صنوف الطعام ، بعضها حضرى وبعضها بدوى ، وقدمت فيها من
أطباق الفاكهة ما لا عهد به لأهل الصحارى ، ومن صنوف
الحلوى والألطاف ما أدهش ألباب القوم من حضر الشرق
والغرب . وجلس أذينة بعد انصراف الوفود والضيوف فى جماعة
قليلة من أصفياه وأصحابه وحضرت الأميرة ووراءها وصيفاتها
لتشاركهم فى سمرهم ، كما كانت عاداتها من قبل كلما خلا أذينة إلى
أقرب الأصدقاء .

وكانت فى تلك الليلة باهرة الحسن ، فان السرور الذى كان
يملاً قلبها قد خلع عليها لآلاء ساحراً ، فكانت عيناها السوداءوان
الواسعتان تتألقان بنور البشر ، ووجهها الأسمر الخمرى يشع
سعادة وفتنة . وكانت تلبس ثوباً من الحرير الأحمر الامبراطورى ،

وزينت ذراعها وأصابعها وصدرها ورأسها بحلى من الذهب الثقيل والجواهر المزدحمة ، ولكنها مع ذلك كانت رشيقة القد خفيفة الحركة أنيقة المنظر .

وتطلعت إليها العيون حيناً وقد بهرها الحسن البارع ، ولكنها ما لبثت أن أغضت إجلالاً لمكانها وهيبة لزوجها البطل الجليل . وقام أذينة يستقبلها باسمًا ، ثم أخذ بيدها فى بساطة وكبرياء . وقال لها فى لهجة المباهاة :

— أميرة الشرق تحية طيبة ! .

فابتسمت ونظرت إليه وأجابته قائلة :

— تحية لسيدى أمير الشرق ، أذينة العظيم .

ثم مالت إليه وقالت بصوت هامس :

— أوشكت أن أقول تحية لامبراطور الشرق .

فتبسم أذينة ونظر نحوها نظرة أودعها ما يحسه نحوها من إكبار لذكائها وغرام بحسنها . ثم جلس وأجلسها إلى جواره ووقفت الوصيفات وراءها يحملن المناديل وقماقم العطور ، وينظرن إليها ينتظرن إشارتها ، وكانت أبرعهن حسنًا (ليس) ابنة عامر .

جلس أذينة مع زنوبيا فى صدر البهو القسيح وقد نصب له تحت عال من خشب الأرز الذى جلب إليه من لبنان ، عليه حلية من الذهب فى أركانه وفى ظهره على هيئة تمائيل لايزيس إلهة الخصب والخير وأبولو إله الشمس والقوة ، وكانت قاعدته

الذهبيتان على صورة أسدين رأسهما على هيئة رأس رجل متوج
بأكليل في صورة الحية الملكية المصرية ، وقد وضعت فوق
التخت صفوف من الطنافس والمساند المغطاة بنسيج دقيق من
الكتان الناعم ، وعليها نقوش ملونة من أشكال الزهر والحيوان .
ووضعت على جانبي البهو أرائك أقل علواً من أريكة الأمير
قد زينت كلها بالنقوش وطلبت حليتها بأغشية الذهب والنجاس .
ووضعت عليها فرش وثيرة ومساند جميلة وفراء ناعمة مختارة من
الأبيض والأسود والمصبوغ بالأحمر والأصفر . ووضعت عند
كل من هذه الأرائك مناضد من الخشب والحدن مختلفة
الرسوم والنقوش .

وكانت منضدة الأمير قطعة من خير ما أنتجه فن
الاسكندرية من الخشب الثقيل المطعم بالذهب والفضة والماج ،
رسمت نقوشها على هيئة سباع وشجر وطيور وزهر .

ووضعت على المناضد أباريق الخمر والأكواب بعضها من
الذهب لشرب الأمير والعظاء ، وبعضها من الفضة لمن هم دون
ذلك من الأصحاب ، وعليها حلي مختلفة ونقوش متنوعة . ووضعت
إلى جانب الأباريق والكؤوس صحاف من الفضة مليئة بالفاكهة
والثمار والأعشاب المعطرة والأزهار ، وفرشت أرض البهو بأنواع
من الطنافس والبسط ، وألقيت بينها جلود فهود وأسود وديبة
مما صاده أذينة في غزواته للوحوش . وكانت بين المقاعد قوائم من

المرمر الملون والنحاس الأصفر قد وضعت عليها مجامر الذهب والعود ، أو تماثيل شتى للآلهة المعبودة عند ذلك من بلاد مصر إلى بلاد الروم .

وجلس الضيوف حول البهو الفسيح ، فكانوا خائطاً عجيباً من المشارق والمغرب ، فيهم شيوخ من مصر وجرحهم قد أتوا من بلاد اليمامة والحجاز ، ووجوه من اليمن قد أتوا مع تجارتهم من أقصى الجنوب ، وفرسان من جنود تدمر يلبسون ملابس تشبه زي الروم وحليتهم ، بعضهم من العرب وبعضهم من أهل الشام أو جبال حوران .

وكان بين الحاضرين اثنان من المسيحيين ، أحدهما الزاهد (فليس) في ملابس سوداء خشنة ، والآخر أسقف أنطاكية بولس السمسطائي ، وهو رجل مليء الجسم أحمر الوجه أسود اللحية ، يظهر عليه أنه غير غريب من حاشية الملوك ، فقد كان أميراً تجبى له أموال من المسيحيين على أنه لهم زعيم ، ولكنه كان يعرف مفاتيح العالم ، ويقبل على لدائه ويعرف كيف يجمع بين عز المال والجاه ، وبين رئاسة الدين ومظاهر قداسته ؛ وكان إلى يمين زنوبيا معامها لونيحين ، وهو رجل في وسط العمر ، عليه سياء الوداعة والسلام ، وتنم ملامح وجهه عن صراحة وقوة نفس وشجاعة وذكاء .

وأخذ الأمير في الشراب مع أصحابه ، وجعل يحدثهم في

حماسة وبساطة عن صيده ومخاطراته فيه ، وعن حوادث العالم
الجميلة التي كانت تلك السنين تضطرب بها ، وجعل الخدم والعبيد
يتنقلون خفافاً ليملاؤوا الكؤوس ويقربوا النقول .

وتدفع الحديث في غير تكلف ولا حذر ، واندفع فيه أبناء
الصحارى الذين لا تمقل ألسنتهم الرهبة ، وشارك فيه من كان
هناك من الأمراء والعلماء الذين كانوا من أنداد الملوك . فكان
أذينة وهو بينهم محاربا بين محاربين أو صديقا مع أصدقاء ؛ وجرى
على وقاره ممتعا أعظم الإمتاع للنفوس . وأقبل الجمع على الشراب
والحديث غير أن لونجين وفلبس الزاهد كانا يرشفان كأسيهما
كأنهما يريدان المشاركة ولا يحببان أن يغلبهما الشراب ، وشاركت
زنوبيا في السمر وبعثت بكأسها ورخامة صوتها روحاً من الطرب
كان له حُميا مثل حُميا الشراب .

والتفت الأمير إلى (لونجين) فوجده يذوق الشراب ولا
يتجبرعه فقال له باسمًا :

— مالك أيها الأخ المبجل تحاذر في الشراب كأنك تخاف
أن ينفد ؟

فنظرت نحوه زنوبيا باسمًا وقالت :

— إن صديقي يرى له رأيا في الشراب ، هو يضمن بذهنه
المتوقد أن يعتريه النسيان .

فنظر لونجين إلى الأمير باسمًا ثم اتجه إلى الأميرة في حياء وقال :

— أعرف أن أباريق مولاي لا تفرغ ، وأعرف أن من
كان في حضرة مولاتي لا يبعد عنه الإلهام .
فضحك أذينة بملء صدره وقال :

— لقد عرفت هؤلاء الفلاسفة لا يمجزهم القول .
ثم شرب ما بقي في كأسه جرعة واحدة والتفت إلى
الفيلسوف وقال :

— آه أيها الفيلسوف . إنها تروى الظلم وتنعش النفس .
إنك لو عرفت الهموم لوجدت فيها شفاءها ، ولو خضت الحروب
لعرفت أنها بلسم لجراحها .
ثم التفت لفته إلى زنوبيا وقال في تردد موجه الخطاب
إلى لونجين :

— ولو عرفت الحب لوجدتها الجرعة التي لا غنى عنها .
فأطرق لونجين واحمر وجهه ولم يجب ، ولكن زنوبيا نظرت
إلى زوجها نظرة تتم عن شيء من الدهشة . إنه يذكر الحب في
حضرة القوم كأنه يلهو بذكره .

وجالت في نفسها خواطر مسرعة تمر مرور الريح الثائرة .
فلعل الخمر قد فككت عقال لسانه فأنطقته بما كان يخفي في صدره .
أترأه يهاثر بذكر الحب ؟

ولم يفتن أذينة إلى مابدا على وجه الأميرة من الدهشة ، فما ملأ
الساقى له الكأس حتى رفعها وشرب منها جرعة طويلة واتجه

إلى (بولص) أسقف إنطاكية وقال في شيء من الخفة :
— وما رأيك أنت أيها الأب المقدس . هل يحرمها عليك
دينك كما تحرمها الفلسفة على لونيحين ؟

وكان (بولص) يشارك في الشراب مشاركة المنادمة في إنافة
وتظرف جديرين بندماء الملوك . ولما سمع سؤال الأمير نظر إليه
باسماً وقال :

— إن ديني لا يحرمها على ، وإن الاستئناس بمجلس مولاي
فوق ما يمكن أن تبمته الكؤوس .
فتحرك أذينة مرتاحاً وقال :

— مرحى لك أيها الأب المقدس !
ثم رفع كأسه وأشار بها نحوه قائلاً :
— إذا فلتشاركني في جرعة على محبتك .

وشرب ما بقي من كأسه ورفع الأب كأسه فشرب منها
جرعة طويلة ، وكان في حركته وإيماءته ومظهره أنيقاً ظريفاً
على كبر سنه .

وجرى الحديث بعد ذلك في بهجة وموانسة لم يكن فيه غضبة
ولا عتبة . على أن مجراه كان في أعمق المسائل وأجل الحوادث .
ثم اتجه إلى مسيل من الفلسفة وخاض فيه المعلم لونيحين مع الزاهد
والأسقف ، وجعل كل منهم يذكر مذهبه ويدل على صلاحه
وسداد الرأي فيه ، إلى أن اختلف الزاهد والأسقف على معنى

الثالث المقدس وبنوة المسيح لله ، فكان (فليس) الزاهد إذا تكلم احمر وجهه المجمع بالحجاسة ، ومازجه الغضب إذا وجد قوة الحججة في معارضه ، فقال له (بولص) الأسقف كأنه يثيره :

— أترى أن يكون الله الخالق هو المسيح المخلوق ؟
فتغيرت ملامح الزاهد وهم بالوقوف ثائراً وأجاب في غضب ظاهر :

— كأنى بك أيها الأسقف تنكر ألوهية المسيح ؟
فخشم الأسقف وهو يجيب قائلاً :

— المسيح مخلوق من روح القدس . أليس الروح من الله ؟
فهم الزاهد بأن يرد وهو ثائر ، فتدخل لونيخين في المناقشة وجعل يورد من مذاهب الفلاسفة ما يدل على أن المسيحية متصلة بمذهب صديقه أفلوطين ومذهب معلمه القديم أفلاطون ، وقال في هدوء لم يخل من سخيرية :

— إن الحقيقة واحدة قديمة : ولكننا نفهمها على ما تهيمته لنا عقولنا .

وتدخلت زنوبيا في الجدل دخولاً هيناً تهدي من سORTE ، وترفقت بصوتها الرخيم عند ما أحست أن غضبة الزاهد توشك أن تعكر صفاء الحديث ، وتنفست عليها بفكاهتها حتى أذهبت حديثها وأبدلت مرارتها . ثم نظرت إلى الأمير فلاحظت ما اعتراه من كثرة الشراب ، ووجدت أن السكر قد غلبه ، فنظرت إلى

معلمها كأنها تستعين بحسن رأيه على صرف المجتَمعين خوف أن تبدر منه بادرة تؤخذ عليه أو أن يفضى بسر يخشى من ذبوعه ؛ ونظر إليها المعلم عاطفاً صرتبكا وقد فهم من نظرتها ما أرادت ؛ وفيما هما كذلك سمعت جليلة تتعالى من فناء القصر ، فأرهف القوم جميعاً آذانهم نحوها إلا أذينة ، فقد مال نحو الكأس التي ملاءها الوصيف يريد أن يرفعها ، ثم أحس أن القوم قد أمسكوا عن الحديث ، فنظر نحوهم متسائلاً ، وعند ذلك بلغت مسمعه الجليلة ، فبدأ عليه شيء من القلق وقال متجهماً إلى الأميرة :

— ما هذا الذي سمعت ؟

فقامت زنوبيا من مكانها ، وهض الجميع لوقوفها إلا أذينة ، فقد بقى حيث كان ، يتحرك حركة بطيئة كأنه يهيم بالقيام ولا يستطيع ، ودخل عند ذلك فارس وحيا ، ثم وقف معتدلاً وقال :

— وصلت الساعة رسالة لولاي .

ثم انتظر أن يخلو بالأمير . فمرف الحاضرون أنه قد أتى بأمر خطير ، فاستأذنوا وأخذوا يخرجون بعد التحية حتى لم يبق إلا لونجين وقد استوقفته الأميرة لسمع ما أتى به الرسول .

وأتى الفارس رسالته وهي تنبئ عن أجل حدث هن الشرق والغرب معا . قد أسر أمبراطور الروم (قارليان) وحمله الملك المنتصر (سابور) الفارسي ، وذهب به في الاغلال يعرضه على جنده حيث سار في آفاق الأرض .

أفضى الفارس بالنبأ الهائل . فهمّ أذينة يريد القيام وهو
يتعثر ويمايل من أثر الخمر . وأسرعت زنوبيا ولونجين إليه يسندانه .
وأرادت الأميرة أن تقعده على أريكته ، ولكنه قاوم ودافع ،
وجعل يصيح بلسانه المتلعثم المعوج :

— جهزوا لى الظليم . جهزوا فرسى الأدم . سأذهب إلى
سابور فى فرسانى لأحطمه ، هاتوا سيفى ودروعى .
ووقف الفارس بعد أن أدى الرسالة ينتظر ما يؤمر به ، فصاح
به أذينة وهو يحاول التقدم نحوه قائلاً فى لسان متلعثم :
— أيها الأصم ، ألم تسمع ما قلت ؟ اذهب لا أم لك .
ثم اندفع نحوه ، ولكنه ما كاد يخطو خطوتين حتى تعثر
وسقط على الأرض قبل أن تستطيع زنوبيا أن تدركه .
وأسرع الفارس ولونجين إليه ليساعده على القيام .
وما كاد يقف على رجليه مترنحاً حتى رفع يده واطم الفارس على
وجهه قائلاً :

— خذ جزاءك . أتعصينى أيها العبد ؟ أسرع إلى الظليم
فجهزه لى .

فوقف الفارس متجهماً كأنه تمثال لا يتحرك ، وأسرعت
زنوبيا صرّاعة ، فأدركت زوجها وأعادته إلى مكانه ، وجعلت
تهدى من ثورته ، ثم نظرت إلى الفارس وقالت :
— هبها لى يا حسان .

وكانت رنة صوتها تنم عما في نفسها من الأسف والألم .
فخيا الفارس وهو واجم ، ثم خرج تاركا الأمير الشائر يهدد
ويتوعد ويصخب .

ورأت (زنوبيا) أنه لا جدوى من مجادلة الأمير وهو في
مثل حالته ، فتركته ينفس عن ثورته ، ولم تمنعه من معاودة
الشراب ، فجعل يجرع الكأس بعد الكأس ، وهو يردد
صيححاته المضطربة ، حتى فتر وخمد ، ومال على أريكته لا يمي .
فأمرت الأميرة بعض الأتباع أن يحملوه إلى مخدعه ، ولما
سوت عليه غطاءه واطمأنت إلى حراسته ، عادت إلى صديقها
لونجين وقضيا سائر الليلة يتذاكران النبأ الجديد ، وينظران فيما
يجب عليهم تدبير الحيلة فيه .

هجرة سابلور

صحا أذينة في اليوم التالي بمسد أن بلغت الشمس
وسط السماء ، وكان متعباً موجه الأعضاء ، وكانت زنوبيا أول
من وقع عليه بصره ، فابتسم لها في فتور ، وقضى مدة حامد
القوى ، ثم بدأ يذكر بعض ما كان منه ؛ فأخذت (زنوبيا)
تقص عليه ما حمله حسان إليه من الأنباء التي أتى بها الرسل
إلى تدصر ؛ ثم أشارت إشارة سريعة إلى ما لقي ذلك الشاب على
يديه من إهانة . ولم تطل في وصف ما كان منه في سكره خوف
أن تؤلمه ، فأسرعت عائدة بالحديث إلى النبأ العظيم الذي حمله
الرسل وسأله قائلة :

— هذا الأمر مما لا ينبغي فيه الإسراع ، فرب عجلة
أورثت ندماً .

فقام أذينة من سريره صامتاً ، وقد ظهر على وجهه التألم
وذهب ليتهايئ للخروج . وساعدته زنوبيا على ملبسه وهي صامته .
ثم خرجا معاً إلى البهو ، وكان أذينة جامد الوجه مطرقاً ، ولكن
عينيه كانتا تبرقان كأن الماء يترقرق فيهما ، وكان جبينه مقطباً
وخُطاه واسعة ثابتة . ولما استقر في مجلسه كان أول من دعاه إليه
حسان . ثم جلس صامتاً يعث في لحيته السوداء القصيرة ، وبعد

قليل جاء حسان يسير جاهاً ثابتاً حتى اقترب منه فحياه ووقف أمامه جامداً . فنظر إليه أذينة لحظة ثم قال بصوت مخنوق فيه تهديج :
— اففر لى زلة الأمس يا حسان أو اقتص منى .

فتحرك وجه الشاب حركة سريعة وأغضى قليلاً ، ثم اقترب منه مسرعاً وأمسك بيده ققبلها قائلاً :

— قد وهبتها أمس لمولاتى . أنا ابنك يا مولاي ولك حياتى .
ثم بعد عنه خارجاً وهو يخفى وجهه لكيلا يرى الدمعة التى فرت من عينيه .

فنظر أذينة إلى (زنوبيا) نظرة أودعها كل حركة نفسه ، ثم غير الحديث فجأة فقال :

— والآن يا ابنة الأكرمين . لقد آليت عندك ألا أشرب الخمر بعدها حتى أرى ما يكون بينى وبين سابور .

فجلست زنوبيا إلى جواره هادئة وقالت :

— ذلك أحرى بك أيها الحبيب .

وصمتت لحظة ثم قالت :

— ولكن ما الذى بينك وبين سابور ؟

فالتفت أذينة نحوها فى دهشة وقال مسرعاً :

— هو السيف . ليس بينى وبينه إلا حد السيف . أأكون

لك رأى آخر ؟

فسكتت لحظة ثم قالت فى صوت خافت :

— ليس بمثل هذه المجلة تقضى الأمور . إنك تهم بعداوة ملك قد صار له ملك الأرض من شرقها إلى غربها...
فقال أذينة مقاطعاً :

— وماذا ننتظر بعد أن أسر قالريان ؟
فقلت زنوبيا هادئة :

— ليس (قالريان) بأب لك أو نسيب . بل إنه لم يكن لك بالصديق . لقد كنت تخشى الروم وتتوقع غزواتهم كلما طلعت عليك شمس نهار وكلما أقبل عليك ليل . وكنت فى مودتك لهم تتلطف لتأمن غائلتهم .

فتحرك أذينة فى خجل وقال متحمساً :

— ولكنه إن بدأ بالروم كنا دونه بعدهم .
فأجابت زنوبيا ولا تزال هادئة :

— فما أسرعك إذاً إليه وهو فى فورة نصره وطلعة إقباله ؟
ألا تدعه يقصد إليك وبينك وبينه هذه الصحارى ؟ لقد كانت الصحراء منذ القدم حصن آبائنا .
فصمت أذينة ، وبدأ عليه القلق والتردد ، فاستأنفت زنوبيا قائلة :

— وإنك إن قصدت نحوه اليوم ذهبت إليه عجلاً فى قلة من رجال وعدة ، على حين يكون هو فى جنوده الذين زهأهم النصر فاتجه أذينة إليها متردداً وقال :

— وإذا فإنك ترين أن نقعد حتى يأتوا إلينا ليغزونا في
عقر دارنا ! لا وحق الشمس وبعل والعزى ! ما غزى قوم في
ديارهم إلا ذلوا .

فقلت زنوبيا في ثبات :

— لا أقول نقعد حتى يأتوا إلينا . بل نستعد لهم بالرجال ،
فنستفز القبائل التي معنا ، ونجمع السلاح ، ونعد الأزواد ، حتى
إذا رأيناه قصدنا بادرنا إليه .

وأحب ألا تنسى ذلك العدو الرابض عند الحيرة . أنسيت
أن امرأ القيس بن عمرو هناك في قومه من نخم ؟ هؤلاء الذين
قتلوا جدي عمراً وجدتي الزباء .

وسكتت زنوبيا عند ذلك لحظة وأخذ صدرها يضطرب كأنه
يضيق بأنفاسه . وبعد قليل استأنفت فقالت :

— إنه إذا رآك تسرع إلى الحرب قبل أن تعد عدتك ونحسب
أمر حاميتك قطع إلينا البرية وأتم لنا كيده . فينال بذلك يدا
عند سابور .

فسكت أذينة طويلاً ، وكانت هذه الحجة آخر ما قضى على
تردده ، وبعد حين نظر إلى زنوبيا . وقال وهو ممتلئ من الغيظ :

— امرؤ القيس بن عمرو !

ثم لانت نظرتة بعد أن استقرت على وجه الأميرة وقال
في إكبار :

— لا زلت أيتها الحبيبة ميمونة الرأى . إن الحق ما تقولين .
ولن أبرح عاملاً بمشورتك .

فتبسمت زنوبيا لهذه التحية الصادقة وقالت :

— لقد أطلت التفكير فى هذا الأمر ليلة أمس . إنه أولى
بنا أن نظهر للناس الفرح بنصر سابور ، والحرص على مودته .
فنظر إليها أذينة مبهوراً فاستمرت تقول :

— إنما إن تظاهرنَا بجمع السلاح والمؤونة ، وأظهرنَا أننا
نستعد للقاء سابور كان ذلك داعياً إلى إسراعه نحونا .

ففهم أذينة ما رمت إليه وكأنه شيء جديد لم يخطر بباله ،
ونظر إليها لا يحير جواباً ، فاستمرت تقول :

— بل إنى أوى أن نشرع منذ الساعة فى تجهيز هدية مما
يهدى إلى الملوك لنبعث بها إلى سابور ، حتى إذا بلغت أنباؤها إلى
امرى القيس بن عمرو سكن عنا وخشع .

فقام أذينة فى حيرة ظاهرة وقامت زنوبيا نحوه ، فتقدم إليها
وأخذ بيديها فقبلهما فى شيء يشبه الحزن ، ثم ضمها إلى صدره
ضمة حب قوى وهو يقول لها :

— ماليكى !

وظهر فى هذه الساعة لونهجى عند الباب ، فلما رأى أذينة
يضم زوجته إلى صدره هم بالرجوع ، فلمحه أذينة وناداه قائلاً :

— تقدم ولا تنكص أيها الحكيم البجل . تقدم وقبل يد
إلا هتك إيزيس وإلا هتك العزى .

فنظرت زنوبيا إلى معلمها وهو يتقدم نحوها في ارتباك ، وقد
هلت وجهه حمرة طفيفة ؛ حتى إذا ما اقترب منها أحنى رأسه
بالتحية ، فمدت يدها إليه فقبلها في خشوع ، ومد أذينة يده إليه
مصافحاً وقال له :

— إنك تعلم الأميرة الحكيمة أيها السيد البجل .
فنظرت زنوبيا باسمة إلى زوجها وقالت :

— عفواً أيها الأمير . لقد ادعيت لنفسى ما ليس لى . إن
الرأى الذى أعجبك ما هو إلا رأى معلمى الحكيم
فالتفت إليه أذينة وقال جاداً :

— أنت إذا قائد محنك أيها الحكيم . لقد عرفت معنى
قولك لى بالأمس إنك لا تحب الشراب .

فنكس لونجين رأسه وعلا وجهه الاحمرار ، وتبسمت زنوبيا
ضاحكة فى خفة كأنها تداعب زوجها وقالت :

— هلم أيها الحبيب لنعد هدية صديقنا العظيم سابور .
وأومأت إليه بالمسير فتبسم لها أذينة وهو يقول :

— إنها طريق زلقة .

ثم سار وراءها وقد وضع يده على كتف لونجين .
مضى بعد ذلك أسبوع كامل ، والأمير فى حركة دائمة ،

والأميرة في شغل متصل ، والأعمال تتراكم في فناء القصر يأتي
بها العبيد محملة على الإبل والحير من أنحاء تدعى الواسعة ؛ فما
بقيت سلامة في الشرق ولا في مصر إلا كانت فيما حمل إلى القصر .
وكانت زنوبيا تشرف على اختيار الطرف والتحف من الأواني
البديعة والملابس الثمينة والحلي الأنيقة ، حتى إذا ما تمت الهدية ،
واطمأنت الأميرة إلى أن قافلتها سوف تكون جديدة بالملوك ،
تنفست وعاد إليها بشرها وأملها في المستقبل الباهر .

وجلس الأمير وزوجته على عاتقهما في بهو القصر يتحدثان
بعد أن فرغما كانا فيه ، وكانت صورة الفارس حسان لا تزال
تتمثل في ذهن زنوبيا بين حين وحين ، وتود لو أتيحت لها فرصة
لاسترضائه واستمالاته بعد ما أصابه من زوجها ؛ وكان حديثها مع
لميس في خلواتهما قد أوقفها على أنه الفتى الذي قد ملأ قلب الوصيصة
العزيرة ، حتى جعلها تأبى الزواج من خير فتيان العرب وابن أمير
من أكبر أمراءهم من سادة ساليح ، فأرادت في ذلك اليوم
أن تستطلع رأى أذينة ، وأن تحاول أن تجعله على أن يرضى
بتزويج لميس للفتى الذي اختارته ، فالتفت إلى صاحبها عندما
أنست منه انشراحاً وإقبالا وقالت له في بساطة :

— أما ترى أن تسترضى حساناً بيد يرضاها ؟

فاتجه إليها أذينة وقال بغير اكتراث :

— لقد استرضيته . إنه شاب باسل لا يحمل لي ضغناً .

فقلت مسرعة :

— أعرف أنه كذلك ، ولكنى كنت منذ حين أحب

أن أفاتحك فى أمره بشىء يسره .

فأجاب أذينة :

— هو مقضى إذا شئت .

فقلت مترددة :

— ليس .

فنظر إليها فى دهشة وقال :

— وما يريد من ليس ؟

فقلت زوبيا فى مداعبة :

— وماذا يريد الرجل من المرأة يا أذينة ؟

ثم ضحكت كما يصدق المزمار إذا غنى ، ووضعت يدها على كتفه

ومالت برأسها إلى صدره ، فضمها أذينة إليه بيديه القويتين وهى

لابدة بين ذراعيه ؛ ثم حركت رأسها فنظرت إليه بعينها الساحرتين

باسمة وهمست تقول :

— أنسيت يا أذينة أيام جئت إلى ؟ لقد كنت عند ذلك تعرف

ما تسأل عنه اليوم . ألا تعرف ماذا يريد من ليس ؟

فضمها ضمة أخرى حارة وقبلها قبلة تجميعها عما سألت عنه ،

وجلسا بعد ذلك ساعة ذكرا فيها تلك الأيام وتلك الليالى الوديمة

التي تمتعا فيها بجهنما الجديد ، ذلك الحب الذي أعاد إلى تدمر عظمتها بعد أن كادت تتحطم وتهوى . وقال لها أذينة :

— إنى ما زلت أذكر ذلك اليوم أيتها الحبيبة كأن لم تمض عليه إلا ساعة . يوم تقدمت إليك حذراً أتوقع أن يطردني أهلك أو يطعنني أحد هؤلاء الأمراء الذين كانوا يتطلعون إلى ماسكك الذي ورثته عن جدتك .

ثم طوقها بيميناه وجذبها إليه . فقالت زنوبيا فى صوت يهتز من العاطفة :

— بل إنى لأذكر ذلك اليوم ؛ لا تفارقنى صورته . فهو أبداً جديد عندى . كنت وحيدة خائفة ضعيفة . وكان هؤلاء الأمراء من سليح وسن بنى عمرو بن عدى يتطلعون إلى تدمر يريدون أن يذلوا كبرياءها وينهشوها كما تنهش الذئاب بقايا الأسد الصريع . ثم وجدتك يا أذينة ، فوجدت حبيبي الفارس الذى طالما حلمت به .

ومدت يدها برفق فأمسكت بيسراه وكأنها فى حلم ، واستمرت تحدثه :

— لقد كنت أسمع عنك وعن بلائك فى الحروب منذ كنت صبيرة ؛ ثم رأيتك ولست أدري كيف أصف لك تلك الأحلام التى حلمتها منذ وقع نظرى عليك . لقد كنت كالطير

ينظر إلى السماء وهو في قفصه ولا يستطيع إلا أن يرفرف
قلقاً حزيناً .

فجمعها أذينة إليه بقوة وقال لها :

— زنوبيا !

فعدت الأميرة إلى حديثها كأنها لا تريد أن تدع تريد
هذه الذكري وقالت :

— ولم أستطع أن أخفي هزتي عنم كان يحيط بي من أهلي
وأتباعي . ولكني كنت امرأة شابة ، وماذا كان يعني
من شأنهم ؟ .

ورفعت رأسها عند ذلك عن كتفه وقالت باسمه

— والآن أتذكرت ما يريد حسان ؟

فابتسم أذينة وقال :

— عرفت ذلك ، ولكن ماذا تريد منه ليس ؟ ماذا تريد

ليس من رجل مثله ؟

فزادت ابتسامتها اتساعاً وقالت في ارتباك :

— ماذا أقول يا أذينة ؟

فضحك أذينة وقال :

— حسبك إذا .

فقالت زنوبيا في همس :

— أيفضبك أنها تحبه ؟

فانتفض أذينة مرتاعاً عند سماع قولها وصاح قائلاً :

— ليس ! أتقولين إنها تحبه ؟

ففتحت زنوبيا عينيها في خوف وقالت في تضرع :

— أذينة ! إنها تحبه .

فصمت أذينة طويلاً ، ثم تنفس نفساً عميقاً وقال :

— إنني أحبها كأنها ابنتي .

ثم هز رأسه أسيفاً وقال :

— لقد كنت أريد أن أختار لها أميراً تسعد في قصره .

أتريدن أن تساعدني على رأيها ؟

فوضعت زنوبيا يدها على كتفيه ، وجذبتة إليها برفق قائلة :

— ولكن أأنت تعرف هؤلاء المسيحيين ؟ أأنت تجالسهم

وتحادثهم وتقدمهم في جيشك ؟ إنهم لا يعرفون الكبرياء . لقد

علمهم ذلك الدين أموراً عجيبة .

فقال أذينة بصوت خافت فيه رنين الأسف :

— إنك تذكرينني بأنها مسيحية .

وبعد أن سكت لحظة قال في شيء من الغضب :

— أأنت تخرج من بين جدران قصرى لتتزوج بمثل حسان ؟

إن العرب غداً ليستمعون إلى أعدائي إذ يقولون إنني مسيحي .

إنني لست أعبا بهذه الدُّمى التي يعبدونها هؤلاء ، ولكني مع

ذلك أعبدها لأنني لا أستطيع حكمهم بغيرها .
وذهب في الصمت مرة أخرى .

وكان زنوبيا أحست بخطئها في ذلك الحديث ، فأمسكت
عنه حيناً وهي واجهة ثم قالت له :

— أسألك العفو يا أذينة . إن قلبي قلب امرأة ، ولم أفطن
إلى خطئي من قبل .

ووضعت رأسها مرة أخرى على كتفه ومدت يدها فأمسكت
بيده وهي صامتة .

سُوم الغراب

مضى على أذينة شهران بعد إرسال هديته إلى سابور ،
ولكنه لم يعلم بعد ما صارت إليه تلك الهدية ، إذ لم تعد رساله ،
ولم تبلغه عنهم أنباء منذ خرجوا من تدمر في قافلتهم العظيمة .
وكان صباحاً بديعاً من أيام الربيع الحلوة ، صافى السماء ،
إلا قطعاً صغيرة من السحب اللامعة ، تجر أذيالها على الأفق .
وكانت الشمس المشرقة عند الأفق ترسل شعاعها الذهبي خلال
السحب ، فتخلع عليها سحراً حتى كأنما هي كسَف من الذهب
المتوهج . وهب النسيم رخياً يملأ النفس أملاً إذا ملئت منه
الصدور ، وكان بساط الحشائش في حديقة قصر الامارة لا يزال
ندياً قد عقدت عليه قلائد كأنها الآلى اللامعة تتراقص مع
هفيف النسيم فوق خيوط العناكب . ووقف أذينة مع زوجته
الحبيبة زنوبيا يودعها عند باب القصر قبل أن يخرج إلى الصحراء .
ونظر إلى الشمس المشرقة ، وكان يحس في نفسه انقباضاً
ظهر أثره على ملامح وجهه ، ولم يفت ذلك عين زنوبيا ، فأرادت
أن تسرى عنه بحديثها ، فقالت وهي تشير إلى السماء :
— هذا (أبولو) في عربته الذهبية ، وهذه (أورورا) تتقدم
موكبته تخفق بجناحينا الشفافين .

فنظر أذينة نحوها متكلفاً الابتسام وقال :
— إنك تخلمين على الحياة جمالا من نفسك الجميلة .
ثم تنفس وقال :

— ليت لي مثل عينيك أنظر بهما إلى هذا العالم .

ومد ذراعيه وضمها ضمة وداع ، وتقدم إلى فرسه الأدهم
(الظالم) فوثب عليه ، ولوح لها بيده تحية ، وغمز الفرس بمنف ،
فعدا به مسرعاً ، كأنه يريد أن يهدى في الحركة العنيفة أشجاناً
تثور في نفسه .

ولكنه ما كاد يخرج من باب الحديقة حتى اعترضه غراب
جاء عن يمينه وانطلق كالهمهم نحو يساره . فشد عنان فرسه ووقف
لحظة واجماً متردداً ؛ ثم تتم قائلاً :

حسبي من الشؤم ما في نفسي .

وغمز فرسه بمنف فانطلق به مسرعاً .

وكان في خارج فناء القصر ركب من فرسانه ينتظروه ؛ فلما
بلغ مكانه سار متقدماً بغير أن يلتفت إليه ، فالتفت الركاب حوله ،
وساروا نحو الصحراء صامتين . وكان وهو سائر مطرقاً لا يتحدث
ولا يلتفت إلى أحد ممن معه ؛ فقد كانت الأفكار تزدهم في
صدره ، تتضارب وتتجاذب وتضطرب .

أترى سابور يقبل تلك الهدية التي حملته أصراته على إرسالها
إليه ؟ أم تراه يتكبر عنها ويردها ؟

وهل يرسل إليه خلسة من خلع الرضى ، ويطلب إليه أن يكون صديقه وحليفه ، وعده له فى السلطان ، فيحقق له الأمل الذى ظل يملأ قلبه تلك السنين الطويلة ؟ أم يبعث إليه برسالة ازدراء وتهديد ، ويؤاخذنه على ما سبق له من مخالفة الروم ، والاغارة على أرض امسى القيس بن عمرو ملك الحيرة ، الذى كان يستظل بظل فارس ، ويحتمى بعلمها ؟ كانت هذه المواجهات تملأ صدره وهو سائر بين أصحابه صامتاً لا يلتفت إلى أحدهم ، ولا يفتح باباً من الحديث معهم ، وهو كلما حاول أن يصرفها عن نفسه بأن يملأ صدره من الهواء الصافى ، أو يملأ عينيه من المنظر الرائع ، عادت إليه مع صورة الغراب المشؤوم تتدافع وهى أشد عنفاً وإلحاحاً .

ولما ضاق بها تمثل صورة زوجته الحبيبة كما كان يذكرها دائماً إذا اشتد به الكرب ، أو ضاقت عليه وجوه الأمور ؛ وتمنى لو طلب إليها أن تصحبه فى ذلك اليوم ؛ فلقد كان فى النظر إليها ، والاستماع إلى أحاديثها ما يبعد عنه أكبر الهموم وأشدّها ظلمة ؛ فما كانت الهموم لتبقى فى صدره إذا بعثت زنونياً إليه النشوة من روحها الوثاب المرح ، ومن قصصها المعجيب الذى لا تنفذ خزائنه ، ومن صوته العذب الذى كان يزيد شعر هو مير رونقاً ، وغناء فرجيل طرباً . ولكنه لم يفعل ، بل خرج وحده مع هؤلاء الأصحاب الذين كانوا لا يستطيعون غير

مشاركته في الصيد وملاقة الأخطار .

أستطيع الصيدُ في ذلك اليوم أن يذهب عنه القلق الذي استولى عليه منذ بعث الهدية إلى سابور ؟ لقد كانت هادئة أن يهتز لمثل هذا الربيع ، فما باله كان في ذلك اليوم لا يرى فيه جمالاً ؟ بل ما بال ربيع ذلك العام لم يحمل إليه غير ذلك القلق وذلك الحزن العميق الذي كان يخيم على قلبه ؟ لقد كانت أيام ربيع ذلك العام أقفر أيامه ، وأشدها وحشة .

اعتادت تدمر إذا أقبل الربيع ولبست المروج حولها حلتها السندسية ، أن تستقبل معه قطار القوافل تفد إليها مع الريح من كل جانب — من أقصى اليمن والبحرين ، ومن أقصى المغرب ومصر ، ومن شواطئ الفرات ، وجبال أرمينيا ، وطوروس ، بعضها يحل في المدينة ، وبعضها يمر بها ذاهباً في طريقه إلى مقصده ، بعد أن يقيم بها حيناً ليستروح أصحابها من عناء السفر الطويل ، ويصيّبوا من خمرها وسمرها ولهوها قبل أن يواصلوا السير مرة أخرى في دروب الأرض البعيدة .

وكان هو كلما أقبل الربيع تزدهم عليه الأعمال ؛ إذ كان ذلك الوقت من كل عام أوان جباية الأموال من التجار ، واستقبال شيوخ القبائل الذين يأتون إليه يؤدون الجزية من أطراف الصحراء ، ويحملون إلى قصره الهدايا النفيسة من الخيل العرب والجمال النجب ، ومن أبراد اليمن وطرود العود والند والمر واللبن

والبهار . كان الربيع إذا أقبل لم يدع له فراغا لشيء حتى الصيد في الصحراء ، فلم تكن شواغله تترك له فراغا إلا في أوقات قصيرة يقضيها في مجالس سمره مع ضيوفه وندمائيه . ولكن ربيع ذلك العام كان مقفراً موحشاً . فقد قلت القوافل حتى كان اليوم يمضي فلا يدخل إلى المدينة إلا شذاذ من الابل عليها أعراب فقراء جاءوا يقضون بعض حاجاتهم . وتقاعد شيوخ القبائل فلم يخفوا إليه كعادتهم يحملون إليه القربان الذي تعودوه . وقلت الهدايا حتى كادت خزائنه تخلو من الفسود والعود والمر . وما ذلك كله إلا لأن الأنباء سارت في أطراف الأرض بأن سابور ملك الفرس قد انتصر على أمبراطور الروم ، وأن أذينة قد بعث إليه هدية يسترضيه ويتقرب إليه ، ولم ينكشف بعد ما يخبؤه القدر لقدمي وأميرها من ذلك العاهل العظيم .

لقد أراد أذينة أن يخرج ذلك اليوم إلى فضاء الصحراء ليشغل نفسه بالصيد لعله يجد فيه دواءً لما امتلأ به قلبه من القلق والغم ، ولكنه لم يستطع أن يطرد من نفسه هواجس التشاؤم والقلق ، وإن حاول ذلك جهده مرة بعد مرة . فمضى في سيره مطرقاً صامتاً مستسلماً إلى أفكاره المضطربة الكئيبة .

ثم صحا فجأة على رنين صيحة عالية تردد صداها في الفضاء ، فرفع رأسه في دهشة ونظر حوله مستفسراً ، فإذا فارس من أصحابه يمشو على مسافة أمامه وقد لاح سرب من بقر الوحش

عند الأفق . وإذا أصحابه قد استفزتهم الصيحة فعدوا في إثر
الفرس سراهاً ، وبقي هو وحده كأنه يفيق من حلم .

فلم يقف ليتأمل ما حدث وغمز فرسه الظليم وعدا وراء
أصحابه وقد امتلأ قلبه المهرج غيظاً . فما كان أذينة ليرضى أن
يسبقه أحد إلى ساحل الصيد . ولم يمض إلا قليل حتى أدرك
أصحابه ، وكان الفرس السابق لا يزال على مسافة بعيدة أمامهم .
نسى أذينة عند ذلك كل ما كان يدور في رأسه ، ولم يبق له
إلا هم واحد وهو أن يدرك الصيد قبل ذلك الفرس السابق .
ويرمى رميته أول أصحابه جميعاً .

ولما رأى الفرسان أذينة بينهم لووا أعنة خيلهم لكي
يسبقهم . ولكن الفرس الأول مضى على فرسه لا يتردد ولا
يلتفت وراءه . فقسا أذينة على فرسه فأهوى عليه بالسوط ،
وما كانت عادته أن يقسو عليه ، ولكن الفتى السابق ألهم
فرسه ، فوثب كأنما كان يطفو فوق الرياح ، وأعجز أذينة أن
يدركه . وما زال الفتى كذلك حتى أدرك سرب البقر فرمى ثوراً
منه فأثبتته بسهمه وانقلب الوحش من سرعة عدوه حتى هوى
على قرنيه ، وارتفعت أرجله في الهواء . . ولما ظفر الفرس برميته
البارعة هداً فرسه فجأة حتى وقف عند الثور ، ودار يستقبل
أصحابه وركز رمحاً في عنق صيده وجعل يصيح صيحة الفرح
والمباهاة ، وقد احمر وجهه وشاعت فيه الحماسة والكبرياء .

ولكن أذينة لم يقف عنده بل صر به سريعاً في أثر السرب
الفرع حتى قرب منه ، وظن أنه قد صار على صرى حربته منه فرمى
بقرة كانت أقرب السرب إليه ؛ ولكن الرمح وقع بين أرجلها
فرفعت رأسها في زعر شديد ، ووثبت ناجية حتى بعدت عنه
وأعجزته عن إدراكها . واضطر أذينة أن يلوى عنان فرسه ويعود
نحو أصحابه وقلبه يكاد يتمزق من الغيظ . .

ورجع إلى أصحابه وكان دمه يغلي غلياناً ، ولم يستطع أن
يكبح نفسه ، فان الهموم التي زاحمت صدره في أول اليوم لم تبقى
فيه طاقة على إمساك غضبه . وأقبل حتى اقترب من الفارس
الفائز ، وكان من أقرب أهله إليه ، فهو معن ابن أخيه الحيران
فارس تدبر وفتاها بعد الأمير .

وأحس معن عند ما اقترب عمه منه أنه قد أقبل ثائراً ،
وتنبه عند ذلك إلى خطئه الذي اندفع إليه في حماسته ، فقد كان
يعرف أن أذينة شديد الغيرة من أن يسبقه أحد أصحابه إلى
صيده ، وقد اجتمع له في ذلك اليوم غضب التأخر في الرماية ،
وشعور العزة المهزومة بعد ما أصابه من الخيبة .

فأراد الفتى أن يقدم إليه شيئاً من الاعتذار ، فتحرك مقبلاً
نحوه ، وقد اكتسى وجهه بالبتسامة مترددة خجلة . ولكن
منظر أذينة صده عما كان عازماً عليه من الاعتذار ، فوقف تجاهه
صامتاً ، ورفع رأسه وقد زالت عن وجهه الابتسامة ؛ ونظر إليه

القوم في وجوم وهم في حذر وخشية ، لا يدرون كيف ينتهي
الأمر بين رجلين من أرومة واحدة يشتركان في الكبرياء
والفروسية ، أحدهما يدل بالرياسة ، والآخر لا يزال في
فورة الشباب .

وكان معن شاباً طويلاً ، دقيق العود ، جميل الوجه ، في عينيه
حلاوة ، ولكنهما يبرقان بريق عيني الصقر ، وقد جدد شعره في
غديرتين من الخلف ، وأرسل لمتة الشعثاء كأنها عرف أسد .
فلما قرب أذينة منه ، تقدم نحوه متردداً رافع الرأس ، وقال
له في هدوء :

— لقد أنساني منظر الوحش أن أنبهك أيها الأمير ، ولو
نبهتك لكنت على الظلم أولنا .
وكان أذينة لم يسمع ما قاله الفتى ، فنظر إلى أصحابه وأشار
إلى فارسين منهم وقال لهما وصدره يضطرب بأنفاسه :
— أنزلاه عن فرسه .

ثم التفت إليه وقال له :
— أيها الوغد ! أتسبقني لكي ترمي قبلي حتى أرمي بعدك
فلا أصيب ؟ لأعلمنك الأدب ، أو لا تكون منذ اليوم
راغم الأنف .

وكان وهو يتكلم يقف بين الألفاظ كي يجد ريقه من الغيظ .
ووقف الشاب مبهوراً لم يستطع ردّاً ، ولم يحاول بعد ذلك

اعتذاراً ، حتى اقترب منه الفارسان يريدان أن ينزلاه عن فرسه ،
فهمزه وتراجع به إلى الوراء ، وجرد سيفه وقال وقد ثار أنفة :
— ارجعا وإلا ألحمتكما السيف .

فتردد الفارسان ، ووضعما يديهما على سيفيهما ، ثم نظرا
إلى أذينة كأنهما يستأذنان في أن ينازله أحدهما بالسيف ،
ولكن أذينة لم يدع لهما فرصة للسؤال ، بل جرد سيفه وتقدم
نحو ابن أخيه ، ووقف أمامه وصاح به :
— لتنزلن ، أو لأضربنك أنا بسيفي .

فنظر إليه الفتى لحظة ، ثم أغمد سيفه ، وطأطأ رأسه قائلاً :
— اضرب عنقي إذا شئت يا عماء .

ثم نزل عن فرسه ، ووقف على الأرض ينتظر ما يقوله الأمير
الغاضب ؛ فأسرع شيخ من أصحاب الأمير حتى صار إلى جانبه ،
وأراد أن يكلمه ضارعاً ؛ فنظر إليه أذينة نظرة أوقفته في مكانه ،
ثم توجه إلى الفتى وقال له :

— اتبعني إلى القصر ، فإن لي معك شأنًا .

ثم ركب وهمز فرسه وتبعه معن على فرسه جاها ، وسار
القوم وراءهما في صمت وإطراق ؛ فكان موكباً حزيناً فاتراً ،
لم يدخل تدمر مثله من قبل في يوم صيد .

ولما بلغ أذينة القصر نزل ، ونزل وراءه الفتى ، ووقف
هادئاً ظاهر العزة ؛ فلما وقعت عين الأمير عليه ، زاد غيظاً من

سكونه وكبريائه ، وصاح بالفارسين الذين وقفوا إلى جواره قائلاً :
— خذوا فرسه هذا فاذهبوا به ، ثم ألقوا بهذا المنحوس في
سجن القصر حتى يأتكما أمرى .

فارتد الفتى صرّاعاً إلى الوراء ، وصاح في حنق قائلاً :
— أتسلب فرسى وتسجننى ؟ أما كنت تستطيع أن
تذهب برأسى ؟

فنظر إليه أذينة حيناً ، ولما تالقت عيناها ، ورأى ما فى نظرة
الفتى من انكسار ، دب فى نفسه شيء من الرقة له ، ولكنه
تذكر ما وقع منه ، وصورت له نفسه المكتئبة التى ملأها
الشجون المتضاربة أنه قد أوقع به مهانة جعلت عيون أصحابه
تزدريه وقلوبهم تتجرأ عليه ، فأسرع ذاهباً بعد أن صاح بالفارسين :
— احرصا عليه حرصكما على رأسكما .

ثم دخل مسرعاً إلى قصره ودخل مخدعه قبل أن تسمع
زنوبيا بمقدمه ، ورمى سيفه وقوسه إلى ناحية ؟ وارتقى فى عنف
على أريكته وهو يقول :

صدق الغراب فى شؤمه . ثم بقى وحده يناجى وساوسه
الحانقة حيناً حتى أقبلت عليه الأميرة فى لهفة لتسأله عن علة
عودته السريعة .

لم تستطع زنوبيا بكل ما كان لها من ذكاء وجمال وحساسية
أن تزيل من قلب زوجها الشاثر أثر ما أحسسه من ذلة ، فقد

استقر في نفسه أن ابن أخيه قد ألحق به مهانة لا يمكنه أن
يمسح معرتها إلا بسطوة قاسية تذكر الجميع بأنه سيد تدمر
وبطل العرب وحاكم الشرق كله من جانب الفرات إلى حدود
مصر . وقد حاولت أن تميد إليه ثقته بنفسه ، وأن تذكره بأن
إجلال العرب له وخضوع أهل تدمر لحكمه وسلطانه العظيم
على الأرض المسيحية التي كان يحكمها ، لا يمكن أن يؤثر فيها
حادث نافه كالذي كان بينه وبين فتى من أهله ، وأنه قد يسرع
إلى أذى الفتى ، فإذا هددت سوريته أعقبت له ندماً وألماً . بل
إنها من رجت حديثها بكثير من الفكاهة وخلطت بالجد خفة كي
تدله على أن مثل ذلك الحادث لن يسمع به أحد ، وأنه إن مضى
في اهتمامه وبالع في قسوة عقوبته ، كان ذلك أدعى إلى ذبوع القصة
وسير الركبان بحديثها . ولكن كل ذلك لم يجد مع الأمير شيئاً ،
وقضى الليلة التالية مضطرب الدهن متقد الغضب .

ولقد هم أن يغرق همه في الشراب ، وأمر بتجهيز الخمر ،
ورغب في أن يرسل يدعو بعض أصحابه لعله يجد في سورة
الكأس وحديث الندمان ما ينسيه الحنق ، ولكنه عدل عن
ذلك عندما ذكرته زوجته أنه قد آلى على نفسه ألا يشرب خمراً
حتى يرى ما يكون من أمره مع سابور . فإن زنوبيا خشيت أن
يعرف عنه الناس أنه يحنث بقسمه ، وما ينبغي لأمر مثله أن
تذيع عنه تلك النقيصة . ورأت أن تتحمل ثورته ، وأن تحاول

ما استطاعت أن تهدد منها ، فإن ذلك خير من أن ينجم غضبته
في نسيان الحرم يجنى من ورائها قالة سوء لا يدري أحد ما يكون
أثرها في عواطف العرب التي تتحول وتقلب كما تتحول رمال
الصحراء مع العواصف .

ولم تجد بداً بعد كل ما احتالت فيه من إقناع ونصح من أن
تدعه لما رآه ، وأن تقره على العقوبة التي اعتزم أن يوقعها بالفتى
المسكين الذي أوقفه القضاء عفواً في سبيله . ولكنها مع ذلك
لم ترجع بخيبة تامة ، إذ استطاعت أن تحول بين أذينة وبين أن
يسطو بالفتى سطوة لا تداوى ، وحملته على أن يقنع من العقوبة
بأن يبقيه في السجن مدة حتى يرى فيه بعد حين رأياً .

وكان معن أحب أهل أذينة إلى زنوبيا ، فقد كانت ترى فيه
فارساً كاملاً ، صادق القول ، أبيض النفس ، عفيف اللسان ؛ وكانت
تتمنى في نفسها أن يكون بعلاً لا إحدى بناتها إذا ما بلغت
إحداهن مبلغ النساء ، حتى تكفل ساعداً قويا لابنها وهب اللات
إذا ما آل إليه الأمر من بعد أبيه ومن بعدها .

ولذلك كانت وهي تسعى في تسكين غضب أذينة عليه زن
كلماتها وتفكر في حجبها قبل أن تختار منها ما ترى فيه القوة ،
وتأمل مجرى ثورة زوجها لتتظفر من أي جهة تتقدم نحوها ،
لكي تعدل بها إلى ما يكفل سلامة الفتى من بطشه . فلما تحقق
لها شيء من الظفر بأن اكتفى أذينة بسجنه ، أحست شيئاً من

الارتياح ، ووكلت إلى المقادير أن تواتيها حتى تعيده إلى مكانته
فيما بعد ، وترد إليه رضاء عمه عنه .

ولما انقضى أكثر الليل ذهب أذينة إلى مخدعه لينام ، وذهبت
زنوبيا إلى مخدعها ، وصرفت وصيفاتها وخدمها وبقيت وحدها
تحاول النوم ، ولكنها لم تجد إلى النوم سبيلا ، وتراحت عليها
الهموم وأحست في نفسها ضعفاً ، أذهب عنها ما اعتادته من قوة
الأمل في المستقبل والثقة بالنفس ، وأرادت أن تتسلى بالقراءة
فجلست تقرأ في إلياذة (هومير) ولكنها لم تقرأ إلا سطوراً قليلة ،
ثم رمت بالكتاب متبرمة ، وتناولت كتاباً في فلسفة إفلاطون كان
معلمها لونيحين يقرؤه لها فتشعر بالاطمئنان والسمو ، ولكنها
ما كادت تنظر فيه حتى قذفت به على أريكتها قائلة : ما عرف هؤلاء
الفلاسفة الحياة .

ثم زاد بها الضعف حتى رأت نفسها تنتفض وتهتز ، وارتمت
على أريكتها تنشج وتبكي بكاءً شديداً .

وقضت في تلك الحال حيناً ، ثم تمالكت نفسها وكان البكاء
قد نفس كربتها ، فقامت وغسلت وجهها بماء معطر ، وجعلت
تذكر ما مر بها في ذلك اليوم ، وأخذت تجادل نفسها وتراجعها
حتى عاد إليها اطمئنانها ، وتنفست نفساً عميقاً ، وأحست بتعب
يعترى جسمها فذهبت إلى فراشها وأسعفها النوم بعد قليل .

رد ساجور

صحت زنوبيا في غداة اليوم التالي ، فذهبت إلى مخدع زوجها فوجدته قد ذهب إلى إيوانه . فاستعدت للذهاب إليه ثم قصدت مجلسه فوجدته مع معلمها لونيخين وحدهما ، وقد أمر الحاجب ألا يدخل عليهما أحدا وهما يتحدثان ، وقد بدا عليهما الجهد والحيرة . فأسرعت داخلة إليهما ، وقام زوجها لاستقبالها ، ووقف لونيخين في مكانه وانحنى يحيطها ، وقد اكتسى وجهه فجأة بحمرة شديدة . فحيت زوجها وجلست إلى جانبه وتبسمت لمعلمها ، ثم نظرت إلى أذينة كأنها تسأله عن خلوته وحديثه ، فنظر إليها وهو يحاول كتمان ما في نفسه وقال :

— لقد حمل إلى السيد المبجل أنباء جلييلة .

فالتفتت إلى معلمها لفظة سريعة وقالت !

— خيراً ما أتى به صديق الجليل .

فأخذ لونيخين يتكلم وهو مطرق ، وكان حديثه مرتبكا متقطعاً فقال :

— كنت أحدث مولاي الأمير غما بلغني الساعة من رسول

(مقریان) . لقد عرفتما (مقریان) قائد الإمبراطور (قالريان) ونائبه

على الجيش في الشام .

ووقف عن الحديث لحظة نظر فيها إلى أذينة ثم إلى زنوبيا ووقعت عينه على عينيها البراقتين فوجد لها متلوهة كأنها تسأله الاسراع ، فأغضى ، وعادت إلى وجهه الحمرة وارتبك قليلا ثم استأنف وهو يمسك نفسه :

— أعلن (مقربان) أنه لا يرضى بالإذعان لحكم ابن الامبراطور الحدث الذي اختاره شيوخ روما ، وقد بايع جيش الشام لمقربان وساعده صديقه (قاليستوس) فأعلننا عزل الامبراطور (جالينوس) ابن سيدهما .

وصمت لحظة ثم هز رأسه وقال كأنه يناجي نفسه :

— هذا الملك يفتن الناس عن واجبههم ويضلهم عن أيمانهم .
إنهما أقسا لولى نعمتهما (فالريان) أن يرعيا ولده جالينوس إذا حدث به حادث الموت في حرب (سابور) . وها هو ذا سيدهما لا يزال حيا وإن كان أسيرا مع الطاغية المنتصر ، وهاهما هذان يخلفان الطاعة ويشقان العصا ويشيران فتنة عمياء .

وساد المجلس مسكون عميق ، وكانت (زنوبيا) شاخصة إلى الفضاء من وراء النافذة ، كأنها تستشف حجب الغيب لترى ببصرها ماذا تأتى به الأيام في ذلك المعترك المضطرب . ولما طال الصمت رفع (لونجين) رأسه ونظر إلى زنوبيا كأنه ينهبها إلى الحديث فالتفتت إليه وقالت في بطاء وتردد :

— إذا فالجيش الرومانى معهما ؟

فتنبه أذينة لقولها ، والتفت إليها قائلاً :

— الجيش معهما ، ولسنا ندرى ما يكون من أمر سابور ،

فقد أبطأ علينا خبره ، ولم تعد إلينا الرسل من عنده .

فتحرك (لونيخين) في قلق ، وظهر عليه شيء من الغيظ ،

ولكنه كظمه وقال متأنياً في كلامه :

— حقاً إن الموقف محفوف بالمخاطر ، فجيش الشام قوى ،

ولا أظننا نقوى على معاداته ، ولسنا ندرى بعد ما استقرار عليه

عزم سابور ، ولكن . . .

وتوقف لحظة ، فنظر إليه الأميران في دهشة لا يدریان ما يريد

أن يقول ، فاستأنف قائلاً :

— ولكن لا ينبغي لك أيها الأمير العظيم وأنت صديق

(قالريان) أن تشارك من يخونونه في ابنه . ولا ينبغي لك وأنت

قنصل تدمر من قبل الامبراطور أن تسلم أمانتك لغير حاكم

روما الشرعي . فما يليق بك أن تنادى باسم غير اسم جالينوس .

فدخل شيء من الغضب في قلب أذينة ، إذ رأى قول المعلم

الرومي يشبه أن يكون عظة وأمرأ ، ولا يشبه ما يكون من قول

أهل السياسة ، وقال مسرعاً :

— دع ذلك الذي تذكر من ولايتي قنصلاً للروم ، ومن

واجبي نحوم . فأنا سليل الحيران بن أذينة الذي كان يحمل

لقب رأس تدمر في أيام ملوك الماليق أجداد الأميرة زنوبيا ،

وذلك قبل أن تعرف تدمر الروم .

وأرادت (زنوبيا) أن تخفف من وقع كلام معلماها على زوجها المتكبر ، فقالت بصوتها الرخيم :

— لا شك فيما تقوله أيها الأمير الجليل ، ليس للروم عليك حق ، وإنما يكون النظر في مصلحتك وخير السبل لك .
فارتاح أذينة لقولها ، وسرى عنه ما أحسه من قول لونيخين وقال :

— هذا حسن ، فأى سبيل نسلك وهذه جيوش (مقریان) تحدد بنا من قبل الشام ، وهذه جيوش سابور توشك أن تنحدر إلينا من الشمال ؟ .

وكان في قوله متجهماً إلى لونيخين كأنه يتحداه ، فسكت الرجل لحظة ، ولكنه لم ينخدل ، بل تغير مظهر وجهه ، فاكتمى عنماً قوياً كأنه مقبل على مصارعة . ثم قال في هدوء ينم عن ثورة :
— السبيل واضحة يا مولاي . إن (مقریان) لم يثر على جالينوس لكي يعهد لك ملكك ، أو لكي يتركك هنا آمناً . وليس مقریان بأمن من مكانه حتى تسارع إلى تلبيته ، فإن دونه عدوين عظيمين يكتنفانه من جانبيه ؟ فلن يدعه جالينوس يتمتع بملك الشام في أمان وسلام ؟ ولن يرضى سابور أن يصبح على يساره قائد على رأس جيش روماني كثيف .

وسكت لحظة ليرى أثر قوله في الأميرين ، ونظر إلى زنوبيا

فوجدتها تنظر إليه باهتمام كأنها تدرك معنى قوله وتوافقه عليه ،
فشجعه ذلك على المضي في الحديث فقال وهو أكثر حماسة :
— فاذا أنت وافقت (مقریان) على خيانتته

ثم تردد قليلا . وتدارك كلمته فقال :

— إذا وافقته على ثورته لم تأمن على نفسك بعد حين ،
وصرت عدوآ لدولة الروم الواسعة التي لاتزال تعترف لامبراطورها
جالينوس .

ولما انتهى من قوله ساد الصمت حيفا طويلا حتى سمع
صوت أقدام تقترب من باب الايوان . ثم فتح الباب وأعلن
الحاجب قدوم القائد (ورد) في أمر خطير حملة إليه البريد .
فقام أذينة متلهفآ وقال للحاجب :

— أدخله سريعا .

فدخل (ورد) وعلى وجهه آيات الغضب والثورة . فتقدم
أذينة نحوه وقامت زنوبيا ولونجين يستمعان إليه في لهفة . ولم
يصبر أذينة حتى يتكلم الرجل بل بادره قائلا في شبه صيحة :
— ورد ! ما وراءك ؟

فوقف الرجل في ملابسه الفضفاضة وعلى رأسه البيضة
النحاسية ، وعلى صدره الدرع وهو في سلاحه الكامل ، ورفع
رأسه مقطبا جبينه ، وقال :

— هي الحرب لا مناص منها .

فصاح أذينة وقد نقد صبره :

— قل يا ورد ما جاء به البريد .

فقال ورد ناظراً إليه وهو ثابت جامد :

— لقد رمى سابور الشقي هديتك في الفرات وأطلق

لسانه بالفحش .

فانتفض أذينة انتفاضة كأنه أحس طعنة في صدره ، ووضع

يده على مقبض سيفه وقال في حنق :

— لتكونن وبالا على دياره . قل ولا تحجب عني شيئاً .

أى رسالة بعث بها سابور ؟

فأطرق الرجل كأنه لا يقوى أن ينظر إلى الأمير وهو ينقل

رسالة سابور وقال :

— بعد أن أمر بإلقاء كل ما في القافلة في الفرات .

قال للرسول :

— من أذينة هذا حتى يطاول الملوك ويهاديهم ؟ أليس هو

من بعض لصوص الصحراء وصعاليك العرب ؟ لئن أراد أن

ينخفف من عقابه فليأت إلينا جاثياً وليسجد أمام عرشنا في القيود

طالباً منا العفو . وإلا فالويل له ولقومه والويل لتدمر !

وكان أذينة وهو يسمع هذه الرسالة يزفر ويصر بأسنانه

وينتفض ويتحرك من مكانه ، حتى انتهى ورد من قوله ، فصاح

كأنه ينادى في ميدان قتال :

— الويل له ولقومه والويل لفارس !

وكانت زنوبيا تسمع هذا القول مضطربة ، ولكنها كانت تحاول أن تتمالك نفسها . وأما (لونجين) فكان يلوح عليه شيء من الهدوء كأنما قد سره أن يسمع تلك الرسالة .

والتفت أذينة إل زنوبيا فقال هائجاً :

— أسمعتم ؟ أما كان أولى بنا أن نبدأ بالعداوة ؟

ثم التفت إلى لونجين قائلاً :

— وماذا تقول يا أيها السيد المبجل ؟ أما كان أولى بنا لو بدأنا

بالحرب ولم نبذل ثمن هذه المهانة ؟

ولكن لونجين لم يتزعزع بل نظر إليه قائلاً :

— لا يا مولاي . أنت الآن أعز وأقوى : الآن لن يخذلك

العرب لأنهم يرونك ملاذهم . وقد استطعت أن تستعد في هذه المدة ، فأنت اليوم أقرب إلى النصر .

فلان أذينة وخشع قليلاً ثم نظر إلى ورد فقال :

— الليلة نجتمع هنا لندير أمر الحرب . اجتمع القوم هنا

الليلة ، فلا يتخلفن أحد من رؤوس تدصر . ادعهم جميعاً ولا تنس

أحداً منهم : صاحب السقاية أمير العيينين ، وصاحب الرقادة ،

وصاحب الحجابة ، وسادن بعل ، وأمير العير ، وصاحب السوق .

ادعهم جميعاً . فوحق اللات وعجل بعل وشمس بعل وشيعة

القوم . وحق كل آلهة تدصر لأضرمنها حرباً هوجاء على سابور .

الى الحرب

اجتمع جمع حافل ممن بعث إليهم أذينة على أثر وصول رسالة سابور إليه . وكان فيه عليّة تدمر وأشرافها ، وأصحاب الولاية فيها والثراء ؛ فكان فيهم قواد الجند الذين تعقد لهم ألوية الحروب ، ونقباء التجار ، وشيوخ العشائر الذين كانت لهم رئاسة قوافل التجارة الواردة إلى تدمر والصادرة عنها ، وأصحاب السقاية الذين يقومون على حياطة الماء النابع من عيني تدمر يقسمونه لرى حدائق المدينة أو شرب أهلها والنازلين بها ، وأصحاب الرفادة الذين يعدون للجيش ما يجب لها من سلاح أو مؤونة ، وأصحاب السدانة الذين يخدمون الحرم — معبد الشمس وبعل — اجتمع كل هؤلاء وألقى إليهم أذينة ما بلغه من أنباء الحرب ، وبين لهم ما يحيط بهم وبعديتهم من الأخطار ، ثم بين لهم كيف أراد أن يبعد عنهم خطر الغزو باللين والحسكة ، فأهدى ما أهدى إلى سابور ليستلين قلبه ويبعد عنهم كيده ؛ ثم أفضى إليهم بما كان من سابور وإلقائه الهدية في النهر ، وأعاد عليهم تلك الرسالة الشديدة التي كانت جرحاً في عزة العرب جميعاً ، وامتهاناً لكرامتهم . فما انتهى أذينة من مقاله حتى ترددت أصوات الغيظ والسباب في جنبات المنقذى الفسيح الذي اجتمعوا

فيه ؛ ولم تهدأ نائرتها عند ما أشارت زنوبيا إلى القوم أنها تريد الكلام ؛ فقد كانت ثورة نفوسهم أعنف من أن يلبثوا كمادتهم إذا بدت لهم أميرتهم الحسناء . فقام أذينة ورفع لهم يده مبسوطة كأنه يهيم بالقاء أمر عليهم في ساحة القتال ؛ فخشعت الأصوات شيئاً فشيئاً ؛ حتى استطاع آخر الأمر أن يسمعهم صوته فقال :
— اسمعوا ما تقول الأميرة .

فلم تنس زنوبيا أن تنظر نحوه نظرة سريعة بابتسامة عابرة كأنها تومئ إليه بشكرها ؛ ثم قالت بصوتها الأغنى :

— إن الغضب لا يجدينا شيئاً أيها الكرام من أعيان تدمر . فان حولنا نيراناً متقدة ، لا يطفئها إلا تفكير وحلم وتؤدة ، ولست أحب أن أكون لكم ناصحة ، فأنتم أبصر بأمور الحروب ، وما يجب لها من تبصر وعدة ، ولكنى رأيت الغضب قد غلبكم ، وأخشى أن تفشو في الناس غضبتكم ، فيتحرك سرعانهم قبل أن تملكوا أزمّة الأمور ، فلا يجدى بعد تدارك ما قد يندفعون إليه من البوادر ، ولذلك أرجو أن تتركوا الغضب وتقبلوا على ما أنتم فيه بالروية والالانة ، وهذا أخلق بكم وأجدى عليكم .

فلقيت كلمة الأميرة إعجاباً واستحساناً حتى أحس الشيوخ أنهم قد أساءوا في دفعتهم ؛ وجعلوا يمسخون لحامهم ويعبثون بها مظرقين كأنهم يستغفرون عن تلك الخفة التي لم يفتنوا إليها .

وجرى الحديث بعد ذلك في حماسة وشاركتهم فيه زنوبيا
تجادلهم وتراجعهم وإلى جانبها معلمها (لونجين) يميل نحوها بين
حين وآخر يناجيها بأحاديث قصيرة في صوت هامس .

وقضى الجمع الحاسد ذلك اليوم كله في جدل ومناقشة حتى غابت
الشمس . ثم قاموا وقد وكل إلى كل رجل منهم أمر من الأمور
يقوم على إعداده أو إنفاذه . وأخذ أذينة على عاتقه أكبر نصيب
من الحمل ، فكان عليه أن يحشد الجيوش ويكتب شيوخ القبائل
ويبعث الرسل إلى المدائن والقرى لجمع المؤونة ، وأن يبدل الأموال
في الناس ليصعدوا من فجاجهم إلى تدمر على كل ضامر وكل
نجيب . ومضت بعد ذلك أيام بطيئة كان أذينة فيها شديد القلق
لا يكاد يفتقر عن حركة كأنما هو يستحث مرور الزمن . ثم أخذت
الجنود تفر إلى تدمر زمراً وفرادي حتى صارت أرباضها معسكراً
فسيحاً ، فضربت فيها الخيام مختلفة الألوان والأشكال كل
جماعة ملتفة بخيمة زعيم ، تسمو فوقها مشرفة عالية الدعائم
بعيدة الأركان .

وأخذت تدمر تموج بالجند إذ يدخلون إلى أسواقها ، بعضهم
يشترى زاداً أو عدة ، وبعضهم يلتمس متعة من خمر أو هو قبل
أن يشمر للحرب المقبلة ، وكانوا يبذلون المال عن سعة مما أغدقه
عليهم الأمير الكريم أذينة من نفقته وعطاياه ، وكان تجار تدمر
وأهلها يجدون في زحمة هؤلاء الجنود مرتعاً لهم خصيباً ، ففتحوا

لهم أبواب حوانيتهم وعرضوا عليهم السلع وتنافسوا في إرضائهم ،
بما هدتهم إليه تجربتهم الطويلة في معاملات الأسواق .

وكان هؤلاء الجنود أخطأ من أطراف بلاد العرب من نزار
ومعد ومن الأوس والخزرج ، ومن أهل اليمن وأهل الشام ،
بل لقد كان فيهم جماعات من الأزد وغطفان الذين كانوا يدينون
ملك الحيرة ، عدو تدمر الذي يتربص بها الدوائر ، امرئ القيس
ابن عمرو بن عدى . فلقد هب العرب جميعاً لحرب سابور .

ولما تكامل اجتماع الجيش اللجب استعد أذينة للسير إلى
الشمال ، واحتفل بالخروج احتفالاً لم تشهد تدمر من قبل مثله ،
فر بكتائبه المزهوة في الطريق الأعظم ، وكان يركب عربته الحربية
الرائعة ، تجرها خيول أربعة عربية حمراء ؛ وقد جلست زنوبيا
في جانب منها وعليها تاجها المكمل بالجوهر ، وهي في حلة حمراء
أرجوانية ، تنظر في قلق وإعجاب إلى زوجها أذينة وهو واقف إلى
جوارها في لباسه الفضفاض الذي يشبه رداء شيوخ الرومان ، ومن
تحت دروعه الكاملة وسلاحه التام ، آخذاً بأعنة الخيول بيديه ،
وعلى رأسه بيضة الحرب ، ومن تحتها يبدو جانب وجهه الأسمر
القوى بأنفه الأقي وذقنه التين ، عليه حية سوداء قصيرة ،
لا يراه الرائي إلا صورة من صور إله الحرب (مارس) . وما زال
في سيره حتى بلغ قوس النصر ، ثم مر بالحرم في التماس بركة
شمس — بعل حتى خرج من باب الشمس واتجه نحو الصحراء ،

وعاد بعد ذلك مع الملكة إلى قصره ، وبات الجيش تلك الليلة خارج المدينة .

خرج أذينة في اليوم التالي مبكراً في السحر ، فلما طلعت الشمس كان مع جيشه يضرب في الصحراء نحو الشمال بعد أن ترك في تدمر كتيبة من الجيش لحراستها ، وجعل عليها القائد الشجاع (ورد) ومعه حسان المسيحي الباسل يساعده .

وصعدت زنوبيا إلى رأس برج القصر تراقب مشرق الشمس وتنظر في آثار الجيش وهو يتحرك باعداً ، وكانت موزعة القلب بين الوحشة من فراق زوجها البطل العزيز ، والأمل في أن يعود بالنصر والمجد يسوق الأسرى ويحمل الغنائم .

وجملت تتمثله وقد غلب سآبور وأذله ، وصار أهل الشرق وسيد العرب ؛ وكانت دموعها تجول في عينيها وهي تحاول أن تكتم الهزة العنيفة التي تهز صدرها ، حتى إذا ما غاب الجيش وراء الكشبان الصفراء تنفست نفساً عميقاً وتهانفت بالبكاء ، ثم التفتت وراءها فرأت صديقها ومعلمها لونيخين واقفاً يرمقها من بعيد ، فما وقعت عينها عليه حتى اضطربت إذ فاجأها على غرة ، فلم تقدر على مقاومة نفسها ، فأجهشت بالبكاء وخارت قواها . فأسرع لونيخين إليها وأسندها ، فسارت متهاكة إلى جانبه ، حتى طادت إلى الايوان فارتمت على أريكته ، وتركت لنفسها العنان . فرأى لونيخين أن يتركها حيناً وحدها ، فذهب إلى مكتبة القصر

وجلس يقرأ ؛ وكان في ذلك اليوم مشئت الذهن لا يستقر عقله
فيما يقرأ ، فجعل يعيد ما ظن أنه فرغ منه ، ثم لا يلبث أن يدرك
أنه قد مر على السطور بعين غائبة الوعي ، فيبدأ في قراءة
ما طواه حتى مل القراءة ، فرمى بالكتاب ومال برأسه إلى ظهر
كرسيه ، وغاب في تأمل عميق .

ولم يدرك لو نجح كم قضى من الزمن في تأمله ، ثم صحا على
مس يد رفيقة لكتفه ، فنظر فأتراً كأنه قد كره أن يصحو من
عالمه الخيالي . فرأى الأميرة واقفة عند رأسه محمرة العينين من أثر
البكاء ، فأسرع قائماً في شيء من الارتباك ، واكتسى وجهه
حمرة شديدة ، ولكنه لم يستطع أن يخفى من عينيه بريقاً ينم عن
سروره لهذه المفاجأة ، فسارت زنوبيا على مهل وهي في كآبة
بادية ، حتى جلست على كرسي قريب منه وقالت كأنها تحدث نفسها :
— ما أشد وحشتي مما كنت أجد فيه الأنس والبهجة !
إنني أرى الفضاء ضيقاً والهواء ثقيلاً والنور خافتاً . لا أستطيع
أن أبقى وحدي ولا أجد الأنس في جماعة .

وهؤلاء الوصيفات ، لا يتحدثن إلا عن الطيب أو الحلى .
أواه ! إن قلبي حزين !

فنظر إليها لو نجح مرتبكا وقال :

— لا تستسلمي لخواطر الساعة ، وتطلعي إلى الأمل الباسم .
فلم تلتفت زنوبيا إلى قوله ، ومضت في حديثها .

— إن المرأة لا تستطيع إلا أن تكون امرأة . كنت أحسب
أننى قد سموت على النساء ، ولكننى اليوم عرفت نفسى . ما أنا
إلا امرأة ، ما أنا إلا امرأة .

فملا الدم إلى وجهه لونها ولم يقل شيئاً .
ف نظرت إليه زنوبيا ، وكأنها كانت تنتظر منه قولاً ، فلما
رأته صامتاً وجهت إليه الحديث :

— إنك بغير شك تقول فى نفسك : « نعم ما أنت
إلا امرأة . » . وهؤلاء الوصيفات كذلك كن دائماً يقلن ذلك ؛
ولكننى أنا وحدى كنت أجهل نفسى . لقد كنت مخدوعة
عن حقيقتى ، ولم أعرف سوى اليوم أننى إحداهن .
فقال لونها فى ارتباك :

— مولاتى ! هى هزة الساعة . ما هى إلا هزة تمضى
بعد قليل .

فأسرعت زنوبيا قائلة :

— وما أدراك أننى أود أن تذهب عنى هذه الهزة ؟ إننى
كنت أظن نفسى قد تحررت من عاطفة المرأة ، وكنت أحسب
نفسى بذلك ممتازة . كنت أظن أننى أميرة ، وأن ما عدا ذلك
لا يهم فى الحياة . كنت أتصور أن جدتى كليوبتره كانت مثلى
الأعلى — ملكة قبل كل شيء ، جعلت الملك همها فتوسلت إليه
بذكائها وقوتها وعلمها وجمالها ، وضحت من أجله بكل عزيز عند

المرأة . استخدمت كل شيء في سبيل ملكها ، حتى الحب نفسه جعلته من أسلحتها لحماية ذلك الملك . ولكنى أدركت اليوم أننى لن أستطيع أن أكون مثل جدتى . بل لقد بدأ الشك يدب إلى نفسى من أننى كنت أعرف حقيقتها . أظن يا لونيخين أن كليوبتره كانت كما كنت أحسب ؟ أظن أنها كانت ملكة ولم تكن امرأة ؟

ثم نظرت إلى الرجل فى تلهف واهتمام . فزاد لونيخين ارتباكاً وود لو أن تلك الأميرة الحسنة لم تحضر إليه فى تلك الساعة لتجرحه إلى مثل هذا الحديث ، وأعاد النظر إليها فوجدوها تنتظر منه أن يجيب فقال فى تردد :

— إن الإله الذى خلق النفوس لم يخلق ملوكاً ولا أمراء ، ولكنه خلق رجالاً ونساء .

فأسرعت زنوبيا قائلة وفى صوتها رنة الأسف :

— هذا ما بدا لى اليوم يا صديقى الأجل . كانت نظرتى فى الحياة نظرة الجاهل الذى لم يصل إلى قرارة الحكمة . كنت أرى أذينة أميراً كما كنت أرى الناس فأحسب كلا منهم كما تدل عليه ملابسه . كنت أرى الفارس فلا أعرف فيه إلا فارساً ، والحكيم فلا أرى فيه إلا حكماً ، والوصيفة فلا أرى فيها إلا تابعة ، ولكنى اليوم تنبّهت إلى أن هؤلاء جميعاً قد يكونون غير ما حسبت ؛ قد تفتحت عيني قليلاً منذ أيام عندما كنت أحدث

ليس . فرأيت في كلامها شيئاً يدل على أن وراء ظاهرها شيئاً آخر . شيئاً حياً له رغبة وله قلب وله نفس . ولكنى لم أفطن إلى الحق كله . أما اليوم فقد تفتحت عيني لكل نور الحقيقة ، اليوم فقط عرفت .

وأطرقت عند ذلك لحظة وهى صامتة ، وكان لونيحين ينظر إليها وهو مضطرب يبعث بطرف لحيمته السوداء ، ويتأمل أقوالها ، وفى قلبه شجون لا يقوى على التنفيس عنها . واستمرت زنوبيا فقالت وهى تنظر إليه :

— وأنت أيضاً يا لونيحين . أنت أيضاً بغير شك تمحجب وراء هذا المظهر الهادئ نفساً تمحيش . قل لى شيئاً غير الحكمة . فإنى اليوم لا أريد غير أن أعرف الناس .

فنظر إليها مندهشاً مضطرباً وهو لا يدري ما قصدها ، وزاد ارتباكاً فلم يجب فاستمرت تقول :

— إننى لم أعرف عنك إلا أنك رجل حكيم علمتنى وقرأت لى كتب الأدب والشعر والفلسفة . كنت أعيش معك ساعات فى آفاق من الفكر والخيال . ولم أفكر فى يوم من الأيام أنك إنسان . كنت لا أراك إلا فكرة وعقلاً وذكاءً . ولم أعبأ أن أفكر فى نفسك وفى حقيقتك . حدثنى اليوم عن نفسك فإن فى ذلك الحديث ما يشبع تشوقى إلى علم جديد ، علم جهلته ولم أتنبه إليه من قبل .

فنظر لونيحين إليها مبهوراً وقال هامساً :

— ما أنا إلا فكرة . ما أنا إلا كتاب !

فنظرت إليه الأميرة عاطفة وقالت في لهجة الاعتذار :

— إننى اليوم عند أول عالم جديد تفتح أمامى . كنت أرى

أذينة شريكا وزوجا وفارساً ، ثم بدا لى أنه شيء آخر . هو جانب

من وجودى لا علاقة له بالامارة ولا بالزواج ولا بالحرب .

حدثنى عما تعرفه عن نفسك ، وقل لى كيف ترى المرأة ، لعلى

أعرف كيف يرانى أذينة . ألم تعرف المرأة يا لونيحين ؟

فقال لونيحين فى صوت يشبه الأنين وكأنه ينطق

بغير وعيه :

— عرفتها . عرفتها يا مولاتى كما عرفت الرجل .

فأسرعت قائلة فى لهفة :

— قل لى إذاً كيف أنت منها إذا أحببتها .

فأطرق وهو يحجب وقال :

— أهب نفسى لها .

فقالت وكأنها لم تفهم :

— حدثنى عن نفسك ، قل كيف تحس ، وكيف تفكر ،

وكيف تعمل . قل لى إن كنت قد أحببت امرأة .

فنظر لونيحين إليها وكأنه قد فك من عقال ، وذهب ما كان

على وجهه من الاحمرار ، وزال عنه ما كان يعقد لسانه من

الارتباك وقال فى صوت متهدج :

— قد عرفت امرأة واحدة . عرفتها لأننى أحببتها .

ووددت لو أن الحياة كانت شيئاً يعطى فأهديها إليها ، فهكذا الرجل أو هكذا أنا . لم يخلق الرجل إلا ليكون عبداً ، و خلقت المرأة لتكون مالكة . الرجل يبيع نفسه من أجل الحب ، يبذل المرأة كل شئ عنده ، يهب قوته وقدرته وحيلته ، ويسخر مهارته وقسوته وشجاعته ، ويهدى علمه وفنه وحكمته . يبذل لها كل ذلك ويقنع منها بأن يحبها ولو لم تحس هى بذلك الحب .

وكانت زنوبيا تنظر إليه وهو يتدفق فى قوله متعجبة أن يكون ذلك الرجل الذى ينبعث فى حديثه بمثل هذه الحماسة هو معلمها الحكيم الهادئ الذى لم تظن يوماً أنه يخفى مثل هذه الحياة تحت مظهره الساكن . ولما انتهى من قوله بقيت لحظة فى شئ من الدهشة ثم قالت باسمه :

— ما كان أكبر جهلى بك يا صديق الأجل ! إذ ظننت أننى كنت أعرفك . وإنى أشكر على أن أزلت عن نفسى ظلامها الكثيف .

ثم قامت وهى تتنفس وتقول :

— لقد بعثت إلى نفسى سلاماً ما كان لأحد سواك أن يبعثه . سأطمئن فى غيبة أذينة على تكرار حديثك هذا . سأبعث إليه بروحى لكى يصاحبه ويؤنسّه ، وسأحس وأنا هنا بنفسه

كأنه إلى جانبي يبسط على حمايته . لقد وصفت الرجل وصفا جيدا لو صدق . أما أنا فإني أصف لك المرأة التي تحب يا صديق . أنت تقول إنها تحب لتملك الرجل . وأما أنا فأقول إنها تحب لأن الحب حياتها . هي تحتاج إلى الحب لكي تكون شيئا ما في الحياة . وإذا صح أنها تحب لتملك فما ذلك إلا لأنها تريد أن تملك ما ليس عندها ، تريد أن تملك ما تقوى به على الحياة . لقد بعثت إلى نفسي السلام بحكمتك أيها السيد الأجل ، فلأردد ما قلته الساعة كل يوم ، ولأترقب عودة الجزء الذي بعد عنى وهو منى . وسأجعل هذه الذكرى تؤنسني حتى يعود .

ثم ذهبت بعد أن أُلقت تحية إلى معلمها وهي ذاهلة الفؤاد ، وسارت عائدة نحو مخدعها مطرقة بطيئة الخطوات مضطربة القاب . وبقي لونيحين لحظة في مكانه واقفاً ينظر في أعقابها حتى اختفت عنه ، ثم ارتنى على كرسيه ، ووضع رأسه بين يديه ، وقال يناجى نفسه :

— أيها الحكيم الأبله ، أيها الحكيم الشقي !

وقعة الفرات

ذهب أذينة إلى ريف فارس في جيشه العظيم يتربح حركة سابور في شوق إلى لقائه ، ولكن سابور كان لا يزال يضرب في دروب الروم يسطو على مدينة بعد مدينة ، ويوقع بجيش بعد جيش ، والإمبراطور الأسير (قاربان) يسير معه في ثوبه الأرجواني الكريم ، وقد أذله الأسر وأخزاه . وكانت أنباء سابور وأسيره تسير في الأرض يحملها الركبان إلى أذينة كلما مروا به في طريقهم قافلين إلى مدنهم ؛ فكانوا يقولون إن العاهل المنتصر يستصحبه في موكب ساخر ، ويعرضه على جنده في مظهر الملك ليتفكهوا بما صار إليه من هوان ؛ فإذا أراد الركوب جعله موطئاً لقدمه يعلو بها فوق عنقه المنحني حتى يمتطي جواده . فإذا ما سمع أذينة هذه الأنباء تحرق وثار حفيظته ، وانتظر يوم اللقاء لعله يشفي غليله من ذلك الطاغية القاسي الذي أهانه وأهان صديقه الكسير ، وتمنى لو حملته الريح إليه ليفرغ فيه غيظه ، ولو وافاه بعد ذلك أجله في قتاله . ولكن سابور قضى في حربه شهراً بعد شهر وهو يسير قدماً في سبيله نحو المغرب ، تاركاً وراءه مواطئاً للخراب والهدم والقتل . فتلک أنطاكية تخر أطلالا مدكوكة ، وتلك وديان كليكية تغرق قراها في الدم

المسفوح ، وهذه جبالها تهتز تحت جيشه العرمرم ، وهذا هو قد بلغ قيصرية وأفرغ فيها حقه وحطمها حتى كاد يزيل معالمها . فلم يجد أذينة دونه غير ريف العراق يحوس خلاله حتى يعود إليه غريمه الفوطرس فيحتكم معه إلى السيف والقضاء .

ولم يكن في ريف فارس ما يطلب من قتال ، فان حاميات القرى كانت كالقصببات الجوفاء ينحبطها إذا اصطدمت به ، ويغتم فيها إذا هربت منه ، فامتلات يداه من الغنائم حتى أثقلت رجاله وغمرتهم بالغنى .

ولكنه لم يذهب إلى فارس ليمود بالنفء من الذهب والفضة والطرف ؛ فكان كلما رأى أصحابه وقد أثقلتهم الغنيمة فزع وامتلاً قلقاً ، خشية أن يزهدوا في الحرب بعد أن ينالوا ما يزيد على آمالهم مما يبتغيه الأعراب في غاراتهم ؛ ولذلك عول على أن يقسم وقته بين الريف والصحراء ، حتى لا يألف جيشه الدعة ، ولا تبطره كثرة الغنى .

وكان كلما عاد إلى الصحراء سرى عن نفسه القلقة بالصيد ، تاركاً على قيادة الجيش من يشق فيهم من شجعان تدمر أو شيوخ القبائل ، وكان أكرمهم عنده زبدة بن دعبل من قبيلة (مجددة) وزبام بن مالك من بني قنارة .

ومر عام طويل ولم يعد سابور من حربه ، حتى أخذ القلق مأخذه من أذينة ، ولم يستطع بعد صبراً ، وعول على أن يخرق

فارس بجيشه في غيبة عاهلها ، ويخاطر مخاطرة لم يسبق لأحد
سواه أن أقدم عليها ، وعزم على القصد إلى العاصمة طيسفون .
وكانت ليلة من ليالى آخر شهر القمر عند ما جمع أصحابه من
شيوخ الجيش ليعرض عليهم ما عزم عليه من رأى . فدعاهم إلى
خيمته الفسيحة بعد أن هجع الجنود ، ولم يبق من صوت إلا
وطء أقدام الريثة من خارج المعسكر ، ونباح الكلاب من القرى
البعيدة ، وقد أزعجها ما أحست من قرب قوم أغراب .

ثم حدثهم بما يريد أن يهم به من قصد طيسفون ، وأفضى
إليهم بما في نفسه من قلق إلى قتال سابور ، وأنه إن طعن تحت
ملكه خر ذلك الملك الأجوف واندك . وأخذ أصحابه يجادلونه
ويراجعونه ، وقد أكبروا أن يخاطر بنفسه وبأصحابه مثل تلك
المخاطرة في بلاد لا تزال سطوتها تخيف كل الأرض ، ولا تزال
جبيوشها تهز آفاقها .

وقام زبدة ، وكان أكثر قواده جراءة عليه فقال :
— لقد علمت أيها الأمير أننا أطعناك في كل موطن ،
لم يتخلف عنك أحدنا في رأى . ونشهد أننا رأينا من توفيقك
وسداد رأيك ما يزيدنا رغبة في دوام نصرك ، وتجنب عثرات
الرأى عندك .

فقال أذينة وهو يجمع أطراف ثوبه :

— قل ما بدا لك يا أبا دعبل فإنك ميمون الرأى ، وحق

شيعة القوم ما خالفتني في رأى إلا رأيت خلافتك أحكم رأياً .

نخفض الشيخ بعصره قليلا وتردد ، ثم استأنف قائلاً في حياء :

— إن مسيرنا إلى ذلك الريف قد يحملنا على مركب وعمر ،

فإن خيولنا أسرع وثباً على الرمال ، ورجالنا أكثر اطمئناناً

إلى البراح .

فساد الصمت حيناً على الجميع ، كأنهم يوافقون (زبدة) ونظر

أذينة في وجوههم فتوسم ذلك فيها ، وأحس بنفسه ثور وبشيء

يشبه العناد يملأ صدره . وقال بعد صمت قصير :

— لقد خرجنا للقتال يا أبا دعبل ، ولم نخرج لكي

نخطف الغنائم .

فأحس زبدة بما في قول أذينة من سخرية ، وتحفز يريد

الرد ، فأسرع أحد الشيوخ فاشرب بعنقه من آخر الجمع يريد

الكلام ، وأحب أذينة أن يحوّل الحديث عن زبدة خوف أن

تبدر منه بادرة تعكر ما بينهما من الصفاء ، فقال مسرعاً بوجه

الكلام إلى الشيخ :

— هلم يا أبا مالك ورأيك السديد .

فقام زباع بن مالك وضم عليه أثوابه . وكان شيخاً ضخم

الرأس أصلعه قد اختلط البياض في لحيته بالسواد ، وكان وجهه

الأبيض يلمع في حمرة وتتخلله أسارير عميقة تلوح كأنها خطوط

سوداء إذا ما وقعت عليها الأشعة الضئيلة المنبعثة من الشموع

المراقبة في جوانب الخيمة . وقال في صوت عميق :

— قد علمنا يا ابن الأكرمين أنك لا ترى رأياً إلا إذا أوردته

وأصدرته ، وقد بدا لي أنك قد طال عليك الانتظار ونفد منك

الصبر . وأنت تريد أن تجس ما هنالك ، فإذا رأيت الطريق دهسة

أقدمت . فإذا كان هذا ما أردت فلا تغرر بالجيش كله ودع ذلك

لقوم منا يسبقونك . فإذا هلكوا كانوا فداءً لك وللجيش ،

وإذا نجحوا مهدوا لك طريق النصر ، وكان لك أن تلحق

بهم في عافية وأمن .

فعاد الصمت إلى الجميع مرة أخرى ، ونظر القوم إلى وجه

أذينة ليتبينوا وقع قول الشيخ عليه ؛ فأطرق الأمير حيناً ،

ولكن لم تخف عليهم بسطة لعت في عبسته ، دلهم على أن قول

الشيخ قد لقي عنده قبولاً ، وإن قطع عليه أملاً أثيراً كان يتعامل

به تحرقاً إلى القتال . ثم رفع رأسه بعد قليل وقال :

— إذا أبيتم إلا ذلك كنت أنا مع السرية المقاتلة .

فرفع زباغ يده وقال في شبه غضبة :

— ولكنك أيها الأمير منا في مكان الرأس من الجسم ،

فإن هلكت تشتت الجيش كله وتمزق . فإذا شئت فليذهب

أحدنا لذلك ، وتبقى أنت لتكون لنا رداءً .

ثم ركز رمحاً في أرض الخيمة ، ووقف رافعاً رأسه جامداً

كانه تمثال . فصاح الجميع في حماسة يوافقونه على رأيه ، واضطر
أذينة إلى الإذعان .

وفي تلك الليلة تحركت الكتيبة نحو النهر لتعبر إلى الجانب
الشرقى من الفرات ، وذهب على إمرتها القائدان زباع وزبدة
ليتعاونوا فى الرأى إذا اشتد الخطر فى مغامرة مثلها جريئة .
ومضى بعد ذلك أسبوع بعد أسبوع وأذينة فى قلق ينتظر
أخبار أصحابه من الشرق ، وأنباء غريمه سابور من الغرب ، والأيام
تمر به بطيئة وهو يقاسى أشد ما يقاسيه المتحرق إلى الانتقام .

ولكن أخبار أصحابه انقطعت عنه حتى كاد يجهل أى وجه
ساروا إليه ؛ ولم تأت إليه إلا أنباء من أنطاكية وحمص
وطرسوس أن سابور قد انكفأ راجعاً نحو الشرق بعد أن
أصاب قيصرية بما أصاب به مدن الشام من قبل ، فذك
حصونها واستباح أموالها وأهلها وأذل كبرياءها .

وكان أذينة قد فك من عقال عند ما بلغته تلك الأنباء ،
فثار يستعد للقتال لا يهجع فى ليل ولا يفتر فى نهار ، وقلبه
يهتز كأنه يترقب إقبال حبيب . ثم طار بالجيش حتى اقترب من
مخاضة الفرات التى لا بد لجيش سابور أن يعبر منها ، وكن
بجيشه متربصاً كما تنتظر الأسود الفرائس .

وسار أذينة مستروحا على فرسه الظليم فى أصيل يوم ، يتطلع
إلى الأفق ، وهو غارق فى هواجسه وهمومه يتذكر ما مر به فى

ماضيه ، ويتأمل ما يلقاه في مستقبله . وكانت صورة زنوبيا تتخلل تلك الذكريات جميعاً . فهي التي قد ملأت قلبه ، وجعلت له الحياة نابضة ، وهي التي قد عقد لها أمل الغداة إذا انتصر وصارت له الزعامة في ملك الشرق .

وفما هو في هذه المواجهات الصاخبة لاحت له عند الأفق غبارة نائرة كأنها سحابة صعدت هناك نذير ريح عاصفة ، فوقف متلهفاً واضطرب قلبه ، ثم ركض فرسه ، فعاد إلى جيشه ليتخذ العدة للقتال .

وما أتى نصف الليل حتى كانت مياه الفرات تلمع تحت القمر الموفى على التمام ، وجنود الفرس يملأون جوانب الشاطئ ، ويمتد جمعهم قطعاً مبعثرة على الأرض السوداء ، وقد أخذ بعضهم في الهبوط يطلبون العبور في السفن والقوارب والأرماث .

فلم يضيع أذينة وقتاً ، بل ضم صفوفه وأوصى أصحابه أن يكتموا أصواتهم ، حتى إذا ما اقتربوا من النهر أشار إليهم إشارة معلومة ، فصاحوا صيحة واحدة ، وأهواوا على الجنود المتفرقين وهم في غرتهم ، فاندفعت الخيول كأن عليها جيشاً من الجبان خرج من الظلام ، والتحموا بسواد الجيش الفارسي الكثيف ، فلم يجد جنوده من الروع سبيلاً إلى سلاح أو فرس ؛ وتدافعوا وتشتتوا في طلب النجاة . وصور لهم ضوء القمر وهم في زعرهم أنهم قد أحيط بهم من كل جانب ، فاندفعوا في كل وجه ؛

ومن لم يجد مخرجاً ذهب إلى الماء فألقى بنفسه فيه ، وأصبح الجيش كله كالقطيع أذهله الذعر ؛ فكانت مذبحة هائلة .

وسار جيش أذينة وراء الفلول في أطراف البر ، ومضت ساعة وجد فيها أذينة برء قلبه ، وتنفس ارتياحاً كأنه في النشوة التي يحسها فيما اعتاده من صيد السباع .

ولما فرغ من مطاردة الفلول عاد إلى المخاضة فرأى جنوده يجمعون الغنائم ، ويقيمون منها أكداً كأنها كثران الصحراء ، فتبسم ارتياحاً ، وقلب وجهه فيما حوله ، فحانت منه لفتة إلى النهر ، فرأى كتلة عظيمة من خيل الفرس تقطع الفرات ذاهبة نحو الشرق ، في نظام واطمئنان كأنها لم تكن بقية ضئيلة من جيش منكوب .

فأخذته هزة من الدهشة ونظر إلى أصحابه إذ يجمعون كنوز العدو ، وعادت إلى ذهنه ذكرى إخوانه الذين ذهبوا إلى الشرق وانقطعت أخبارهم عنه . وأيقن أنهم يوشكون أن يذهبوا في أسنة هذه الكتيبة الباسلة التي تجاهد مياه النهر بعد هزيمتها الطاحنة .

وأحس عند ذلك بشيء يعصر قلبه عصراً . فهمز فرسه واندفع نحو جموع أصحابه صائحاً في جماعة :

— هذه الغنائم لم تغن عن عدوكم شيئاً .

ثم تابع سيره محمقاً إلى جماعة بعدها صائحاً :

— هذه الغنائم تنتظركم إذا نصرتم ، وتسلب منكم إذا كانت الأخرى .

ثم عطف فرسه إلى فئة بعدها صائحاً مزمعاً مسنفاً ، ثم اندفع إلى النهر ولم ينتظر مراجعة وصاح قائلاً :

— من شاء فليتبمنى فإننى مقاتل .

وانحاز قليلاً إلى الجنوب ، وخاض في النهر وراء الكتيبة الفارسية ، فما رأى جنوده ذلك حتى تدافعوا وراءه وكان سباقاً عجيباً ، وأخذ الرماة يرسلون السهام إلى الفرس وهم في وسط اللجة ، حتى أحسوا وقعها واضطرب أمرهم وفشا فيهم القتل ، وعرقل الرمي حركتهم حتى استطاع أذينة أن يصل إلى عدوة النهر قبلهم ، ووقف الجمعان مرة أخرى وجهاً لوجه على الشاطئ الشرقى وكل منهما يستعد ويستروح ، عازماً على الاستماتة في الموقعة التي لا مفر منها .

وبدأ النهار يتنفس وأخذت الأشباح تبدو واضحة في ضوءه الرقيق ، وظهرت مروج فارس اليانعة وبساتينها الناضرة كأنها قطعة من الفردوس ، فتأملها أذينة ملياً وهو يصفّ جنده ، وذهبت آماله إلى ذلك اليوم الذي تمتد فيه دولته إلى تلك الأرض الخضراء الجديرة بملكه وملك امرأته الباسلة الحكيمة زنوبيا ، وما إن ذكر زنوبيا حتى خيل إليه أنها حاضرة إلى جنبه تدعوه إلى القتال وتعهده بالنصر ؛ فصحا من تأمله والتفت إلى جنده

الذين كانوا يحاولون تخفيف ثيابهم ، وصاح فيهم صيحته التي
واعدهم عليها من قبل ، فاندفعت الكتلة العظيمة في أثره ودوى
الفضاء بصرختها وثارت وراءها سحابة من الغبار حتى اصطدمت
بالكتلة الفارسية الرابضة على نحو ميل منها على شاطئ النهر .
وتجاول الفرسان ، ووجد العرب من عدوهم صبراً
واستقبالاً ، واختلط الجمعان وتشابكا ؛ حتى ما كان الرجل
يعرف صاحبه إلا من صيحته أو ملبسه ، وكثرت في الجانبين
القتلى والصرعى ، وترجح ميزان القضاء بين الطائفتين ، ونظر
أذينة حوله فلم ير صفوفه الملتئمة ؛ ورأى ميداناً فسيحاً تتطارد
فيه الفرسان ركوباً ، ويتناضل فيه من صرعت الأفراس من
تحتمهم ، فداخله الجزع ، ولم يدر كيف يستطيع أن يخرج بجيشه
من ذلك المعترك العنيف الذي ما كان يحسب في الفرس طاقة
عليه بعدما أصابهم من الهزيمة . وفيما هو يقلب الرأي سريعاً في
حزن كاد يظلب عليه ، سمع صرخة من ناحية الجنوب ، فالتفت
نحوها فرأى جمعاً مقبلاً ؛ فكاد يملكه اليأس ، إذ أيقن أن
الفرس لا بد أن يكونوا قد حشدوا حشداً أقبل لنصرة
إخوانهم ؛ وثارت في قلبه غضبة عظيمة على نفسه ، إذ قد زج
بقومه في مثل هذا المأزق ، وعول على الموت حيث هو ، تكفيراً
عن تهوره ، فاستقبل الجمع المسرع نحوه عازماً على أن يختم حياته
في مصرع عنيف .

واقترب القوم فغمز الظليم واستقبلهم حانقاً ، وأشرع رمح
يريد القتال ، لا يلتفت وراءه ولا يدرى إن كان وحده أم قد تبعه
بعض جيشه ، حتى إذا ما كاد يطعن أول المقبلين عليه سمع صيحة
عربية علت فوق جمجمة المعركة الثائرة ، فتنبه فإذا به يرى أن
تلك الكتيبة المقبلة ما هي إلا السرية التي انقطعت أخبارها عنه ،
وأراد لها القضاء أن تعود في تلك الساعة التي فيها الفصل بين
الفتتين . فصرخ صرخة فرح وهو يهز رمح في الفضاء ، وعاد
مع إخوانه سراعاً نحو ميدان المعركة الثائرة ، وهم يصيحون
صيحة نجاوت أصداؤها ، وسمع المتحاربون الصيحة ونظروا
إلى المدد الجديد ، فاشتدت عنيفة العرب وتضعضت قوة الفرس
وأخذوا في طلب النجاة . وما هي إلا ساعة حتى خلا جانب النهر
إلا من فرسان العرب يتنادون من أطراف الميدان .

وكانت شمس الظهيرة تسطع في كبد السماء عندما اجتمع
جيش العرب المتبدد ، وقد زهاه النصر وأثقلته أحمال الغنائم
الثمينة ، وعسكر به أذينة ليسترخ حيناً ، قبل أن يستأنف السير
إلى الجنوب قاصداً طيسفون .

ولم ينس أذينة أن يبعث بالبشرى رسولا إلى زنوبيا في تدمر
لتشاركه في هزة نصره العظيم

تدمر في الحصار

بقيت زنوبيا مدة غياب زوجها في حروبه تعاني آثار تلك الحال النفسية التي اعترتها عقب وداعها له ؛ فكانت تلازمها الواعيج من الأسى والشجن لا تزال تعتادها في إصباحها وإمساءها ، وثارت في قلبها فنون من المعاني لم يكن لها عهد بها ، وأقبلت على القراءة مع معلمها لونهاجين تحاول أن تفهم منه ما غمض عليها من أسرار وجدانها ، وأن تكتمنه الحقائق التي يزرعها قلب الانسان في معترك الأهواء ومضطرب الأشجان .

وألهاما ما أقبلت عليه من الدراسة عما كان حولها من أمور الحكم ، ومن مشاكل الحياة المتزاخمة في تدمر ، ذات الحركة التي لا تفتقر .

ولكن قراءتها لم تزدها إلا تعطشاً وتساؤلاً ، ولم تنمته بها إلى ما كانت تنشده من استقرار وإيمان ؛ فكانت تقضي الليالي بعد أن تفرغ من الكتاب والمجادلة تفضي إلى النجوم الأزلية بما عندها من شكوك وتستلهمها ما عجز العقل أن يدركه ؛ ولكنها كانت لا تدرك ما تقوله النجوم ، فان بنات الأزل القديم لا تلهم إلا القلوب التي تصدق وتتفتح للإيمان . فاذا ما أحست عجزها عن الفهم قامت إلى مخدعها متعبة يائسة ، تخفف عن عقلها

المكدود بأنفاس تتردد في صدرها حارة ، وترسل أمنية كأمنية
الغريق الذى يتعلق بالحياة ، قائلة :

— ليت لى قلباً مثل قلب ليس !

وشعرت بعد حين كأنها تطفو فوق بحر مضطرب ، لا تعرف
أين تتجه فيه ، وضاعت ثقها بعقلها ، ونحاذت وترددت فى كل
أمر يعرض لها ، ولم تجد فى كل موقف تشدد فيه حيرتها إلا
ملاجأ واحداً رأت فيه ما يخفف من آلام نفسها ؛ وذلك أن
تذهب إلى خلوتها ، وتسلم نفسها إلى البكاء .

ولم يخف حالها على تدمير الصاخبة ، ولا عمن حولها من
شيوخها وأمرائها الذين كانوا يتطلعون دائماً إلى قصر الأمير
يلتمسون فيه التسديد والقيادة ، ويعرضون له الخضوع والولاء .
ومنذ خلا القصر من سيده ، ورأوا فيه الأميرة لا تسد مسده ،
تشعبت كلهم ، واضطربت إرادتهم ، وذهبوا فى الأهواء
مذاهب متباينة .

لقد عرفوا الأميرة الحسنة من قبل ، وتعودوا أن يروها
تزين مواكبهم إذا سارت ، وتخلع البهاء على مجالسهم إذا انعقدت ؛
ولكنهم رأوا أن قصر الملك قد خلا من أذينة ، وأن من حل
فيه ما هى إلا امرأة ، وأنها امرأة قد خلت إلى نفسها
والكتاب ، وآثرت صحبة وصيفة مسيحية ، ومعلم حكيم لا
يصلح لأمر من أمور الحياة .

ومصر عام على تدمر ولا يزال أذينة في حروبه ، وتعالى
الهمسات فى المجالس بعد أن كانت خفية ، وتجرات الميون بعد
أن طال اعتيادها الاغضاء ، وترامت إلى الأميرة أنباء عما
يتحدث به الناس ، وعما يفكر فيه قادتهم ؛ حتى القائد الأمين
(ورد) أُنْتَهَا عنه أنباء مربية ، ذلك الرجل الباسل الذى كانت
الشكوك لا ترتفع إليه ، حتى هذا القائد كان يتحدث ، وكان
يسخر ويعيب .

وكانت زنوبيا فى إحدى تلك الليالى فى طنف مخدعها
تناجى النجوم الوانية ، وتفكر فى زوجها الباسل وما آل إليه
أمره ؛ وذهب خيالها إلى ريف العراق ، وازدحمت عليها
الوساوس : أيعود ذلك الزوج الحبيب مكلاً بالنصر ، مثقلاً
بالغنائم ، أم يكون مصيره ما صار إليه صديقه (فالريان) الذى
يحنى هامته ليطأها سابور إذا شاء الركوب ؟ وهل يدركها
ليحمل عنها عبء تدمر وأهلها ، ويخلى ما بينها وبين نفسها ،
أو يصيبه القضاء فى بعض قرى ذلك الريف البعيد ، فيسلبها
حمايته وحبه ، ويخلفها وراءه تعانى نظرات أهل تدمر الساخرة
وهمساتهم المسمومة ؟ أتبقى فى تدمر إذا مضى أذينة ؟ أف
لهذه النجوم ، إنها تسخر من الحياة ! إن النجوم الأبدية
لا تعرف أحزان الانسان !

وقطعت ليس عليها هذه النجومى المزجة ، إذ أقبلت نحوها

مسرعة لتخبرها بأن حسناً يريد أن يلقاها ، وأنه أتى بنياً خطير .
ثم أتى حسان يلهث ، وأفضى إليها بما بلغه من
الأخبار ، فقال :

— إن عمرو بن أسيد السليحي مقبل إلى تدمر في جيش
من فوارس سليح .

ثم مد إليها يده بخطاب أتى إليه من صديق . ففقت
الأميرة رباط الكتاب بيدين مضطربتين ، وأخذت تقرأ وعيناها
لا تبصران ، ورأسها يدور ؛ ثم استطاعت بعد حين أن تجمع
مما قرأت أن ذلك الكتاب أت من أورشليم وأن الزاهد (فليس)
بعثه إلى حسان صديقه في المسيح ، يبين له فيه ما يهدده ويهدد
تدمر من أخطار . كان عمرو بن أسيد يطمع في زواج ليس ،
وكان أذينة قد وعده بالرضى ، وأنعم له الجواب ، ثم بكل الأمير
بعد ذلك عن وعده ، وترامت الأنباء إلى ابن أسيد أن الأميرة
قد آثرت عليه فتى خاملاً ، ليس له في العرب أرومة مثل
أرومته ، ولا حسب مثل حسبه ، وهو فوق ذلك من الفئة
الصائبة المسيحية التي توشك أن تستميل الأميرة وتفتنها عن
آلهة الآباء . فعول على الانتصاف لنفسه من الأميرة بالسيف
حتى يزيل العار عن عثرته ، وراسل أعيان تدمر ، فاستمال منهم
طائفة كان من بينها الضحيان كاهن معبد الشمس — بعل ،
وورد قائد الحامية .

ونظرت زنوبيا إلى حسان مشدوهة ، ووقع الكتاب من يديها المضطربتين وهى ذاهلة ، وامتزجت فى قلبها الخواطر تمر سراعاً فى غموض وحيرة ، وامتلاً صدرها ثورة وحنقاً وضعفاً وبأساً ، وأطرقت تمض على شفرتها وتقبض أصابعها ، وتضيق بأنفاسها .

أينحونها (ورد) الأمين الذى كان أقرب الأصدقاء مودة إلى أذينة ؟ وذلك السكهن التقى الذى طالما باركها واستنزل عليها رضاء الآلهة أينصر أعداءها ؟

إن الموت لأرحم من هذه الحياة !
ورأى حسان ما بدا على الأميرة من حزن وحيرة ، فقال لها فى صوت رفيق ملى :

— الأمر أهون مما ترين يا مولاتى .

فرفعت عينيها نحوه كمن هو فى حلم ، وقالت فى حنق :

— الأمر أهون مما أرى ؟

فقال حسان فى وثوق :

— نحن فى تدمر ، والحصون قائمة ، والجنود على أتم

حال من الوفاء والولاء .

وكان هذه الكلمات قد أدخلت الأمل إلى قلب الأميرة ،

فقال فى شىء من النشاط :

— ولكن أتستطيع ؟

فبادر حسان قائلاً :

— لا أنتظر إلا أن تأمرى أمرى يا مولاتى .

فأسفر وجه الأميرة وانبسط بعد تجهمه وقالت مسرعة :

— هلم يا حسان فافعل !

ثم وقفت وقد دب فيها شيء من القوة وقالت :

— افعل كل ما بدالك ، وإنى ههنا أنتظر .

فرفع حسان رأسه وقال :

— مولاتى ! لقد علمت ما أنا إلا فتى من الجند لا حق

لى فى طاعة . فاذا شئت كنت إلى جانبى وكنت أنا ساعدك

الأيمن والسيف الذى به تضربين .

فنظرت إليه نظرة طويلة وهى صامتة ، ثم تنير مظهر

وجهها وقالت :

— إذا فجهز لى « الطافى » .

فحيا حسان وخرج ، وبقيت هى وحدها تسير فى الطنف

وتعلاً صدرها من الهواء البارد ، وتمسح عن جبينها وقدة الحر

الذى كان ينبعث من رأسها المضطرب ، حتى عاد إليها حسان

بعد أن جهز لها فرسها (الطافى) .

نخرجت تسير أمامه سريعة الخطى ، حتى بلغت باب القصر

فأمرت بعض الحراس بالركوب معها ، وركبت فرسها وركب

حسان إلى جانبها ، وسارت فى ظلام الليل تجوس خلال المدينة ،

وتمر على أبوابها ، وتتأمل الحراس وتلقى إليهم أوامرهم ، ثم عرجت على بيت (ورد) فأمرته بأن يخرج إليها ، وما صار على خطوة منها حتى نزع من سرجها سوطاً ورفعته فأهوت به على وجهه وجسمه ، وهو يحاول متخاذلاً أن يحتوى من السوط يديه ، ولم توجه إليه كلمة ولم تعنفه بلفظ . حتى إذا ما أحست أنها قد بلغت من ضربه ما شفا قلبها نظرت إلى حسان فقالت له :
— الق به في حجرة من السجن واحتط في حراسته .

ووقفت تنظر في أعقابه والجنود يحيطون به ذاهبين إلى سجن القصر ، وهي تسائل نفسها :
— أهذا ما تقتضيه الحياة ؟ .

ثم سارت في طريقها وحسان يسير إلى جانبها صامتاً ، وقد أحس بقلبه يهدأ بين جنبيه .

وطلع الصباح على تدصر فكانت أبوابها مغلقة ، والجنود في سلاحهم على أبراجها ، والجيش السليحي يرمق الأسوار العالية من خارجها حانقاً .

وجمعت زنوبيا سراة تدصر في القصر ، وفيهم ذو تهمة وبريء ، وقامت تحدثهم في صفاء كأنها لم تكن ألت بما دبر في خفية من خيانة ، ووقفت في ملابس الحرب ، فأى منظر وقعت عليه عيون القوم ! لقد عهدوها تزين المجالس ، وكانوا إذا كلمتهم أحسوا نشوة من صوتهما في الأسماع . ثم رأوها في ذلك

اليوم والرمح في يمينها ، متكئة يسراها على مقبض سيفها ،
وعيناها تلمعان كأن وميض البرق يسطع فيهما ، وسمعوا صوتهما
إذ تكلمت ينبض في غريمة مكبوحة وغضب مكتوم . ثم
أخذت تبين لهم ما كان يحدث بالمدينة من خطر ، وقالت :

— ولقد كنت منذ غاب الأمير أرى بعضكم يهفو فأغضى ،
وألح من بعضكم جرأة فأعفو . وكان السلام شفيعاً لمفوى .
ولكني رأيت منذ حين أن منكم من رآني امرأة حلت في مكان
بطل جليل ، فحدثوا النفس بالخيانة ، وغرتهم الأمانى الكواذب ،
ولا وحق بعل والشمس وحق شيعة القوم وعجّل ، وحق هذا
السيف وهذا الرمح ما تستقر على خائن رأسه إذا هو مال عن
الجادة يمنة أو يسرة . وإن عيني لثاقبة ، وإن أذني لمهفة ،
وإن جنودى على أهبة رجالا وفرسانا ، إذا قلت بادروا ولم
يسألوني فيم أمرى . ولقد أقت على الحامية رجلاً نقي القلب
صافي الجوهر ، صارماً في طاعتي مجرباً في الحرب والسلام :
حسان بن عدى .

ووقفت عند ذلك لحظة تنظر في وجوه القوم لترى أثر قولها
عند ما نطقت باسم حسان ، فرأتهم اهتزوا ورفعوا أعينهم إليه
كأنهم يستطلعون مواضع الأعصار المرنق فوق الأفق ؛ ثم نظروا
نحو الأميرة فأروها تنظر في وجوههم ، وتسبر عيناها خفي
سرائرهم ، فأسرعوا يردون الطرف في ارتباك وهلع ، ولم ينطقوا

حرفاً . فزمت الأميرة شفيتها لتكتم بسمة ساخرة عبرت فوق وجهها ، ثم استأنفت قائلة :

— فعليكم طاعته فيما يأمر ، ولا أسمعن أن أحدكم راجعه أو عصاه . فهو إذا قال كان القول مني . ومن عصاه كان عصيانه للرأي وأمرى .

ولقد ألقيت بالخائن (ورد) في السجن حتى يعود الأمير ليرى فيه رأيه .

ثم سكنت لحظة أخرى جمعت فيها نفسها ، وعادت إلى الحديث بعد ذلك في صوتها العذب المتهدج فقالت :

— وإني قد عفوت عن كل من بلغني أنه هم أن يقارف ذنباً ؛ ولكن حذار حذار ! فالحرب قد جدت وليس في الحرب هزل .

ثم أعقبت قولها بهدايا وزعتها في القوم قبل أن ينصرفوا ، وقربت سراهم وأحسن لقاءهم ، وخرجت بعد ذلك في موكب شامل سارت فيه بين أعيانها وصفوة من في تدمر من قواد الجنود وأهل المال وأصحاب الرأي . وكانت وهي سائرة في موكبها الرائع تلتقي على جموع الناس قطعاً من رقائق الذهب والفضة .

وركض المنادون بين يديها يصيحون إن خزائن الأميرة ملأى بالأزواد والأموال ، وإنها قد أباحت ما عندها لأهل تدمر إذا هم احتاجوا إلى الزاد والمال . ثم قصدت إلى معبد الشمس لتصلي للاله بعل ، حتى إذا بلغ الموكب باب المعبد نزلت وتلفتت حولها لترى

الكاهن الأعظم (الضحيان) فلم تجده ، فالتفتت إلى حسان وكان أقرب أصحابها إليها فقالت له فى همس حانق :
— إن الخائن ليس هنا .

فأسرع حسان وأنحنى لها وجرد سيفه وتقدمها خطوتين ثم قال لها همساً :
— لتدخل مولاتى فاتحة .

فهدأ غضبها ودخلت يتبعها الجمع الأنيق ، وسارت تبسم كأنها لم تعباً لغياب الكاهن الخائن ، فلما اقتربت من المذبح وجدت جماعة من صغار الكهنة يتعثرون فى خجل وتردد ، ولا يجروئون على التقدم للتحية ، فأشارت إلى أكبرهم وقالت :
— تقدم أيها المبارك للصلاة .

فتردد الكاهن ولم يدر ما يصنع ، فأسرع حسان وذهب إلى المذبح رافعاً سيفه حتى وقف فى موضع الكاهن ، ثم انتظر حتى اطمان القوم فى مواقفهم ، ونظرت زنوبيا نحوه مندهشة لا تدري ما هو صانع فى هذا الموقف الذى لم تكن تتوقعه ؛ ثم بدأ يتكلم ، وكان صوته هادئاً كأنه يهمس بنجوى ، ثم رفع صوته شيئاً فشيئاً ، حتى علا وجاجل ، وترددت أصداؤه فى جنبات المعبد الفسيح . فقال :

— مولاتى أنت ضوء الصباح تنجاب عنه فلول الظلمة ،
أنت أنفاس النسيم تزيح أذيال السموم . طلعت كما تطلع الشمس ،

فبعثت الزرقة إلى السماء ، وبثت الحياة في الزهر والطيور ، ودخات
معبد الشمس فاتحة وهذا سيفك في يدي ، لم تريدي أن تضربي
به إلا العدو وحده . ولكن الجبناء الخونة لم يقدرُوا أن ينظروا
إلى سيفك ، لأنهم يعرفون أن عدالة الإله تجعل صدورهم له
غمداً . وما كان الله ليرضى لمجدك أن يدنسه خائن بصلاته . فصلي
أنت وقربي للإله قرباناً طاهراً من يديك ، فليس في الناس من
هو أولى منك أن يكون إماماً . تقدمي يا مولاتي فصلي واشكري
الله عنك وعنا ، ومجدي اسم الإله الذي وهبك القوة والسلام ،
فهو يقبل منك الدعاء .

ثم أغمد سيفه وذهب نحو الأميرة ومد يده إليها وسار
بها إلى المذبح لتؤم الناس في الصلاة .

وتحركت الأشجان في نفس زنوبيا ، ودبت في قلبها حرارة
إيمان قوى ، فتدفقت في القول وأطربت في ترتيب الدعاء ؛ ووقف
الناس يستمعون وتفيض أعينهم بالدمع ، حتى انتهت من
الصلاة . وساد في المعبد السكون .

ثم عاد الموكب ودخلت زنوبيا إلى القصر ، يفيض بالبشر
قلبها الخافق .

ولما أقبلت داخلة اعترضها وصيف برسالة . وكانت ورقة
عجيبة ملفوفة حول سهم حمله جندي أتى به من فوق الأسوار :
كان الجندي في مكانه يحرس جانب البرج ، فرأى ذلك السهم

مرشوقاً فيه . فخطفت زنوبيا السهم ، ونزعت منه الرسالة
وقرأتها في لهفة .

وما كادت تنتهي من قراءتها حتى صاحت في رنة
طرب وانتصار :

— أبشروا يا أهل تدمر ، فقد انتصر أذينة ، وحطم
جيش سابور !

ثم التفتت إلى الجمع المأمج حولها فقالت ملوحة بكتاب
زوجها البطل :

— مجدوا أميركم واهتفوا باسمه . لقد حطم جيش سابور .
أذهبوا وانتشروا في تدمر ، وأعلنوا في الناس البشري !
ثم دخلت مسرعة نحو البهو كأنها تسير خفيفة على الهواء ،
وكان أول من لقيها ليس . فاندفعت الأميرة نحوها فاتحة لها
ذراعيها وقبلتها في جبينها وقالت لها :

— تعالى يا ليس فهذا يوم أغر . أسمعت نبأ النصر
العظيم ؟ قد انتصر أذينة على سابور . تعالى يا بنيتي أحدثك
وتحدثيني ، وأذكر لك غناء حسان ، فهو كما قلت أشجع الناس
وأكرمهم وأقدسهم .

فاحمر وجه الفتاة فجأة من تلك المباغتة ، ولم تجد جواباً
لسيدهتها إلا أن تمسك بيدها وتقبلها ، وتقف حيناً مكبة عليها
يجبينها وهي تبكي .

فجذبتها الأميرة نحوها ، وجعلت تعبث بمخصل شعرها الفاحم
الناعم وقالت لها وهى باسمعة :

— يا ليمتك اليوم يا لميس أبصرت حسناً فى صلاته . لقد
صلى وصليت معه واتحدنا فى خالق واحد عظيم . صليت اليوم كما
أراد ، وبررت بوعدى لك بغير أن أدرى .
ثم جذبتها من يدها قائلة :

— تعالى أحدثك فإن قلبى يفيض . رددى على مسمى ذكر
أذينة ، وأردد لك اسم حسان . فلن أمل السماع ولن أمل الحديث .

اور انتظار

لم تبق جيوش الأمير السليحي حول تدصر إلا يسيراً ثم
انجلى عنها كما تنقشع السحب السوداء فجأة عن الأفق العاصف ،
وتترك وراءها السماء الزرقاء صافية ، والشمس الزاهية مشرقة ،
والهواء الصافي بليلاً . لم تلبث أنباء انتصار أذينة على سابور أن
ذاعت في تدصر وتلقفها الجنود في فرح وكبرياء ، وتنالها
الشعب في حماسة وارتياح ، وقذف بها الجنود على عدوهم من فوق
الأسوار ، فاهتز وسرت فيه حركة من الملح ، حتى بلغت الأنباء
عمرو بن أسيد وهو مطمئن إلى حصاره ، يحدث نفسه بقرب إذلال
المرأة التي طمنت عزته ، وهى عاجزة وحدها عن الدفاع في غيبة
زوجها الباسل . فلما سمع ابن أسيد تلك الأنباء ضحك وسخر
وكذب . فما كان مجيباً من زنوبيا أن تضيع مثلها لكي تشد من
عزائم أصحابها وتخدع عدوها بأ كذوبة ترسلها من وراء أسوار
مدينتها . وهل يبعد على تلك الأميرة في ذكائها وحيلتها أن تبرع
في المكر وتدبير الخدعة ؟ .

ولكن أنباء انتصار أذينة سارت في أقطار الأرض ،
وترددت أصداؤها في وديان الصحارى ، وترادفت الرسل إلى
الأمير السليحي تحمل إليه ما كان من أذينة عند الفرات ، وما آل

إليه جيش سابور من بعد في ريف العراق ، حتى تحطم وتحصنت
بقيته المخدولة وراء أسوار طيسفون . فلما عرف ابن أسيد
ما عرف بادر بقومه فتسلل بهم تحت ستار الليل ، وعاد إلى أرضه
وراء نهر الأردن وهو يزدد غيظه .

وتطلع جيش تدمر ذات صباح من فوق الأسوار إلى عدوه
الذى كان رابضاً في الفضاء الفسيح ، فلم يجد منه إلا بقايا
نيرانه وآثار خيامه في الرمال .

وتنفست المدينة ، ودبت فيها الحياة ، وطربت زنوبيا وعاد
إليها السلام ، وأرخى أهل تدمر لأنفسهم العنان ، فمرسوا
وأوكبوا وقضوا ليالى في مراح ولهو وغناء .

ولما أحست زنوبيا نسيم السلام غادرتها تلك الوثبة التي
كانت المخاوف استفزتها إليها ، وخلا ما بينها وبين نفسها مرة
أخرى ، وعاد إليها ذلك الحنين الذى اعترأها في أول أيام وحشتها
بعد فراق زوجها ، فكانت كلما أشرقت الشمس أرسلت تنفس
الأخبار عن أذينة ، وكلما دجا الليل جلست وحدها أو مع وصيفتها
لميس تناجى أشجانها الثائرة وآمالها الباسمة . وعادت امرأة كما
كانت وهى فى كنف صاحبها الفارس الباسل ، لا تفكر إلا فى
أحاديث قلبها ، وارتدت حوادث العالم الصاخب إلى ثنايا
الذكرى ، فكانت لا تلتفت إليها إلا لفتة سريعة ، ثم تبعدها
فى نفس عميق قائلة فى نفسها :

— لقد آن لأذينة أن يعود ويحمل عنى هذا العبء الذى لا يستطيع حمله إلا هو .

وكان يحلو لها فى تلك الحال أن تتحدث إلى ليس ، وكان الحديث كما جرى بينهما تحدر بطبعه إلى ذكر أذينة وحسان ، فكانتا فى نجواهما امرأتين زالت بينهما فوارق الحياة . وكانت ليس إذا حدثتها الأميرة تحس أن نسيم الخريف أودع هبوباً ، وأنه يحمل فى هباته نبضات من الأشجان العذبة وخفقات من الأحلام السعيدة . وكانت ترى إشراق الشمس أزهى جمالا ، وأن زرقة السماء أعمق صفاءً ، وأن أكام الزهر المخضلة بالندى أحلى شذى وأبهى منظراً ، وأن نجوم الليل المتلألئة أفصح حديثاً ، وأن همس أنوار البدر أوضح معنى ؛ وكانت كلما تصورت حسان فى تلك الأحاديث ثارت إلى جانب صورته صورة أخرى ، فتحاول أن تتجاهلها أو تبجدها ، ولكنها تعود إليها ملحة مشرقة فاتنة : تلك هى صورة الأمل الغامض أن تعيش يوماً إلى جانب حسان .

لم تكن ليس تخادع نفسها عن حبها ، فإنها لم تستطع أن تدرك أن ذلك الذى تحسه نحو حسان هو ما يسميه الناس حباً ، لأن قوة إيمانها وسمو المعانى التى كانت تربط بين حسان وبينها قد غطيا على كل هزات نفسها ، فلم تبين فى علاقتها به إلا أنها صداقة فى حب المسيح ومشاركة فى حرارة الإيمان .

وكانت زنوبيا كلما تحدر الحديث مع وصيفتها تصورت أذينة ،
فاذا ما فرغت منه جلست وحدها تناجي ذكرياتها وأمانها
الحاوة ، وتستمتع إلى خفقات قلبها .

ونسيت الكتاب في تلك الأيام الصاخبة المضطربة ، وقضت
أسابيع وهي لا تستقر في مجلسها الهادئ إلى جانب لونيخين ،
حتى كأنها نسيت ذلك الصديق العابد الذي كان إذا جلس في
حضرتها تطلع إليها كما يتطلع الكاهن إلى صورة إلهه .

وجلست يوماً في شرفة قصرها بعد أن قضت ليلاتها من
الحديث إلى ليس ، وكان أصيلاً من آصال الخريف الوديمة التي
يلفها السلام الشامل ، ونظرت إلى الشمس تميل نحو الغرب في
موكب باهر من السحب ، فأذكرها المنظر بهومير ، فأخذت
الالياذة وجمعت تقرأ في حديث أندرومالك لزوجها هكطور :

« أنت زوجي ومأربي في الحياة ، أنت أهلي ، وأنت لي كل
ما لي . فترفق بي وبطفلي ، ولا ترم بنفسك إلى المهالك . لا أقول
لك اجبن فهذا ليس من طبيعتك ، ولكن أقول لك اتق المهالك من
أجلي ومن أجل فلذة قلبك » .

ورفعت بصرها عند ذلك وتنفست ملء صدرها ، ونظرت
في أنحاء الحديقة الزاهرة الممتدة تحتها ، فرأت صديقها المعلم
الفيلسوف ، وكان يسير مطرقاً ويداه وراء ظهره كأنه
يفكر مهموماً .

فوضعت الكتاب وجعلت تتأمله ، وكأنها رآته عند ذلك أول مرة في حياتها ، وأحست وهي تتأمله وخزة ألم شديدة لما رأت عليه من آثار الألم والهم . لشد ما تغير في هذه الأسابيع القليلة التي لم تجلس فيها إليه في قراءة ولم تناقشه في حديث . كان صحر العينين شارد النظرة ، تكسو وجهه سحابة من السكابة والاضطراب . فإذا عسى أصابه ودخل إلى نفسه المسكينة في هذه الأيام ؟

كان عهدا بها إذا جالسته أن يكون باسمًا طلق الوجه هادئ النظرات ، وما كان أقساها إذ لم تقف لحظة في تلك الأسابيع لتسائل نفسها عنه أو لتدعوه إلى مجلسها في بهو القصر أو شرفته ، وهي تعلم أن أحاديثها غداء نفسه وأن قراءتها معه سلوته في الحياة . إن المسكين لا يعرف في هذا العالم قلباً يعطف عليه ، وإن قلبه الذي أحس يوماً ما لدهة الحب لا يزال يفيض وينبض وإن كانت نبضاته حزينة يائسة .

وامتلاً عند ذلك قلبها لإشفاقاً عليه ، كما امتلاً حنقاً على نفسها وإنكاراً لقسوتها وأثرتها ، واندفعت نحوه كما يندفع الطفل عندما يرى من اعتاد أن يأنس إليه بعد طول غيبة . وما هي إلا لحظة حتى كانت تعترض طريقه في الحديقة وقالت له تحميمه باسمه :

— عفوك أيها الصديق الأجل إذا أنا عكرت عليك

صفاء تأملك .

فاعترت الرجل هزة تشبه أن تكون إجفالا من تلك
المفاجأة ، ورفع بصره إلى الأميرة الواقفة أمامه في مظهر
الضراعة ، واحمر وجهه ، وترددت عليه ابتسامة حزينة
وقال :

— مولاتى . . .

ثم أراد المضي في الكلام ، ولكنه تردد وأطرق مرتبكا .
فتقدمت زنوبيا نحوه ، ووضعت يدها على ذراعه وقالت :

— لقد أوحش مجلسى منك يا لونيخين .

فنظر إليها الرجل في كآبة وقال :

— كنت رهن أمرك يا مولاتى .

فأدركت الأميرة من رنة صوته أنه عاتب ، فقالت في
لهجة الاعتذار :

— أحس أيها الصديق أنني أسأت . ولكنك لا شك
تغفر لى إساءتى .

فرقت سحابة الكآبة التى على وجهه وقال :

— وكيف تسيئين إلى يا مولاتى ؟ إننى فى غمرة
من نعمتك .

فقالت الأميرة جادة وفى صوتها هزة التأثير :

— لقد ألهتنى شواغل الحياة المضطربة عن كل ما كنت
أؤثره وأرتاح إليه . شغلتنى عن كل شىء كنت أحسب له فى

الحياة قدراً ؛ حتى لقد شغلتني عن نفسي وعن عقلي وعن قلبي .
وكنت أنت أيها الصديق فيمن شغلتني عنه تلك الهموم .

ثم تركت ذراعه وتنفست نفساً عميقاً وقالت :

— سيعود أذينة بعد قليل ، وسأستطيع أن أخلو إلى نفسي

وأعود إلى السمو معك فوق تلك الآفاق المظلمة

ونظرت إلى الرجل باسمة تبحث عن نظراته لتبين فيها قبول

اهتمامها ، ولكن راعها منه أن رأته قد عاد إلى إطراره واضطرابه

وارتباكه . ففتحت عينيها في دهشة وقالت :

— أفى نفسك شيء يؤلك أيها الصديق ؟

فرفع الرجل نحوها بصره الحائر ، وقد ذهبت عن وجهه

الابتسامة الوديمة التي غشيتها منذ حين ، ووقف لحظة ينظر

إليها صامتاً . فقالت له في صيحة مكتومة :

— أرجو أن تحدثني أيها الصديق البجل ، كلني أيها المعلم

الحكيم ، تحدث إلى صديقتك وتلميذتك ، فلن تغضب من قولك

وإن كان قاسياً .

فذهبت الحرة عن وجهه وأجاب بصوت جاف :

— ما أنا يامولاتي إلا رجل أعيش في كنفك وأتقلب في

نعمتك . ما أنا إلا خادم ، ما أنا إلا كتاب ، ما أنا إلا صدّي ؛

لست في هذه الحياة حقيقة ، ما أنا إلا صدّي ؛ وهل

يغضب الصدّي ؟

فأسرعت زنوبيا فأمسكت بذراعه ، وضغطت عليها وقالت
وفي صوتها رنة الاشفاق :

— لقد أسأت إليك أيها الصديق ، فاعف عني .

ثم رفعت نظرها إلى وجهه المضطرب ، فاذا بالدموع تسيل
من عينيه المحمرتين . وكأنه لم يسمع قولها ، فاستمر قائلاً
بصوت مخنق :

— لقد تقاذفتني الأقدار في أركان العالم ، وكنت كلما
هبطت أرضاً لم ألبث إلا قليلاً حتى تضيق بي وأضيق بها . كنت
دائماً أريد الحياة ؛ ولكنني كنت دائماً أصحو بعد قليل ، فاذا بي
أرى نفسي حليماً وخيلاً . لا يراني الناس إلا كتاباً وصدى
أردد أقوال الحكماء والشعراء . ولكنكم شعرت بالسعادة عند ما
كنت أراك تشرकिनني في رأيك وفي تدبيرك ، وظننت أنني قد
وجدت عندك ما عجزت أن أجده في أركان الأرض . ولكن . . .
وسكت لحظة وأخرج من صدره منديلاً ، وجعل يمسح
الدموع التي بللت وجهه ولحيته . ووقفت زنوبيا تنظر إليه
صامتة وقلبها مفعم بالألم . ثم استمر قائلاً :

— ولكنني وجدت هنا ما وجدته في كل مكان . ما أنا إلا

كتاب . ما أنا إلا صدى . لست حقيقة في هذه الحياة .

فقال زنوبيا متأثرة :

— أيها الصديق الحكيم ، أنت علمتني أن مرتبة هذه

الحياة المادية الكثيفة أقل المراتب وأبعدها عن الكمال . وأن
أعلى الآفاق ما تشغله حياة الفكر والتسامي . فاذا كنت قد
شغلت عنك في ضجة تلك الحوادث التي تعرفها ، فما ذلك إلا
لأنى أدخرك الحياة أعلى وآفاق أسمى . ولقد آن لى أن أعود
إليك وأسمو إلى آفاقك . فلنعمد إلى العقل والروح معاً ، ولنندع
هذه المادة لمن يقدرون عليها ولا يستطيعون العلو فوقها .

ثم وضعت يدها تحت ذراعها وجذبتة برفق وسارت به في
طرق الحديقة وهي تبتسم له ، وجعلت تدخل به في شعاب الحديث
وتمزج الجدل بالدعابة ، حتى أسفر وجهه وعاد إليه هدوؤه ، وكانت
الشمس قد اختفت وراء رؤوس الأشجار الملتفة ، وبدأ قرصها
المسجدي يتوالب بين أغصانها التي يحركها نسيم المساء . فقالت
زنوبيا وهي تشير إلى ذلك المنظر :

— ألم تلهني الحياة عن مثل هذا الجمال حيناً ؟ لقد صرت على
أسابيع لم أفرغ فيها لأملأ عيني من الشمس في الغروب .
ثم أشارت تومىء برغبتها في العودة إلى القصر وقالت باسمه :
— لقد كنت أقرأ في حديث أندروماك وزوجها . ألا تعود
معي لتقرأ لى حديث زوجها هكطور ؟ إن هومير يبدو لى أبهى
لونا وأكثر تاللاً إذا سمعتك ترتل آياته .

ثم مدت يدها إليه لتعود به إلى القصر ، فأخذ الحكيم يدها
الصغيرة بين كفيه حيناً ، ثم نظر إلى عينيها نظرة سريعة ، ولكنه

أسرع فترك يدها وعلت وجهه حمرة شديدة ، وقال وهو متهلل
الوجه في شيء من اللفة :

— إذا أعود إلى الحياة يا مولاتي .

فتبسمت زنوبيا ودخلت إلى القصر وهو يسير وراءها ، وكأنه
يثب خفيفاً إذ يسير وقلبه ممتلئ بالغناء .

وقضيا من الليل شطراً يقرآن في إلياذة هوميرو ، حتى
أقبلت لميس تحمل رسالة جاءت إلى القصر مع رسول الأمير
أذينة ، تنبئ بأنه مقبل إلى تدروس بعد أن أصاب ما أقر عينه من
حرب سابور ، وكان آخر تلك الرسالة :

« ولم تستطع أسوار طيسفون أن تحمي الجبار الذليل ،
فاستباحت حرمه واستبيت ثلاثاً من نساءه سأجعلهن من
جواريك يا أميرتي . حرسك الآلهة وأمتعني بلقائك وشيكاً » .
ولما مضى لونيخين إلى منزله في القصر ، وبقيت الأميرة
وحدها لم يطاوعها النوم ، تتمثل صورة أذينة وهو عائد في جيشه
المنصور ، ولكنها كانت تراه ومن حوله نساء سابور .

أُذينة الملك

مضت الأيام البطيئة ، وأقبلت الرسل تنبئ باقتراب أُذينة
من تدمر مع جيشه ، واستعدت زنوبيا ليكون استقبال الأمير
الباسل متسقاً مع مجده وإعجابها وحبها .

وكانت المدينة قد ازدهت بالأمرء وشيوخ القبائل ورسل
الملوك ، وقد جاءوا للاشتراك في لقاء الأمير المنتصر العظيم .
وكان يوماً آخر صافياً من أيام الخريف عندما خرجت زنوبيا
في موكبها الحافل من الباب الأعظم لكي تنتقص من ساعات
الانتظار قطعة ، وخفت معها تدمر كلها لتلقى أميرها
الباسل العزيز .

وأقبل أُذينة في صدر جيشه ، فكانت زنوبيا أول من حياه .
ولم يحل جلال الموكب ولا ضجيج الجموع المحتشدة دون دفعة
الشوق بين الزوجين المحبين .

وقضت تدمر أياماً بعد عودة أُذينة في أعياد متصلة ومواكب
متلاحقة . فأدى البطل بعد عودته فرائض الصلاة في الحرم
الأكبر معبد شمس بعل ، ولم ينس أن يقدم القرابين في المعابد
الأخرى كمعبد القمر كمجمل بعل . ومعابد اللات والعزى وشيعة
القوم ودُसार . ثم عرض جيوشه المنتصرة في أعلامها الخافقة ،

وعرض غنائم فارس التي تبهر الأبصار بالألوان ونفاستها .
وكانت الأسرى تسير صفوفاً بين تلك الغنائم ، بعضهم من
الأمراء في قيود من الذهب ، وبعضهم من أبطال الفرسان في
أغلال من الحديد . وسارت السبايا من بنات الأمراء والقواد
وهن يتعثرن خجلاً في ملابسهن الممزقة لا يرفعن رؤوسهن
للأعين المتطلعة ، وقد بدا ألم نفوسهن على صفحات وجوههن
المقلصة المربدة . وكان فيهن نساء سابور ، إلا إحداهن شهناز
فقد ضن بها أذينة على الأنظار .

ولما فرغ أذينة من مواكبها أعلن في اليوم السابع من عودته
أنه محتفل بنصره في المنتدى تدمر الكبير .

وكان ذلك المنتدى فضاءً فسيحاً على مقربة من قبعة النصر
المثلثة الأبواب ، تحيط به المقاعد في نصف دائرة من
الدرج الحجري يعلو بعضها بعضاً على هيئة مسارح الأنساب
الاغريقية والرومانية .

واحتشد أهل تدمر منذ الصباح الباكر في ذلك المنتدى ،
والتأمت صفوفهم على المقاعد الواسعة وتطلعت عيونهم إلى الباب
الأكبر ينتظرون إقبال الأمير في موكبها . ولما علت الشمس في
ثلث السماء سمعت ضجة الموكب فتعالى لها صدى من هتاف الألوف
في صفوفهم المتراسة ، وأقبل أذينة في مركبته المذهبة المكشوفة
يجريها أربعة جياد عربية بيضاء ، وقد أخذ هو بأعنتها واقفاً ،

على حين جلست إلى جانبه امرأته الحسناء وعلى رأسها التاج الذى اعتادت أن تلبسه ، وفى مقدمته رأس الأفمى الملكية المصرية ؛ فتحرك الجمع فى مقاعده ، وعلا صياحه يردد اسم الأمير والأميرة مرحباً بهما فى حماسة ثائرة . ثم أقبلت بعد ذلك عربات أخرى فيها الأصراء والحاشية والوصيفات ؛ وكان فى طليعتها عربية يسوقها قائد حامية المدينة حسان ، وقد جالس بها الأميران هيرود بن أذينة الأكبر ووهب اللات أكبر بنيه من زنوبيا ، فتعالى الصياح مرة أخرى وتردد الهمتاف باسمى الأميرين ، وكانت تحية وهب اللات أعلى حماسة وأصدق زينناً . ثم أقبلت بعد ذلك عربتان فيهما سائر أبناء الأمير وبناته ، وترادفت بعدها عربات العظماء ، ثم ركب رائع من القواد ورسل الملك وفرسان الجيش ، على جياد عربية تملؤها الخيلاء وتفور فيها الحياة .

وتقدمت مركبة الأمير حتى بلغت المقصورة المذهبة فى طرف الفضاء المواجه لمقاعد الشعب ، فأوقف أذينة الخيل وألقى أعنتها على جانب العربية ومد يده إلى زنوبيا ، وهو رافع رأسه ضحواً يسم لها فى إعجاب ، ثم نزل وساعدها على النزول ، وصعدا معاً درجات المقصورة حتى بلغا مجلسيهما ، فاستقبلا الشعب الهمتاف وألقيا إليه التحية ، فبسط أذينة ذراعه ممدودة وأحنت زنوبيا له رأسها بابتسامة ، ثم جلسا فى صدر المقصورة ، حتى إذا أقبل الأميران الصغيران أوماً أذينة إليهما بالجلوس ،

فجلس هيرود عن يمينه ، وجلس وهب اللات عن يسار أمه .
وكانت ترمقه بعينها وقد سال فيهما حنان الأم وإعجابها ،
وأتى سائر بنى الأمير وبناته فجلسوا وراءها ، وأقبل الأتباع
فوقفوا على بعد ، وأقبلت الوصيفات فوقفن وراء الأميرة ،
وكانت ليس أقربهن إليها مكاناً . ثم أقبل الأكابر والأمراء
فأخذ كل منهم مجلسه في مكانه ، ووقف الحراس حول المقصورة
من تحتها ومن جوانبها ، واستقر الناس في مجالسهم ينتظرون
ابتداء الاحتفال .

ودبت الحياة في الميدان الفسيح ، فاصطف فيه الفرسان
صفوفاً ، كل صف منهم ينتظر أن يأتي الوقت المرسوم له لكي
يعرض ما عنده من فنون الفروسية وحيل الحروب ، فتسابق
جماعة من الفرسان ركضاً وهم قعود على الخيل ، ثم تسابق بعدهم
آخرون وقوفاً على ظهورها يتحركون كأنهم قطع منها ، ثم
تراكضوا يتطاردون ، ورموا على الأهداف بالسهام مرة
وبالحرب أخرى ، ومثلوا اصطدام الحرب ، فرأى الناس كيف
تعلا أصداء الحديد ، ومثلوا الكر وراء المنهزم ، والفرار أمام
المطارد ، وعطفوا الخيل بعد الفرار ، فاذا بها تقف فجأة كأن قطعاً
من الفولاذ قد أمسكتها ، ثم تستدير سريعة وتكر على المطاردين
كأنها تشارك فرسانها في تدبير الحيلة وإنفاذ الإرادة .

وكان الشعب كلما أعجبته حركة هتف وعلا ضجيجته ونادى .

باسم الفارس المبرز ، مظهراً إعجابه وتكريمه ، فكان حسان في ذلك اليوم أعلى الفرسان ذكراً ، وأكثرهم تبريزاً ، وكان كلما أتى بحركة بارعة وعلا له الهتاف ، أسرع راكضاً ليؤدى إلى الأمير وزوجته تحية الولاء ؛ ولكنه كان في كل مرة يلقي إلى ليس نظرة سريعة ، ولا تفوته الابتسامة الخفية التي تبرز على وجه الفتاة . ولما انتهى الفرسان من عرضهم أذن المؤذنون في الجموع المحتشدة أن وفد امبراطور الروم يقدم تحيته إلى الأمير . وأقبل عند ذلك رسول جالينوس يحمل كتاب مولاه في يديه حتى اقترب من مجلس الأمير ، فأنحنى وثني ركبته راكعاً ومد يديه بالكتاب في طوماره المذهب ، فتناوله أذينة ووقف إجلالاً ، ووقف من كانوا حوله جميعاً ، ثم ناوله إلى لونيخين ، وكان منه قريباً ، وأصره أن يقرأه ، فوقف معلم الملكة وقرأ الكتاب بلغة الروم ، ثم أعاد معناه بالعربية ، وفيه يشكر الإمبراطور صديقه أذينة على أن هبّ للانتقام لأبيه الأسير ، وهزم عدو الروم وكسر سيف الطاغية ، ولما أتى لونيخين إلى آخر الكتاب رفع صوته قارئاً :

« أيها الأخ الباسل . إن دولة الروم الشريفة تفتح ذراعيها للملك الصديق حامى حمى تدمر وقائد جيوش الشرق وأغسطس العظيم أذينة »

فردد المؤذنون تلك الكلمات حتى بلغت مسامع الشعب ؛

وعلت خجة طويلة ارتجت لها الأرض « أذينة أغسطس ملك
المشارك وصديق الأمبراطور ! » .

ولما انتهى لونيخين من قراءته ، جلس أذينة وجلس الجميع ،
ولا تزال قلوبهم خافقة ، وبقي الشعب حيناً يردد هتافه حتى
أخذت أنظاره هدايا الأمبراطور ، والجنود يحملونها من
مواضعها في أقبية المتدى ويرصونها تحت المقصورة الملكية .
فلقد كانت هدايا جديرة بدولة الروم وصديقتها الباسل . ثم تقابعت
الوفود واحداً بعد واحد تحمل كتبها إلى الملك الجديد وهو
يتناول رسائلها في قراطيسها ذات الأربطة المذهبة ، ولكنه كان
يتناولها جالساً ، ويمد يده بها إلى لونيخين كي يحفظها ، وكان كل
وفد يقدم مع كتابه هدية يتسلمها خازن الملك ، ويأمر الحراس
برصها والاحتفاظ بها ، حتى علت الأكداس وملأت الفضاء
الذى تحت المقصورة ؛ وكان من هذه الوفود وفد من مصر ،
بعثه الأمير المصرى اميليانوس الذى هزم جيوش الروم واستقل
بمصر عن دولة القياصرة . فلما تقدم الرسول بكتاب أمير مصر ،
لم يعبأ أذينة بما ظهر على وجه رسول أمبراطور الروم من
الامتعاض والكراهة ، بل تحرك فى مكانه وقال للرسول المصرى :
« تحية كريمة إلى صديق الأمير اميليانوس الباسل » .

ولما فرغ أذينة من تلقى رسائل الملوك وقف مؤذناً
بالانصراف . فوقف من حوله جميعاً ، وتحرك الشعب من

مقاعده مبادراً إلى الطريق الأعظم ليقف على جانبيه ، ويشهد ملكه البطل الذي اكتسى في ذلك اليوم بمجد الملك الجديد .

ولما صر أذينة بين صفيه عائداً إلى قصره في موكبه الباهر تعالى له المهتاف بتحية صادقة ، اجتمعت فيها الحماسة للنصر المجيد ، والاعتزاز بمكان تدمر الجديد ، والإعجاب بالملكة الحسنة ذات الرأي والشجاعة التي رآها الناس من قبل تحل محل زوجها الباسل ، وتسرف كيف تقبض على السيف ، ثم رأوها بعد عودته تزين موكبه ، وتزيده رونقاً . ولما عاد أذينة إلى القصر دخل إلى إيوانه مع زوجته وبنيه وبناته ، وكأنه قد حن إلى أن يفهم ذلك اليوم ليحوز ما لم يحزه من قبل ملك في تدمر ، بأن يجمع بين زهو النصر في ملأ شعبه ونعيم المحبة في ظل أهله ، ووزع فيهم الهدايا والطرف مما اختاره لهم من غنائم حروبه ؛ وكان أشد الأبناء فرحاً بما أهدى إليه أكبرهم الأمير هيرود ابن أذينة من زوجة كانت له قبل زنوبيا ؛ وكان في إظهار سروره بهداياه يصيح ويضحك في نبرات ناعمة وخفة ظاهرة كانت زنوبيا ترقبها بنظرة ساخرة فيها لون من الاغتياب ؛ ونظر إليه أبوه ملياً وتأمل مظهره ، ثم تنفس نفساً عميقاً وهو يرد عنه طرفه حزيناً . ولم يفت ذلك عين زنوبيا ، فسنحت على وجهها ابتسامة سريعة ، ولكنها كتمتها خوف أن يفطن زوجها إليها . فلقد كانت تعرف أن هيرود المدلل الناعم لن يقف بين عرش تدمر وبين ابنها وهب اللات .

وبعد ساعة قام الأبناء إلى مخادعهم ، وبقي أذينة مع زوجته جالسين وحدهما يتناجيان ، وهزة اليوم المجيد لا تزال تماؤهما زهواً ، وجرى الحديث بينهما في مسارب ، وجعل أذينة يصف لها ما لم يجد من قبل فراغاً لإتمام وصفه من قصص حروبه ومخاطراته ، ومن آماله وخططه ، ومن صنوف ما أعده لأصدقائه من الثواب ، وما يبتغيه لأعدائه من العقوبة .

فالتفتت إليه زنوبيا ، وقد أحست أنه قد أمسك وقالت باسمه :

— وماذا أعددت لي يا أذينة ؟ إنك قد ذكرت كل من

في تدمر ولم تنس أحداً سواي !

فقال بصوته المريض ، وقد جذبها إليه :

— لم أذكرك لأنك بعضي ، بل لأنني أنا بعضك .

فقال له مترددة :

— ولكني كنت أنتظر . ولا أزال أنتظر .

فأجاب مسرعاً وهو يقبلها :

— صريني يا مليكة تدمر .

فعادت تبتسم وقالت في تدلل :

— أمليكة تدمر أنا ؟

فقال أذينة باسمًا :

— بل مليكتي !

ثم ضمها إلى نفسه عاطفاً . فقالت زنوبيا بعد صمت قصير :

— أَيْكون لى أن أطلب العفو عن معن ؟
وكان ذلك الطلب مفاجأة لأذينة ؛ فوضع يده على جبينه
كأنه يذكر شيئاً نسيه ، ثم عبس وقال فى كثير من الأسف :
— معن ! ويل امه ! لقد كنت نسيته .

ثم نظر إليها جاداً وقال :
— وحق اللات لو ذكرته قبل خروجى للحرب لملته
مى . إنه فتى باسل . ليكون معنا فى مأدبة الليلة .
فقامت زنوبيا وقد استخفها السرور وقالت :
— أتبعث فى طلبه ؟

فقام أذينة وقال مبادراً :
— الساعة .
ثم اقترب من آنية صفراء من النحاس وضرب عليها
بعود دقيق ، فتجاوب البهو بأصداً صوتها ، وأسرع خادم
فدخل ينتظر أمر مولاه . فقال له أذينة :
— أسرع إلى حسان فادعه إلى .

وأسرع الخادم خارجاً .
فاقتربت زنوبيا من زوجها ، ووضعت ذراعها حول عنقه ،
ثم نظرت فى عينيه فضمها إلى صدره قائلاً :
— مليكتى !

ولكنها بقيت تنظر فى عينيه وقالت بصوت هامس :

— وطلبة أخرى يا أذينة .

فضمها مرة أخرى وقال :

— اطلبي ما شئت يا مليكتي — اطلبي شيئاً أحس في تلبيتته

أننى أبذل . إنك تذكرينى بما كان يجب على ألا أنساه . فهل

لك أن تطلبي ما يشمرنى بأننى أبذل ؟

فقالت ولا تزال فى موقفها :

-- حسان !

فتبسم أذينة وهو يقول :

— بل قولى لميس .

فقالت له زنوبيا :

— إذا قد عرفت ما أريد .

فقال أذينة :

— هى له ، وإن كلفنى ذلك حرباً جديدة .

وفى هذه اللحظة سمع صوت أقدام وفتح الباب ، ودخل حسان .

ووقف بعد التحية ينتظر ما يؤمر به ، فنظر إليه أذينة وقال :

— اذهب الساعة إلى معن فأطلقه من سجنه ثم ادعه إلى

وليمة الليلة نائباً عنى .

فخيا حسان وهم بالخروج ، وقد بدا على وجهه سرور تخالطه

الدهشة ، ولكن أذينة استوقفه وقال له ناظراً إلى زنوبيا :

— والمليكة أمر عندك فانتظر ما تأمر به .

فوقف حسان وانحنى إلى زنوبيا ، ونظرت زنوبيا إلى زوجها
وتبسمت بسمة مريمة ، ثم التفتت نحو حسان وقالت له في حماسة :
— أيسرك أن تكون ليس لك زوجة ؟ .

ففتح الشاب عينيه في دهشة ، ثم ارتد خطوة إلى الوراء
ورفع يده إلى وجهه كأنه يريد أن يلمس عينيه ليتحقق أنه في غير
حلم ، وقال بصد أن تمالك نفسه :
— مولاتى ! .

فتبسمت زنوبيا وقالت :

— هذا ما أراده الملك رغبة في إسعادك .

فأفاق الشاب قليلاً ، وأسرع نحو الملكة فحشا على ركبته ،
وأخذ طرف ثوبها فقبله ، ثم ذهب إلى أذينة وحياء باسطاً
عينيه وقال له :

— للأمير حياتى .

فتبسم له أذينة والملكة وهما يومئذ إليهما بالتحية .

وما كاد يذهب حتى ذهبت زنوبيا نحو زوجها ووضعت يديها
مرة أخرى حول عنقه ، ومالت برأسها على صدره الواسع ،
وقالت وكأنها هامسة في حلم :

— أيتها الآلهة . احرسيه واحفظى على سعادتى .

فجذبها أذينة برفق وذهب بها إلى مجلس أنيق في ركن
من البهو ، وعادا إلى حديث وديع .

الفحول

مضى عام على تدمير بعد عودة أذينة وأخذ القب الملك ،
وتبدلت المدينة من عاصمة تجارة إلى تحت مملكة ، وتبدل أذينة
فأصبح عاهل الشرق ، يتقرب إليه جالينوس ويدعوه أخاه
(أغسطس) ، وتتطلع إليه عيون العرب بزهو وإعجاب ، ويتزاحمون
على أبوابه يطلبون أن يكونوا في جيشه المظفر ويلتمسون النصر
الرائع معه .

وكانت فارس وحدها تتربص به الدوائر ، ولم تنس ما أوقعه
بها من الهزائم ، ولكنها لم تجد في جيوشها قوة تعينها على الانتقام
منه ، ولم تجد في حليفها امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة
ما يساعدها على إزالة المعرة التي لحقت بها .

وبقي قصر الملك في تدمير مهبطاً لشعراء العرب الذين جعلوا
انتصاره يوماً من أيامهم المجيدة يتغنون بذكره ، وأذينة يستمع
إلى غنائهم مع موسيقى سبایا الفرس اللاتي ازدحم بهن قصره بعد
نصره العظيم .

أصبحت تدمير كلها مزهوة بمجدها ، سعيدة بما جلبه لها
النصر من حركة وغنى ، وما أشاعه فيها من سلام وطمأنينة ،
إلا قلباً واحداً لم يحمل إليه ذلك المجد كله إلا أملاً خائباً تركه

يتعطش ويجدب ويتوجع ، ذلك قلب زنوبيا .

أحست زنوبيا عند أول عودة زوجها بأن سعادتها تفيض في قلبها ، ولكنها أحست مع هذه السعادة شعوراً غامضاً من الخوف والقلق يدب في نفسها .

لقد كانت تعرف أن الآلهة لم يقدرُوا للبشر سعادة صافية ، وأنهم يبعثون إليهم إذا ما فاقت الكأس الحلو بما يعكر الصفاء ، ويميل الحلاوة مرارة . فهم ينفسون على الإنسان أن يشاركهم في النعيم الخالص ، ويأبون إلا أن تكون الأقدار البشرية أدواراً متداولة وحظوظاً متمازجة .

كانت تحس هذا وتحدث نفسها أحياناً به ، ولكنها كانت تسرع إلى إسكات ذلك الحديث ، ولم ترد أن تقف لتقبين كنه ذلك الشعور الغامض ، وكأنها كانت تخشى أن تعكر بهذا التفكير صفو السعادة الفياضة التي شملتها .

ولكن مرّت الأيام والشهور ، فإذا بها بعد حين تقف مرغمة تنتظر فيما صارت إليه حياتها . فقد بدا لها أن الحياة تتغير ، أو هي قد تغيرت ، وأن السعادة تتحول أو هي قد تحولت . وتمثلت لها صورة عكست عليها حياتها كلها تصورتها ، صورة امرأة أقيمت إلى تدمير من أقطار بعيدة لتسلبها زوجها ، صورة شهناز الأسيرة التي سبأها أذينة بين نساء سابور ، وضمن بها على السير في موكب النصر ، وجعل لها قصرآ في طرف من أطراف

تدمر ، يأوى إليها فيه ، ويقضى معها بعض ليلائه .

تبدل أذينة ، وكان تبدله غير مفاجئ ، بل تسرب إليه التغير ، وتدسس إلى نفسه في خفاء وهينة ، فلم تلاحظه عينها في أوله ، ثم بدا لها فجأة ، وبقي ماثلاً لها كأنه شبح مخيف طلع بغتة في طريقها .

وعلت نفسها في أول الأمر بأن ذلك التحول طارىء من أثر الدعة بعد الحروب ، ولا يلبث أن يزول ، فيعود زوجها البطل كما كان منذ عرفته ، رجلاً عنيفاً في وداعة قاسياً في رحمة ، مندفعاً في ترفق ، يسطو ويظلم ، ويخاطر ويناضل ، ولكنه يعفو وينصف ، ويرق ويعطف ، وهو في كل أحواله يحبها ويثق فيها ، وتجد في صدره وبين ذراعيه استقراراً ودعة . ولكنها كانت تراه كلما مرت به الأيام يزداد صلابته في تبدله ، وعنفاً في تحوله ، وبعداً عنها ، وانصرافاً إلى شهناز .

ما كان أقسى هذا الفسك عليها ، وأدماها لقلبها ! إنه كان يبعد عنها ، وتراه في ارتياعها كأنما يحمله تيار قوى لا يقدر على المناضلة فيه للعودة إليها .

كان قبل حربه قد آلى على نفسه ألا يذوق الخمر حتى يشتفى بالانتقام من سابور ، فلما بلغ من انتصاره ما بلغ تحلل من أليته وأقبل على الخمر في مجالسه ، وأطلق لنفسه الغنان في حلقات السمر ، واندفع مع ندمائه في الشراب وفي سماع الغناء ؛ حتى رأت

زنوبيا أن مجالس سمره تأبأها عليها كرامتها وغيبتها ؛ وكان يعربد أحيانا في سكره فيندفع إلى أذى أصحابه الذين معه والعيبث بهم ، أو الايقاع بمن تبدر منه بادرة تثير حفيظته ، حتى كره العطاء والأمراء أن يحضروا مجالسه ، ورأوا في تخلف زنوبيا عنها مثالا يحتذونه . وتقرب إليه الأصاغر وأحاطوا به ، وزينوا له ما يحاو لأنفسهم ، حتى أصبحت مجالس سمره حلقات مجون ودسائس بعد أن كانت مجامع حكمة وفن وفكر .

واندفع في زهوه وكبرياء نصره ، وصار لا يطيع امرأته الحبيبة إذا أشارت عليه بما لا يرضى كبريائه الدموية ؛ فبعد أبعد عودته بمعاقبة من كانت زنوبيا أغضت عن خيانتهم من الشيوخ ، عند ما حاصر الأمير السليحي تدمر في مدة غيابه ، فلم يدع منهم أحداً بغير عقوبة ، وكان أكثر عقابه بالقتل والتعذيب . وشملت المدينة كآبة مظامة ، وخيم عليها هدوء وخشوع ، وصار كل من فيها من العطاء يتوجس خيفة أن يصيبه أذينة يوماً بتهمة من أثر وشاية فيأخذه بحريرة لم يحترمها . وكانت زنوبيا تلاحظ ذلك إذا ركبت مع زوجها في المدينة ، فقد كانت الطرق تخلو ويسرع من فيها إلى الاختفاء منها خوف أن ينالهم شر من نظرة تقع عليهم من أذينة لا تنال منه الرضا . وكانت كلما أرادت أن تكشف له عن نفسها توزع قلبها بين حبها الكامن وبين خوفها أن تقطع ما بينها وبينه ، فكانت

تحاول أن تشير إلى آلامها ، ولكنه كان لا يعجب أن يقف عند إشارتها الدقيقة ليدرك ما ترى إليه فيها ، حتى آل أمرها بعد حين إلى حال تشبه أن تكون قطعة تامة بينها وبين زوجها . وما كان أقسى الساعة التي كانت تراه يخرج فيها من القصر بعد أن يفرغ من مجلس سمرة لينذهب إلى الطرف البعيد من تدمر حيث تأوى شهناز .

كانت تلك الساعة تخلف لها ليلة مسهدة ودمعاً سخيفاً وقلباً كسيراً ، ولكنها كانت مع ذلك تجلس كل ليلة تترقبه لكي تراه ، ثم تذهب إلى مخدعها باكية حائرة شقية .

ومضت الأيام والشهور ، وكانت تحس أن أشباح المموم والآلام تمد أعناقها في أفق حياتها الجديدة ، وتمتد في بطء قاس منتشرة على السماء الصافية التي يتألق فيها مجدها الذهبي . وماذا ينفعها أن أصبحت تدمر عاصمة دولة عظيمة تمتد من حدود الفرات إلى حدود مصر ، وأن جعل جالينوس أذينة صديقه وخليفته على قيادة جيوش الشرق ، وأن وكل إليه حكم بلاد الشام التي زال منها أثر (مقریان) ؟ ما جدوى هذا كله عليها ، وهذه الدولة الفسيحة لم تحمل إلى قلبها ما كانت تحلم به من السعادة ؟ كانت تحسب أن ذلك المجد الموق هو أمنية حياتها ، وخيل إليها أن صورته المذهبة البعيدة عند آفاق آمالها هي علالة نفسها التي إذا بلغت ملأت قلبها سلاماً وغبطة ، حتى لقد

جعلتها مناط إيمانها ، وفتحت قلبها لدين المسيح إذا هو ساعدها
على الفوز بها . فلما بلغتها وجدت لونها الذهبي يفارقها ، ورأت
أنها ليست إلا عبثاً من يد القدر الساخر ، وأنها لم تكن غير
خطوط ترايبية ، وأن بريقها الخادع لم يكن إلا من سحر شياطين
الاطماع . ووجدت أفقاً جديداً يطلع من بعيد ، ويتفتح أمام
عينها ، ليس فيه إلا أشباح سوداء تتراقص في بشاعة ، وتثب
نحوها مهددة مخيفة .

هذا أذينة قد دار رأسه من المجد فصار عاتياً سفاكاً ؛ وهذه
مجالسه قد تبدلت ، فأمتت مجالس سكر ومعايشة وفجور ، وزال
عنها رونق الشعر والفلسفة والفكر ؛ وهذه هي تراه قد بعد عنها ،
وآثر عليها تلك السبية الأعجمية شهناز . شهناز الجميلة التي كانت
صورة من المرأة الوديعه الطيبة التي خلقت لكي تكون أمة . ليتها
هي كانت تقدر على أن تكون أمة لكي تسترجع هذا الزوج
الحبيب ؛ ولكنها لا تستطيع ، لأنها لم تولد إلا لتكون ملكة .
لقد وهبته قلبها وهي أميرة ، ولا تستطيع إلا أن تكون زنوبيا
سيدة تدر التي تتربع على عرشها في قلب أذينة .

أف لهذه الحياة التي تكبلها بالقيود ! ليتها كانت تستطيع
أن تفضى بآلامها إلى صديق ، لكي تنفس عن قلبها وتنفي السموم
عن جرحه ؛ ولكنها كانت لا تستطيع الشكوى إلى أحد ،
فأصبح الجرح عميقاً داوياً . حتى ليس ولونجين لم تجرؤ على

الإفضاء إلى أحدهما بشيء مما نغص عليها حياتها ، إذ كانت كبرياؤها تمنعها من الكشف عن الدلة التي أحست طعننها . فلم يبق لها إلا أن تناجي نفسها الحائقة المتأللة ، وأن تذهب معها في الثورة أنى تتجه بها ؛ فثارت على كل ما كانت تعرفه وتعظمئن إليه ، وتغيرت نظرتها إلى الحياة ، فصارت تشك وتسخر ، ولا تستطيع أن تؤمن ؛ وبم تؤمن ؟ وما الذى يدعوها إلى الإيمان ؟ لقد كانت تريد الإيمان ليكون دعامة لقلبها الممتلىء حماسة وعاطفة ، ولكن ماذا يجديها الإيمان وقد ذهبت حماستها فتبدلت يأساً ، ومسخت عاطفتها فأصبحت حنقاً وثورة ؟ ثم ما هى السعادة ؟ لقد رأتها أملاً سخيلاً يتعاقب به الحمقى ليعملوا أنفسهم بالمجهول فى المستقبل ، كلما أيأسهم وقتهم الحاضر .

وما هى الحقيقة ؟ أهنالك حقيقة فى هذا العالم الأجوف ؟ إن الانسان كلما ظن أنه قبض بيده على شيء فيه وعرف كنهه فتح يده فاذا به يقبض على الريح .

وما حقيقة المجد ؟ ما حقيقة الغنى ؟ ما حقيقة الملك ؟ بل ما حقيقة الحب نفسه ؟

قد ذهب أذينة للحرب ، وانتصر وأحرز أكاليل المجد ، ثم هاهو ذا عاد منها ذلك السكير الماجن الذى حنث بكل شيء حتى بحبها . أكان يحبها ؟ أمهى تحبه ؟ إنها كانت حقاً تحس النعيم فى قربه وحمايته وحديثه وقبلته . ولكن أليس هذا سر

الطبع الذى أودع فى سائر الحيوان ؟ إنها امرأة وهو رجل .
كانت تريد رجلاً تعيش فى كنفه ، ويكون لها منه نسل كما
يريد من الزواج أقل نساء تدمر شأنًا .

وها هو ذا يلهو عنها وينساها فى مجونه وعيبه . ما أحق
النساء ! وما أحقها هى ! هذه ليس لا تزال تتعلق بالخيال
الذهبي الذى رسمه العواطف العطاش ، وهذا حسان يتعلق بها
كأنها إلهته ، وقد غمرها ما يظنانه سعادة منذ عرفا أن الملك
قد أذن بزواجهما .

لقد كانت زنوبيا تضحك ساخرة كلما تذكرت ليس
وحسان ، فأنهما لن يلبثا إذا هما رويا تلك العاطفة المحرومة أن
يصيرا إلى ما صارت إليه هى وزوجها أذينة . إنهما يخدعان
نفسيهما ويظنسان سعادة الحب حقيقة ، وما هى إلا صورة
خيال ؛ فما الحب إلا حادث من حوادث الطبيعة التى تتكرر كل
يوم آلاف المرات بغير أن يأبه لها أحد . أليس هذا الخداع من
حق الانسان ، إذ يخادع نفسه بتلك الصور التى يخيّلها إليه الوهم ؟
كانت زنوبيا كلما خلت إلى نفسها جعلت تتكرر هذه المعانى ،
تجادل فيها نفسها حينئذ ، ثم تعود مدعنة لها يائسة حزينة ، فإذا
أرادت الهرب من مجادلة نفسها ، دعت إليها ليس وحاولت أن
تنفّس من بساطة نفسها وسذاجتها وإيمانها ، لعلها تجد فى
تلك الأنفاس شفاءً لأشجانها ، ولكنّها كانت بعد قليل تحس

أن تلك الفتاة الخيرة لا تستطيع أن تهزها الهزة التي تشغلها
عن همومها فتصرفها لكي تمود إلى وحدتها الموحشة العنيفة .
أما لو نجين فقد كان هو الصديق الذي تجدد في عمق فكره
وجلاء نظراته ما يخفف من لواعج همها ؛ وكانت فوق ذلك تحس
إذا حدثها شيئاً آخر غامضاً ، تحس في حديثه نبضاً يدب إلى
نفسها . كان المسكين يفنى إذا جالسها ، ولا تجد منه إلا صدى
لنفسها وآرائها ومشاعرها ، وكان ذلك يدخل شيئاً من الدفء
إلى صدرها ، ولكنه لم يكن يبعث فيها السعادة ولا السلام .
فأقبلت عليه وجعلت سلوتها في دروسه وقراءاته ومناقشاته .
وتعجبت بعد حين إذ وجدت أنها قد أخذت تساو وتهدأ
وتطمئن إلى قرار ، غير أنها عند ما أحست بذلك وجدت كذلك
أنها إنما استقرت بعقلها لا بقلبها . لقد أقبلت على دروس لو نجين
إقبالاً تمازجه الرغبة الحارة في التماس السلام لنفسها . أقبلت
عليها بكل حماسة قلبها ، بعد أن وجهت مجرى تلك الحماسة من
شواغل القلب إلى مسائل الفكر . فلما تجلت لها الحقائق
وحكمت في كل شيء وعقلها ، صارت لا تطمئن إلى شيء غير عقلها .
لقد يئست من القلب بعد أن أوشكت أن تجعله هادئاً في
الحياة ، وجعلت كل إيمانها في العقل والفكر ، وأصبحت بعد
حين تنظر إلى العالم كله نظرة مجردة تحملق في الحقائق وتحلل
وتحلل . فبعد نضال وجهاد قضت فيهما تلك الشهور القاسية ،

تحولت وتبدلت حتى صارت كأنها قد خلقت خلقاً جديداً ؛
فلا الربيع يحمل إليها شذى ساحراً ، ولا لون الشروق يبعث
في قلبها خفقاناً رقيقاً ، ولا نسيم الآصال يرسل إليها سلاماً
شاملاً . ولا القطر يشير فيها للبشر ، ولا ألوان قوس السماء تذكرها
بأساطير الشعر ، ولا منظر الألم يشير فيها الرحمة ، ولا أحاديث
السعادة تبعث إليها الحنين ؛ بل صار كل حدث في حياتها علة
أو نتيجة ، وكل شيء في الوجود صورة المادة معقدة أو بسيطة .
وفيما كانت زنوبيا تعالج نفسها وتكتنه ذلك التحول الذي
اعتراها أتت الأنباء إلى تدمر من جالينوس أن نيران الثورة اندلعت
في الشام من القائد (بالستا) الذي بايع له الجيش بعد أن قُتل
مقران . فكان على أذينة قائد جيوش الشرق كلها أن يفارق
تدمر مرة أخرى ، وأن يدع الخمر ومجالس اللهو حتى يعيد الشام
إلى صديقه الامبراطور .

وودعت زنوبيا زوجها هذه المرة قبل سفره ، ولكنها عندما
وقفت تنظر من أعلى قصرها في أعقاب جيشه المتباعد لم تبح
لقلبها أن يتمادى في خفقانه .

معاودة الذكرى

لم تحس الملكة في أول غيبة زوجها هذه المرة مثل إحساسها الأول أيام فارقها أول مرة في ذهابه لحرب سابور . لقد كانت عند ما فارقها من قبل تعاني وحشة قلب لم يتعود من قبل الفراق ، وكان قلبها مليئاً بما تفيض به عاطفة المرأة المحبة التي وثقت بمن تحبه كل الثقة وجعلته مناط أملها ومبعث سعادتها وظل سلامها وأمنها . كانت عند ذلك ترى في أذينة الصدر الذي تستدفي بالانضمام إليه ، والساعد الذي تثق بالاحتواء وراءه ، والصديق الذي تأنس بمودته ، والبعل الذي تنعم في عبادته .

كان لها إلهاً وإن كانت تعرف فيه هوج الغضب وعيب السكر وقسوة السطوة ، بل إن هذه الخصال التي عرفتها فيه وأنكرتها أحياناً عليه كانت من بواعث القوة في إعجابها به وفنائها فيه . أليس هو في ذلك كبعض تلك الآلهة التي طالما قرأت عنها في إلياذة هوميرو ، إذ هي تجمع بين جلال القوة وشدة البطش وسمو الرحمة وصفاء المودة ؟ كانت عند ذلك لا تتصور الحياة إلا كان أذينة يملؤها ، ولا تتطلع إلى أمل إلا كان شخص أذينة مائلاً بين جناحيه الشفافين المتلائين . كانت حياتها كلها حلاًماً تتخلله صورة أذينة على اختلاف مناظره وتنقل حالاته وتعدد ألوانه .

صورة تبدو أحياناً في إطار زاهٍ من الحسن الوديع ، وأحياناً في
لجة من القوة الجامحة ، وأحياناً في معركة من الفضال العنيف ؛
ولكنها في كل الحالات صورة محبوبة لا تزال عينها متعلقة بها في
إعجاب يشبه العبادة .

ذلك ما كانت زنوبيا تحسه عند ما فارقها أذينة أول مرة
في ذهابه إلى حرب سابور . ولكنها عند ما وقفت تنظر إليه
من أعلى القصر وهو يختمى مع جيشه وراء الكشبان الصفراء ،
ذاهباً نحو الشام لحرب القائد (بالستا) لم تحس إلا مزيجاً
عجيباً من الحزن والحنق والقسوة ؛ وكانت كلما نازعتها ذاكرتها
إلى تذكر أيام حبها وإيمانها به حرّرت وعصت ومانعت وأبعدت
كل ذكرى غير ما نفّس عليها حياتها في تلك السنة الماضية .
إنه أذينة القاسى السفاك الماجن السكير . إنه الزوج الذى أوى إلى
شهناز الأعجمية ووجد فيها ما أنساه حبها وصادقتها ، وطعن
قلبها في صميمه ، وأذل عزتها وكبرياءها . إنه الرجل الذى تركها
تجادل نفسها وتجادبها أشد مجاذبة وأعنفها حتى استطاعت أن
تحملى إلى الحياة الجافة الباردة ، وأذهب عنها كل ما كان يملأ
قلبها رقة وخيالاً ، وتركها للعقل المجرد وحده يحركها في تبهم ،
حتى أصبحت حياتها خالية من تلك الألوان الزاهية التى كانت
تهزها وتكسبها جمالاً وتفعمها شعراً ورقة .

ولما صارت فى تدمر وحدها لم تجد فى وحدتها جديداً ؛

فلقد قذف بها أذينة إلى تلك الوحدة من قبل وهو معها في ذلك
العام الأخير ، حتى ألفتها واستقرت عليها وأنست إليها .

ولهذا لم تشعر في حالتها الجديدة وحشة ، ولم تقف لحظة
لتفكر في سير الأيام والشهور ، ولم تعباً إذا كانت تمر بها مبطئة
أو سريعة ؛ فقد كانت لا تلتفت إلى ماض ولا تتطلع إلى
أمل . وعلى ذلك مضى عليها شهر بعد شهر وهي في تدمير
تستقبل الوفود وتدبر أمور القوافل وتسير في المراكب ، وتصرف
أمور القوم ، وتبذل حيناً وتجمع حيناً ، وتسوس الأمور على
هدى عقلها ونصائح معلميها لولجج ، حتى كادت لا تذكر زوجها
الباسل إلا بين حين وحين إذا هي استقبلت منه رسولا ينبئها عن
نصر جديد أو سير إلى حرب أخرى بعد فراغه من حرب قبلها .
وكان قلبها ينافرهما في بعض الأوقات فتحس حيناً إلى
ذكرى الزوج الحبيب ، ثم لا تلبث أن تصرف ذلك الحنين
وتملك قلبها المتمرد فترده إلى جموده ، كما ترد الأم القاسية طفلها
العاصي إذا جمح لحظة عما عودته من طاعتها .

وكانت في هذه الأيام التي صرت بها تقف بين حين وحين
لتتأمل نفسها وما اعتراها من تغير ؛ ولسكنها كانت كلما تبينت
تغيرها ازدادت فيه صلابة وشدة . حتى لقد خيل إليها أنها قد
تحولت شخصاً آخر غير المرأة التي كانت تعرفها في نفسها ؛
ولهذا كانت تتحدث إلى الرجال وتجالسهم وتسامرهم وتجادلهم ؛

وترشف معهم الخمر في مجامعهم ، وتقسو أحيانا وتطرب أحيانا ،
وهي في كل حين تظهر عليهم إرادتها وتحملهم على رأيها ، ولم
تتردد في أحاديثها أن تصارحهم ويصارحوها في كل أمر من أمور
الحياة وفي كل مسألة من مسائلها ، حتى كانت تكشفهم بما ترى
في علاقات الذكور بالاناث وما فيها من حماقة أو حكمة ؛ وكانت
تكسو أحاديثها أحيانا بسخرية لاذعة فيها ما يشبه الحقد والحنق ،
وأحيانا تكسوها صراحة مكشوفة فيها ما يشبه المجون والتبذل ؛
ولكنها كانت مع كل ذلك مالكة زمام نفسها متنبهة إلى كل
ما تم عليه وجوه أصحابها من خلجات خفية في طوايا نفوسهم .
وكانت ليس في هذه المدة لاهية في سعادتها لا تسكاد تذكر
الملكة إلا إذا ذهبت إلى خدمتها ، فقد كانت في شغل عنها بما
تجده في حياتها الجديدة من صحبة حسان ؛ وكانت زنوبيا لا تلتفت
إليها كما كانت تلتفت من قبل ، أيام كانت كلما ضاقت بهمومها تلجأ
إليها لتحدثها وتعالى صدرها من إيمانها وبساطتها . فقد بعدت
زنوبيا عن الإيمان ووضعت بينها وبين القلب حجبا جامدا صارما .
ولكن أيستطيع الانسان أن يكون إلها ؟ جحدت زنوبيا
قلبا وظنت أنها ملكة زمامه وخلصت من ثوراته العنيفة التي
كانت تزلزل ثباتها وتقذف بها إلى الهوم السوداء ، ولكنها لم
تلبث أن تبينت الحقيقة المنطوية في أعماقها عندما انكشفت لها .
كانت جالسة في يوم من أيام مطالع الربيع الممتلئة بالحياة

تنظر إلى حديقة القصر من فوق شرفتها ، ولونجيين يقرأ لها في كتاب أفلاطون ، ويصف لها المدينة الفاضلة التي صورها ذلك الفيلسوف . وكانت تجادل معلمها في حماسة وإعجاب ، وتسمع وصفه ، غارقة في تأمل ما تكون عليه تدهر إذا استطاعت أن تجعل منها مدينة مثل مدينة أفلاطون . وقال لها لونجيين : إن الامبراطور جالينوس قد عهد إلى صديقه الفيلسوف أفلوطين أن يقيم له في دولته مدينة فاضلة وفوض إليه أن يصورها كما أراد . ولم تكن زنوبيا أقل من جالينوس بصراً ومالاً ومجداً . ولم يكن لونجيين إلا صديق أفلوطين وقرينه في العلم بفلسفة القدماء . وأفاقت الملكة بعد حين من تأملها وقالت لمعلمها :

— ولكن أفلاطون لم يجرب . إن الأحلام السعيدة دائماً أزهى لوناً من الحياة يا أيها السيد المبجل .
فقال لونجيين في حماسة :

— إن تلك الألوان الزاهية التي تخلع على الأحلام جمالها مستمدة مما تقع عليه الأبصار . وما براعة الآلهة إلا في مزجها في الأحلام .

فقال زنوبيا :

— يريد الفلاسفة تصفية الحياة مما أودعته الآلهة فيها . إنها لم تودع هذه الغرائز السفلى في قلوب الناس إلا لئلا لطم لهم الحياة على مشيئتها . وأنى يقدر الانسان على أن يكون كاملاً ؟

فقال لونيحين :

— ولكننا نتقدم ونتهذب ونخطو مع الزمان دائماً . ألم يكن القدماء يلبسون الجلود ويقتلون الضحايا البشرية عند مذايح آلهتهم ؟ أليس الفلاسفة طلائع الانسانية في التقدم ؟

فسكتت زنوبيا حيناً ، ونظرت إلى البستان المبتسم تحت قدميها ، وجعلت تملأ صدرها من الهواء المطر بريح زهر الليمون والبرتقال . وكانت براعم الشمس تكسو أغصانه بثوب ناصع كأنه من قطع الثلج الأشهب ؛ وكانت أشجار الرمان والزيتون والأعناب تتفتح وتمتلئ بالحياة الجديدة في دفء الربيع الأول . فاهتزت نفسها ، وجاشت شجونها الكامنة التي أطالت كبتها ، ثم نظرت إلى معلمها وقالت في حماسة :

— أيها السيد المبجل ، إن هذا الربيع يهز نفسي . لقد أسلمت قيادي إلى العقل ، ولكني أجده لا يقوى على حكم نفسي . ما أبعد خيال الفلاسفة عن العقل ! إن خيال أفلاطون ينبض بقوة تحرك النفوس ، وما أحسب أفلاطون إلا شاعراً ، وإن كان لا يعبأ بالشعراء . لقد حرك نفسي بعد أن ظننت أنها قد نسيت الحركة .

ثم قامت وقالت لمعلمها :

— تعال أيها السيد المبجل لنجول جولة في هذه الوديان المزدهرة التي أحيها الربيع .

وخرجت مع معلمها فركبا إلى الصحراء ، وسرحت زنوبيا طرفها في المروج الخضراء اليانعة تشقها جداول الماء الصافي ، وهي تتمرجح في الوديان تلمع في ضوء الشمس الرفيقة ؛ ويتألق في قاعها الحصى كأنه فئات من الجواهر الثمين . وكانت أسراب الطيلاء تسنح لها إذ هي تثب خفيفة من خميعة وتسرع إلى خميعة بعدها ، فلا تلمح منها إلا بياضاً يبرق ثم يختفي . ولم تملك الملكة عند ذلك أن عاودتها الذكرى القديمة التي ظنت أنها نسيته . لقد كانت تخرج إلى هذه الوديان مع أذينة إذا أراد الصيد . وما كان أسعدها في تلك الأيام ! إنها لم تجد في قلبها من حل في مكان زوجها الحبيب ، وبقي قلبها الموحش مظلماً بارداً وحيداً .

إنها تحاول أن تجد في الفلسفة ما يبعدها عن تذكر هزات قلبها ، ولكنها لم تجد الفلسفة نفسها خالية مما يهز القلب . وجرفتها الذكرى فإذا بها تغرق فيها وتغيب عن إبصار العالم الحسى الذى يحيط بها . أذينة ! ما الذى يجعل كل شيء يذكرها به ؟ ألم تخلاه من قلبها وتغنى آثار حبه القديم ؟ ما بال صورته تعود إليها كأنه لم يغيب عنها إلا في رحلة من رحلات صيده ؟ وما بالها تحس قلبها يخفق كأنها تترقب يوم عودته إلى تدمر لترتمى على صدره وتبكي ، وتطلب منه العفو عن جحودها ؟ أف لهذه الزعازع التى تثور بها على غير انتظار ! .

فرجعت إلى نفسها فجعلت تجاهدها ، ولم ترد أن تسترسل

في هذه الهواجس ، وهزت هذه الذكريات في عنف حتى
أبعدتها وأسكت ثورتها ؛ وعادت مع معلمها إلى تدمر ،
ولكنها لم تعد خفيفة نشيطة كما كانت تؤمل أن تعود ؛ ولما صارت
في القصر وجدت رسولا من أذينة ينبئها أن حربه في الشام قد
انتهت إلى نهايتها ، وأن (بالستا) قد أسلم له بعد انهزامه ، وأنه
أمر بقتله وأصبح بذلك عند جالينوس حامي حى دولة الروم
وعضدها الأيمن ، وأنه ذهب بعد ذلك إلى جزيرة آسيا الصغرى
لمساعدة الامبراطور في حرب جديدة مع همج القوط ، فقد وهب
له الامبراطور إقليم يثنيا ثمناً لمساعدته إذا هو لى النداء .

ما هذه المصادفات العجيبة التى تجتمع لها بين حين وحين
لكى تزعرها وتعيد إليها شجونها ؟ ما بال أذينة يتمثل لها كلما
طلع أمام ناظرها مشهد من الحسن ؟ وما بال اسمه يرن في أذنيها
ويسلك برغمها إلى مداخل قلبها الحائر ؟

وعند ما أصرت زنوبيا بأن تعلن البشائر في تدمر وأن يقيم
لها الناس في مدينتهم العظيمة ما هى جديرة به من الاحتفال
ومظاهر البهجة ، نسيت حنقها وقسوتها وعادت صورة زوجها
تهز نياط قلبها .

ومضى أسبوع كامل والمدينة متألثة في طربها راقصة في
غنائها مسرفة في لهوها وتبرجها .

وشاركت زنوبيا في ذلك العيد الشامل ، فأقامت لأهل تدمر

احتفالاً في المنتدى الأعظم بقى أيام الأسبوع المريح كلها ،
 واجتمع فيه الفرسان والمتصارعون والممثلون والمضحكون ،
 فمرضوا ما عندهم من فنون على ألوف وألوف من أهل المدينة ،
 وقد أرخوا لأنفسهم العنان وانبعثوا يضحجون ويتعابثون في
 مقاهدهم الحجرية المزخمة حول ميدان المنتدى الفسيح . ثم
 سارت في اليوم السابع بموكبها الرائع إلى حرم تدمر الأعظم في
 معبد شمس — بعل ، فأقامت فيه الصلاة في زحمة من الحجاج
 الذين أتوا من فجاج الصحراء ليشاركوا المدينة في عيدها .

وكان قصر الملك آية الإبداع في زينته وأضوائه وولائه
 وأسماؤه ، وأعدت الملكة فيه احتفالاً بعد أن مضى الأسبوع ،
 جعلته لخاصتها وأكابر قومها وضيوفها ، ولما أقبل الليل جلست
 في مجلس شامل للسمر والشراب ، وقامت هي على إعداد الايوان
 وتجميله ، فلم تترك فيه ركناً لم تخلع عليه البهجة ، ولم تبق فيه
 تمثالاً من تماثيل الآلهة لم تنفث فيه الحياة ، وكان أكبر احتفالها
 بتجميل تماثيل جدتها كليوباترة ، فجعلتها في صدر الايوان في حلة
 أرجوانية ، وزينتها بحلى من الذهب والجوهر ، حتى كان القادم
 على الايوان يحسب أنه مقبل على الملكة العظيمة وهي في ثوب
 الحياة لكي يؤدي لها ولاءه وإعجابه وإجلاله .

وكانت زنوبيا في تلك الليلة فاتنة الحسن بادية الحماسة ، حتى
 لقد عجبت من نفسها كيف امتلأت بذلك الطرب الشائع بعد أن

ظنت أنها قد نسيت ، وعجبت من قلبها كيف خف وخفق بعد أن حسبت أنها قد ملكته ! لقد لحت من نفسها أنها لم تزل تنطوى على المرأة وإن خيل إليها أن المرأة قد فارقتها .

ولما كمل عقد المجلس وازدانت أرائكه بكل حلة براقة وكل حلية ذهبية مجوهرية ، دارت فيه الكؤوس على الجمع ، بين بلورية وفضية وعسجدية ، ودار الحديث ودبت فيه الحياة بين فكاهة حلوة وقصة طريفة ومختارة ومناقشة هادئة مهذبة .

وكان الأب بولس السمسطائي يجلس عن يمين الملكة ، وكان لونيخين الحكيم عن يسارها لا تفوته لفظة من لفتاتها ولا لفظة من ألفاظها ، ولا سيما إذا اتجهت بالحديث إلى الأسقف المسيحي . وكان القلق يمتريه كلما سمعه يتحدث عن مذهبه في الدين . أريد هذا الأسقف أن يفتن الملكة ويحولها عن دين هو مير ؟

وجرى الحديث في شجونه ، من دعاية إلى قصص ، ومن شعر إلى حكمة ، ومن بحث في الدين المسيحي إلى طرف من أدب الوثنية . وانساب عذبا هادئا حتى كاد يغمض الليل . ثم قامت زنوبيا مؤذنة بالانصراف وحيث أصحابها وضيوفاها ، وخرجت ذاهبة إلى مخدعها ، وخرج لونيخين وراءها ذاهبا إلى منزله في القصر . ولما أرادت أن تلقى إليه تحية الوداع قالت له :

— ألم ترأيها السيد المبجل كيف لم يأت معن ؟ إنه لم يشهد

حفلة من حفلات هذا النصر .

فأطرق الفيلسوف وهو يجيب :

— إنه ليس في تدمر يا مولاتي .

وكان الملكة قد مست جرة عند ذلك ، فانتفضت قائلة :

— ومن أعلمك بهذا يا لونيخين ؟

فعجب لونيخين من فزع الملكة وقال في صوت خافت :

— سمعته في السوق منذ أيام من صديق .

فنظرت إليه الملكة في شيء من الغيظ ، ثم ملكت نفسها

وألقت إليه تحية قصيرة ، ودخلت إلى مخدعها وأسلمت نفسها

لجموع من المخاوف .

أين مضى معن ؟ وما الذي حمله على الخروج من تدمر

خفية ؟ إنه لم يذهب مع أذينة إلى الحرب ، إذ كان يعاني ألم المرض

الذي ألم به وهو في سجنه . ولما أبل من مرضه لم يسرع إلى

اللاحاق بعمه ليشاركه في حربه . أ يكون قد ذهب إليه ليقطع عن

نفسه لوم التخلف عن القتال ؟ ولكنه لم يأت إليها ليستأذنها

ويودعها ، وهو يعرف أنها كانت تحبه كأحد أبنائها .

ولم تستطع صورة معن أن تفارق ذهنها تلك الليلة ، وكانت

تراه في الرؤى المتقطعة يتخلل أحلامها حتى رآته في أحدها يحمل

على أذينة ضاحكاً مهدداً . فهبت مذعورة ولم تستطع بعد أن تجدد

إلى النوم سبيلاً .

برء العاصفة

ذهبت زنوبيا في أصيل يوم من أيام ذلك الربيع الساحر
لترى حلبة الرهان في منتدى تدمر . وكان الشعب يحيي موكبها
بحيته التي اعتادها — تلك التحية التي كانت الملكة تجد
فيها سلام روحها . أليس ذلك الولاء جزية ما قدمت لتدمر
من برها وحكمتها .

وخرجت خيول الملكة لتباري الجياد المختارة يركبها فتيان
الفرسان الذين اختارهم حسان ليرفعوا لواء زنوبيا في ذلك اليوم
المنظر . وركب حسان في أول شوط على الشهباء ابنة الظالم
التي كانت تشبهه في جماله ورشاقته وسرعته . وجاست زنوبيا
وإلى جانبها وصيفتها ليس تنظر إلى الميدان في اهتمام وقلق ،
فالت إليها تحدثها :

— هذه أول مرة تجرب فيها الشهباء ، إنها مهرة لم تبلغ
الثالثة يا ليس ، وما كان أحراها أن تدرب قبل سيرها للرهان .
فقال لها ليس باسمه :

— ولكنك يا مولاتي تظهرين القلق من أجل هذا السباق .
فقال زنوبيا وهي تتنفس :

— اعجبي ما شئت يا ابنتي . ما أشقى من يحكم الناس
يا لميس ! فحياته أبداً قلقه .

وصمتت لحظة ثم قالت في جد :

— ما ينبغي لأحد في تدمر أن يسبق بجواده جيادى :
وكان السباق عند ذلك قد بدأ وانطلقت الشهباء في صدر
الجياد كأنها غزالة جافلة ؛ وما توسطت دائرة المتدى حتى خلفت
وراءها جمع الخيل ، وعدت وحيدة حتى بلغت مدى السباق ،
ولا تزال الجياد تتدافع بعيدة عنها في أقصى الحلبة ينافس بعضها
بعضاً على مكان المصلى . فارتفعت في الميدان ضجة عالية تحيي
الملكة وتهتف باسم حسان ؛ وأقبل حسان محمر الوجه ، فركم
تحت مقصورة الملكة وقلبه يخفق زهواً وسعادة ، ونظر إلى
لميس وهى إلى جانب مولاتها ، فتبسم لها وأحنى رأسه وعاد
إلى الحلبة ليتلقى تحية الفرسان

وجلست الملكة تحدث وصيفتها في صفات الخيل ، ومجادلها
في حماسة عما تتوقع سبقه منها ؛ وجرت الخيول دورة بعد دورة ،
وخرجت منها جياد الملكة سابقة ، لم يتخلف واحد منها إلى
مكان المصلى . وكانت زنوبيا كلما سمعت هتاف شعبها تحس الدماء
تتدفق في قلبها فتملؤه بنشوة السعادة ؛ ولكنها كانت بين حين
وآخر تتلفت حولها كأنها تبحث عن وجه بين الوجوه ، ثم
لا تلبث أن تعود فتتجه بعينها إلى الميدان ساهمة ، وتغيب

حيناً في صمتها . فقد كانت تسنح في ذهنها لمحات سريعة تبدو أحياناً في ثناياها صورة أذينة كأنه مقبل إلى صدر الحليبة ؛ وتبدو فيها أحياناً صورة معن الذي خرج من تدمر خفية بغير علمها . وكانت عند ذلك تتحرك حركة قلق ، ثم تشلفت مسرعة ، وترسل عينها إلى الخيول تتابع حركتها وتتأمل في محاسن أعضائها ، لتصرف ذهنها عن هذه الصور التي تثب إلى خيالها فتفسد عليها سعادة ذلك اليوم الآخر .

ولكن ذلك اليوم لم ينته بغير أن تعكر صفوه هنة . فان حسناً أراد أن يجعل ختام السباق من نصيبه ، كما كانت له بدايته ، فاختار الجواد الأدهم الذي كانت الملكة تحبه وتقيم به ، وأمل أن يجعل من سبقه آية جديدة على سعد الملكة العظيمة ، فساقه إلى صف الخيول المنتظرة وهو يمسح عنقه ويمر بيده متحجباً على ظهره ؛ وكان الجواد قد أحس بتحية صاحبه فعطف عليه برأسه ، وجعل يتمسح بكتفه وهو يضرب بذنبه ويصهل صهيلاً مرحاً . ولما أذن بالتسابق اندفع الأدهم كأنه سهم لا تكاد أقدامه تمس حصباء الأرض ؛ ولكنه ما كاد يبلغ ربع الدائرة حتى كبا وكاد حسان يقع عنه ، لولا خفة حركته وثبات نفسه . وتدارك الجواد كبوته وقام سريعاً وصاح به حسان فنفض عرقه واندفع كأنه يريد ألا يضيع شوطه على فارسه ، ولكن الخيول كانت قد لحقت به وخلفته وراء ظهرها ، فما زال يجاهد حتى دخل

بينها وجعل ينافسها لكي يصل سابقاً ؛ وفيما هو كذلك زاحم الجواد السابق الذي كان إلى جواره فاضطرب فارسه وتزعزع حتى لم يصل إلى النهاية إلا ثانياً في أعقاب الأدهم ؛ فغضب الفارس لذلك وأقبل على حسان فصاح في وجهه ، وجعل ينازعه في حنق ؛ ولم يملك حسان نفسه ، فلطمه ، وتعالى بينهما الخصام والسباب حتى تدخل بينهما رفقاء الحلبة فحجزوا بينهما ؛ ولكن أصوات الجدال بلغت مسمع الملكة وهي في مقصورتها ، فالتقبض قلبها ، وتشاءت بما كان .

وكان أقسى ما سمعته وقعاً على مسممها سباب الفتى لحسان بأنه مسيحي . فمن ذا الذي علم فتیان تدمر أن يجعلوا من سبابهم وصف الدين ؟ لقد كانت رومة تعرف ذلك والاسكندرية وأنطاكية ، ولكن تدمر لم تعرف من قبل ذلك السباب .

ولم تترك الملكة لنفسها العنان لتذهب مع الأوهام من أجل مشاحنة أثارها الحرص على السبق . ولم تقف لتزعج نفسها بتوكيد خطورة السباب الذي سمعته ، فإنها لم تكن سوى لفظه تافهة هتف بها الفتى المحنق وهو في غيظه . وإن الشباب ليس من طبعه أن يحجب الغل في أعماق القلوب لكي تتم عنه فلتات اللسان . ولما عادت إلى القصر لم تكن بادية النشاط وإن كانت تحاول أن تتكاف مظاهر المرح والحماسة . وفاضت على من حولها من مالها ومن عطفها ، ولكنها لم تجد في قلبها طرباً

تنفق منه ، ثم ودعت أصحابها ودخلت إلى مخدعها بعد أن أذنت
للميس أن تذهب إلى دارها لتمهد مأوى زوجها الحبيب إذا عاد
إليها بعد فراغه من أداء واجبه .

وقالت لها تداعبها بقلب ثقيل :

— أحسنى العناية بحسان يا لميس . فخب الرجل لا يبقى
للمرأة إلا بدوام مودتها .

ثم تنفست وقالت :

— الرجال كالخيل يا لميس لا فرق بينهما . كلاهما يسبق مع
حسن الرعاية .

وعادت لميس إلى دارها ولكنها كانت تحبس حزناً غامضاً
شديداً ؛ فما ذلك الذي ثار بين زوجها وبين ذلك الفتى الوثني ؟
لقد قضت تدمر أعواماً كانت فيها موئل من يخاف الاضطهاد من
أتباع المسيح . ألم يحملها أذينة إلى تدمر ليظلمها تحت جناحه ؟
ألم يأت حسان خائفاً طريداً ليلتمس الحياة بها في جيش أذينة ؟
أليس مجلس القصر يتسع للراهب فليس ويفسح صدره للأسقف
بولس ؟ فما الذي علم التدمري أن يتشاحن بوصف الدين ؟

لقد حمل إليها حسان منذ أيام أن الناس يتحدثون في
مجالسهم عن الملكة ويقولون همساً إنها قد صبت ، وإنها قد
آثرت دين المسيح على دين الآباء . ألم تظلل لميس المسيحية
في قصرها وتهبها للمسيحي حسان ؟ ألم تؤثر حسناً على أكبر

أمراء العرب عمرو بن أسيد السليحي ؟ ألم يجعله بعد ذلك قائداً
لحامية المدينة وأقرب أمراء الجند إليها ؟ . وقالوا إنها تدعو
بولص السمسطائي من أنطاكية وتفسح له صدر مجالسها لتتخذ
داعية لدينها الجديد ، وهي تنتهز غيبة زوجها في حروبه لكي
تھمل الناس على عقيدتها الغريبة وتقهروهم على ترك الآلهة القديمة .
أتكون مشاحنة اليوم تنفيساً عن هذه الهمسات الخفية ؟ وماذا
يكون شأن حسان المسيحي وهو قائد الحامية في مدينة ليس
فيها من أتباع المسيح إلا قبيل يسير ؟ ألا يكون في تدبر من
يتدسس بين الناس ليحملهم على الوثوب ؟ لقد أخبرها حسان
في بعض ما أفضى إليها به أن جماعة من الحيرة قدموا يتظاهرون
بالتجارة ، وأنه قد سمع أن الضحيان كاهن تدبر الهارب قد عاد
إليها في خفية يتنقل في الأحياء ولا يعلم أحد سر مكانه .
جلست ليس في دارها المشرفة على الصحراء في الليل الممطر
تنتظر عودة حسان وهي تردد هذه الأسئلة والحزن الغامض يزيد
في ذهنها وضوحاً ويشتد قوة . ليت حسانا يسرع بالعودة ليهدي
خفقان قلبها المضطرب . إنه قال لها في الصباح بعد الصلاة :
« أي ليس ! إن حب الأرض يزول ، ولكن حب الروح باق
مع الأزل » .

فما الذي أنطقه بهذا القول وهو يناجيها بحديث الهوى ؟
وكان جسمه يختلج وهو يضمها قائلاً : « قد تمر الحياة بعد حين

قصير أو بعد حين طويل ، ولكن محبة الأرواح تبقى خالدة آخر الدهر » أ يكون قلبه المؤمن قد نطق بما خبأه القدر ؟ . إنه قد أبطأ في العودة والليل يكاد ينتصف !

ونظرت إلى أشباح الليل تتراقص عند الأفق في ضوء البدر الغامض ، وظهرت أمام عينيها الأبراج العالية المزخرفة التي اعتاد أعيان تدمر أن يقيموها في ظاهى المدينة ، لتكون لهم مقابر خالدة ، وسطع القمر على تمثالى سودة بن تيم شمس ، وهما قائمان فى أعلى البرج ، فطهرا كأنهما حارسان يرقبان مدخل المدينة ؛ وسبحت فى خيالها تتأمل تلك المصور الماضية ، التي تخلفت منها هذه المقابر السامقة . وأخذت تسائل نفسها عن كنه هذه الحياة .

لقد عاش سودة الذى لا يزال اسمه باقياً فى تمثاليه ، وكان مثل حسان بطلاً بإسلا أبلى فى الحروب ، وخدم قومه فى السلام . ثم مضى ولم يبق منه إلا اسمه ، وهذان التمثالان القائمان وحدهما يشرفان على فدادن الصحراء . أ كان قديساً مثل حسان ؟ وهل كانت له زوجة تحبه ، وتجلس فى انتظاره ، وقلبها يختلج كلما ذكرته ؟ إن التمثال لا يتحرك ، ولا يستطيع أن يتحدث إليها هن سودة الذى كان يشبهه . لا بل إن التمثال يتحرك تحت ضوء القمر الخافت ، وكان يتحدث قائلاً : « لقد عاش سودة ثم قتل وكان مجيداً » . إنه لم يقتل فى حب المسيح كما يقتل الشهداء ،

ولكن أى فرق بين أن يقتل شهيداً ، وأن يقتل فى بعض تلك الحروب التى تشور ؟ ما أفقر الحياة إذا هى خلت من الزوج الحبيب ! ولا عزاء للقلب إذا كان الزوج يقتل فى حب المسيح ! ولكن حسناً أبطأ فى العودة وطالت غيبته .

أتكون زنوبيا قد أمرته أن يذهب فى وجه من الوجوه ؟ أم تكون أمرته أن يبعث رسولا إلى أذينة ، أو أن يستقبل وفداً أتى إلى تدمر من بعض الملوك ؟ أو لعله ذهب للقاء قافلة جاءت تحمل ثمين الطرف ، ويفسح لها فى الفندق مكاناً ، ويعد لأموالها حراساً .

ولكن الليل قد انتصف ومال القمر إلى الغروب ولم يعد حسان . فقامت ليس فى قلق تسير فى حجر البيت وهى تأثره الأشجان . لم كان حسان فى كل الأمور فى وجه الأخطار يتعرض لها على حين يبقى ذلك الوثنى لونيحى إلى جانب الملكة يحدسها فى أمن ودعة ؟

وتعالت عند ذلك أصوات مبهمة ، أو خيل إلى ليس أنها تسمعها . فزادت قلقاً وأرهفت أذنها لى تتبينها . فكانت الأصوات تعلو فى حين ثم تحبو بعد حين ، آتية من بعيد يحملها الهواء إذا رها ويحجبها إذا هب . فزاد قلقها حتى لم تستطع صبراً ، فقامت بسرعة ونزلت من بيتها إلى الطريق الخالية ذاهبة إلى القصر لعلها تجد هناك خبراً عن حسان .

ودخلت إلى القصر مسرعة تقول في نفسها إن الملكة لا بد أن تكون قد أوت إلى مخدعها قريرة العين في حين تبقى هي تتقلى في انتظارها ، وزوجها لم يعد وقد مضى نصف الليل .
ودخلت إلى البهو تتلفت ، ثم وقفت فجأة ورفعت يديها إلى خديها وكادت تصرخ . إن الملكة لا تزال جالسة إلى جانب لونجين وعليها علام الوجوم والتحير .
فنظرت الملكة إليها وهي داخلة وكأنما قد كرهت مقدمها ، فتعجرت في قلق وقالت لها :

— لم يعد حسان إليك يا لميس ؟

فمالكت الفتاة نفسها بعض شيء وحاولت أن تجيب ، ولكنها لم تجد قولاً . لا شك أن الملكة تعلم أنها قد جاءت تستخبر عن حسان .
فقالت الملكة لها :

— تعالى يا لميس . لا بأس عليه إنه في بعض شأنه ولا يلبث أن يعود .

ولكن نظرتها وحركة أناملها في منديلها ورنه صوتها كانت ثم عن جزع وارتباك .

فاقتربت لميس إلى الملكة مترددة بهم أن تسأل ، ويغالبها ما تعودته من طاعة وإجلال ؛ فنظرت نحوها زنوبيا لحظة ترقب حركاتها وتعامل ما بدا على وجهها ، وأحست عند ذلك عطفاً

عليها يشبه ما كانت تحسه نحوها إذ تناجيها في وحشتها ، وقالت لها بصوت رخم وهي تتكاف المرح :

— مالى أراك مضطربة يا فتاتى ؟ أمن أجل تأخر حسان عنك ساعة تهزين كذلك وتبتئسين ؟

وكانها أرادت أن تهون الأمر على الفتاة بنهكها .

فأغضت الفتاة في خجل ، ووقفت مرتبكة لا تدري

ما تصنع ولا بأى شيء نجيب ، فاستمرت الملكة قائلة :

— لقد جئت يا لميس إذ احتجت إلى وجودك بجانبى .

ثم نهضت ووضعت يدها على كتف الفتاة وسارت نحو مخدعها تحدثها قائلة :

— إننى الليلة أحس فى صدرى وحشة ، ولم يستطع لولجى

أن يذهبها عنى بحدِيثه — تعالى فحدثينى كما كنت تفعلين ، وأعيدى إلى قلبى الدفء من إيمانك .

ودخلت إلى مخدعها والفتاة فى أثرها مرتبكة مطارقة تسير

بقلب ثقيل وهى تعيد قول الملكة : « أعيدى إلى قلبى الدفء من

إيمانك » . إن الملكة لا تلجأ إلى الإيمان إلا فى كربها .

وما كادت الملكة تستقر على أريكته حتى سمعت صوتاً

يتعالى فى فناء القصر تقطعه صيحات مكتومة . فأصاحت إليه

برهة ، ثم قامت وفتحت عينها وهى تقول فى ذعر :

— أما تسمعين يا لميس ؟

وكانت الفتاة عند ذلك قد أسرعت إلى نافذة المخدع ، وجالت بعينيهما في أنحاء البستان على ضوء القمر المائل إلى الغروب ، وما لبثت أن ارتدت إلى الوراء ، ورفعت يديها إلى عينيهما وقالت بصوت مختمق :

— إنهم يحملون رجلا .

وأسرفت خارجة وهي تقول :

— إلهي من ذا يكون ؟

وذهبت زنوبيا إلى النافذة في هلع ، ولما وقع بصرها على

الصريع المحمول ، قالت في همس وهي يائسة :

— ويلاه لو يكون هو ! وويل للمسكينة لو يكون !

وكان الفزع قيدها ، فلم تتحرك من موضعها حتى علا من

فناء القصر في سكون الليل صوت ليس :

— واحساناه !

فارتدت زنوبيا إلى الوراء ، ووضعت يدها على جبينها

وأغمضت عينيهما ؛ ثم سارت تتطوح حتى ارتمت على أريكة

وأسلمت نفسها للخيال المذعور .

الطريق إلى

استمعت زنوبيا إلى رسلها وهم يحدثونها حديث ما جرى في
تدمر في المساء : ثورة مندلعة وفتنة جامحة ، تدمر وتفتك ،
والضحايا ذلك السكاهن الخائن الذي هرب من تدمر في خيانتته
الأولى قد عاد إلى المدينة يقود الجموع ويهدم الكنائس ومعه جمع
كثيف من جنود الحيرة يصل في الطرق ، وقد اختلط به
أعوان من الأوباش ، والحامية لا تقدر على شيء من الدفاع .
وكانت وهي تسمع ذلك الحديث مأخوذة كأنها تشهد منظراً
في حلم أو تسمع قصة من خلق الخيال . أهكذا تتغير تدمر بين
صباح ومساء ؟ أهؤلاء هم أهل تدمر الذين كانوا في الأصيل
يحيونها ويظهرون لها الولاء ؟ . أيدعونها الملكة الصابئة
وينادون لها بالويل والهلاك ؟

لقد كانت إذ أتسير على الجمر ، وتطأ فوق شفير جرف لا قرار له .
ثم حملت جثة حسان إلى البهو ، وأقبلت ليس بأكية تئن مع
أنفاسها في صمت ويأس . وأكبت على حبيبها القليل تسوى عليه
غطاءه في رفق وحنان وهي تنشج في البكاء ، فلم تملك الملكة
عينها ، وأرسلت دمعها مُفحمة .

وكان لونيحين واقفاً في ركن البهو واضعاً يده مقبوضة تحت

لحيته ينظر إلى ما حوله من ظاهر ومن داخل ، وهو كئيب ،
ورأى الملكة قد غرقت في جزعها فلم تتحرك لتدبر الأمر الذى
طلع عليها فجأة فأذهلها . فتقدم نحوها وناداها فى صوت حزين :
— مولاتى !

فنظرت إليه الملكة فآثرة حائرة ولم تجب . فقال لها :
— ترفقى بنفسك فالأمر فى حاجة إلى تدبيرك .

فقلت زنوبيا وهى تحرك رأسها فى يأس :
— وماذا بقى للتدبير يا لونجين ؟

فقال لونجين فى هدوء :

— لقد وقفت يامولاتى من قبل فى مواقف أشد خطراً
ثم انتصرت .

فقلت الملكة فى فتور :

— كان ذلك يا لونجين ، ولم أجرب بعدُ الحياة ، وكان قلبى
عامراً . وأما اليوم فإن قلبى يا لونجين ثقيل .

ثم سارت خارجة من البهو ، وقصدت نحو فناء القصر
ولونجين يسير فى أثرها خاشعاً . ومشى حيناً فى تودة فى منافذ
الحديقة وقالت بعد صمت طويل وهى تملأ صدرها من الهواء :

— أحس الأرض ضيقة يا صديقى . وأشعر ببرد اليأس
يدب إلى قلبى .

وسمعت عند ذلك ضجة حملها الهواء من أطراف المدينة مع

هباته ، وهى تقترب وتعلو وتزيد وضوحاً . ورأت حركة فى حراس القصر ، وسمعت نداءهم إذ يتنادون ، فأسرعت ذاهبة نحو الباب الأعظم ، وما كادت تبلغه حتى رأت خيلاً مسرعة تقبل نحوه ، وتدخل منه مندفعة ، ومن ورائها ضخمة مفزعة من صليل السلاح ، ووقع حوافر الخيول . فأنحازت إلى جانب خوف أن يحطمها التيار القوى المتراحم عند الباب . ووقفت تنظر فى هلع إلى حامية المدينة ، وهى تتدفق إلى القصر منهزمة تدخل فالولا فى جماعات متفرقة لم تخل إحداها من جريح ، أو من صريع محمول . لقد صرقت تدمر مكيدة بارعة دكت أساسها فجأة بتدبير محكم جرى فى ستر الخفاء . وعرف سابور أخيراً كيف يهتدى إلى مقاتل عدوه الذى أذله . وتوافدت الرسل على القصر تحمل إليه أن جنود ملك الحيرة بجوس خلال المدينة تقتفى أثر الحامية المهزومة ، وتفتك بالناس فى قسوة العدو المحقق الذى جاء للانتقام . فأصرّت الملكة بإقفال أبواب القصر قبل أن تدخل إليه الفلول الأخيرة من الحامية المنحدرة ، خوف أن يقتحمها العدو ويقضى على البقية التى بقيت من كرامة تدمر .

لم تكن إذآ تدمر نائرة ، ولكنها كانت تعاني مكيدة حرب طاحنة ، وكان الكاهن الضحيان فيها ظليمة الخيانة مرة أخرى يهد لجيوش الأعداء ، وعادت زنوبيا فى يأس ذاهبة نحو القصر لا تدرى من هول المفاجأة فى أى وجه تسير .

ونظر لونيحين إليها وهي مطرقة في سيرها ، ورأى اليأس
المرتسم على وجهها ، وأحس أول مرة أن ملكة تدمر قد أذهلها
الذعر ، وملك عليها عقلها . وكأنه أراد أن يزيل ذلك اليأس
عنها فقال لها في هدوء :

— تشجى يامليكة تدمر . تشجى يا ابنة كليوباتره . لقد
وقفت في مواقف أشد من هذا خطراً وهولاً .

فنظرت إليه وقد امتزج على وجهها الحنق واليأس وقالت :
— ابنة كليوباتره ! إنك تذكري بالدواء الذى أعدته لمثل
هذا اليوم .

ونظرت عند ذلك إلى خاتم ذهبى فى إصبعها ، ثم هزت
رأسها فى جزع وقالت وهي تصعد درج القصر قاترة :

— ولكنى لا أقوى . أو اه ! إننى لا أقوى . كانت كليوباتره
إلهة يالونجين . أما أنا فأنى لا أقوى أن أصافح الموت وأستقبله باسمه .
ودخلت إلى البهو فارتعت على أريكة وهي خائفة ، وقالت
تخاطب لونيحين :

— لم يبق إلا أن نصبر على الدفاع يالونجين ، نصبر أياماً أو
أسابيع ، ثم نسلم أنفسنا لنكون عبيداً لعبد سابور . أو اه ! ليتنى
أستطيع أن أصافح الموت يالونجين .

ونظرت مرة ثانية إلى خاتمها فى فتور ، وهزت رأسها ، ثم
وضعت رأسها بين كفيها .

فقال لونيحين في عطف حزين :

— سندافع حتى يعود الملك يا مولاتي . ان يبطل أذينة
عن تدمر متى بلغته الأنباء .

فرفعت الملكة رأسها وقالت وهي تفص بريقها :

— من مبلغ أذينة ما نحن فيه ؟

وهزت رأسها ، وعادت إلى إطراقها وهي تقول :

— سوف تحمل إليه أخبارنا بعد أن يكون العدو قد
حرقنا وحطمنا .

ثم رفعت رأسها فجأة وقالت تخاطب لونيحين في لهفة :

— لونيحين ! إنني لا أستطيع أن أبقى ههنا ساكنة ،
ومدت يدها إليه كأنها تتوسل .

فاقترب لونيحين منها وقال :

— وإلى أين يا مولاتي ؟

فقالت وهي تهتز في عنف :

— أذهب من هنا ، أهيئ على وجهي في الصحراء ، أقصد
إليه حيث يكون ، أذهب إلى أذينة لألتجئ إليه ، فاني أشعر
بالخوف يغمرنى . أشعر بالخوف يجتاحني .

وقامت عند ذلك في ذعر وهي تمد يدها نحو معلميها في توسل .

فأسرع الفيلسوف نحطف يدها في لهفة وقبلها ، ثم أرسلها

ونظر إليها كأنه يستغفر من جرأته وقال :

— إن دى فداءك يا مولاتى .

فقات وهى تشير إلى ظهر القصر :

— من هنا نستطيع أن نخرج من المدينة . ولن يشعر أحد
بغيا بنا إذا خرجنا الساعة .

فنظر إليها الرجل مبهوراً وقال فى تردد :

— ولكن . . .

فقات وكأنها لم تسمع صراجه : :

— تستطيع الهجائن أن تحملنا إلى سمى فى مساء الغد .

إنها هجائن مختارة ، تقيم هناك فى آخر السرب المنحوت فى
الصخور ، قد أعدت لمثل هذا اليوم يا لونيحين . أتستطيع الركوب ؟
فقال لونيحين فى حماسة :

— صرنى بما شئت يا مولاتى . سأجد معك القوة

والقدرة . ولكن . . .

فأشارت إليه بالصمت ، ثم أخذت بيده وخرجت من
الهبو مسرعة حتى بلغت ظهر القصر ، وعمدت إلى ركن مهجور
هناك به كومة من الحجارة ، فأقبلت عليها وجعلت ترحزها ؛
وأقبل معها لونيحين يساعدها ، حتى زالت وظهر وراءها باب من
الحجر الثقيل فى جانب منه يد طويلة من الحديد ، فحركت زنوبيا
اليده ، فدار الباب على نفسه وانفتح ، وبدأ من وراءه مدخل
سرب خفى ، فدخلت فيه الملكة وتبعها لونيحين ثم أغلقته خلفها

وأخذت بيد معلمها تقوده ، وسارت تتحسس الطريق حتى بلغت نهاية السرب ، فلاح ضوء القمر الخافت من ثغرة ضيقة . فزحفت الملكة حتى خرجت منها ولونجين يجاهد في أثرها فإذا هما بعد قليل على ربوة عالية والفضاء الفسيح يمتد تحتهما يخيم عليه السكون .

فسارت زنوبيا تهبط من الصخر في حذر ، وتبعها الفيلسوف في دهشة من أن تكون هذه الربوة الوعرة مدخلا إلى القصر المنيف . وبعد جهد جهيد نزلا إلى الوادي المجاور ، فسارت فيه الملكة حتى دخلت في شعب ضيق ، وعرجت على بناء طلع عليهما كأنه من مساكن الجان في عالم مجهول .

وكان لونجين غارقاً في عجبه يسائل نفسه أهو في حلم أم أنه حقا يشارك الملكة في سر غريب .

وطرقت زنوبيا باب البناء فأجاب بعد حين من داخله صوت . فنطقت بلفظين فانفتح الباب ووقف فيه شيخ بدوي في سلاحه ، فحيته الملكة ساكنة وقالت له :

— أعد ياسعدان ثلاث هجائن ، وكن ثالثنا إلى سفر قريب فحيا الشيخ في خشوع ، وذهب بغير أن ينطق كلمة .

ودخلت الملكة مع لونجين إلى مجلس خشن ، فجلسا صامتين حتى عاد الشيخ يقود هجائنه ، ثم ركبا وسارا الركب الضئيل يضرب في جوف الصحراء .

وكانت الملكة صامته وهواء الليل البليل يهب على جبينها

فيمحمد فيه الحر الذي ألهبه الجهد واضطراب الشجون . وانطلقت
الهجان فوق الدفادف كأنها تسبح فوق الهواء ، وكان القمر قد غاب
وراء الكشبان ولفت الليل ظلمة لا تتنفس فيها إلا أشعة النجوم
الحالمة ، وأقبلت الهواجس تزدحم على زنوبيا وتضطرب في صدرها
الكسيف ؛ فهو لاء بنوها وبناتها قد غادرتهم في القصر لا تدرى
كيف يطلع عليهم الصباح . لقد أذهلها الفزع فانطلقت مع دفعته
ولم تقف لتفكر في شيء . أتكون قد زلت في الاسراع وأهملت
ما كان ينبغي لها أن تحرص عليه من البقاء إلى جانب الصبية
تواسيهم إذا اشتد عليهم الكرب ، وتقاسمهم القضاء إذا ما
حم القضاء ؟

ولكن ذلك المُلْك الذي كان بين يديها وديعة ، أكان
ينبغي لها أن تبقى فيه لتراه ينهار من تحت أقدامها ؟ لا بل لقد
أحسننت ، فلن يمضي إلا صباح ومساء حتى تقبل على زوجها
وتفضي إليه بما كان ثم تعود معه منصوراً لتفعل بهؤلاء الذين
روعوها وكادوا لها في غيبته . إنها بلا شك راجعة إلى القصر
قبل أن يقدر هؤلاء الخونة على أن ينالوا شيئاً من أبوابه وأبراجه .
وسيعود أذينة معها ولن يبقى في تدمر خوف إذا عاد . نعم
سيعود أذينة معها . فهو زوجها الذي لا يزال يملأ قلبها ، وإن
خيل إليها أنها قد نسيت وطوت ذكرياته في أعماق الأمس الغابر .
هو أذينة صاحبها وبطلها الذي أحبته وعبدته كما يعبد الناس

الآله . أف لهذه الغيرة التي تفسد قلب المرأة وتنسيها كل حبها
وتزيغ حكمها ! أمن أجل هذه الأسيرة التي عاد بها أذينة من
حرب فارس تشور وتمتليء غيظاً وحنقاً ؟ أف لهذه الذكرى ! أتفقد
أذينة من أجل شهناز ؟ ما أقبح ذلك الاسم ! وما كان أشأم
طلعة هذه الجارية ! إنه أخرجها معه عندما خرج إلى حرب في
الشام لتخدمه وتؤنسه ، وتركها هي في تدمر لتكون ربة الملك
وسيدة القصر . ما كان أشد ظلمه في هذه القسمة إذ لم يترك لها
إلا القصر والملك ! ولكنه ما زال أذينة زوجها وحاميها الذي
جحدته ، واستعود إليه وتطلب عفوه وحمايته . وحسبها عقاباً أنها
تضرب في كبد الصحراء في الليل هاربة إليه بعد أن تركها في تدمر
عزيرة قوية . لقد عرفت أنها لا تقدر على شيء بغير أذينة ، وأن
يدها الضعيفة لم تقدر على أن تمسك ذلك الملك ، فانفرط من بين
أصابعها الناعمة وتسرب كما تسرب الرمال .

بقيت زنوبيا في هذه الهواجس الحائقة حتى طلع الصباح ،
وعلت الشمس في كبد السماء وأفاضت على الأرض حرورها .
فالت بصاحبها إلى ظل صخرة في أحد الشعاب ، وقاسمتها
زاداً حمله سمدان معه في سفرة معلقة على رحله . ثم بللت شفيتها
من ركوة ماء وناولت لونجين منها جرعة ، واستأنفت السير ،
وعادت إلى نجوى هواجسها . ومضى النهار ومالت الشمس
للمغرب ، وبدت السحب على الأفق منبرجة في إطار زاهر اللون

عبقري ، ولاحت من دونها رؤوس أبنية شاهقة قدخلع الغروب
عليها ظلالاً ساحرة ، فأشارت زنوبيا إلى معلمها قائلة في فتور :
— تأمل حمص أيها السيد الحكيم . هكذا تبدو الآمال
الخالبة من بعيد . لو أنصف الناس ما التمسوا الحقيقة ، ولقنعوا
بالخيال الخادع .

فالتفت لونيحين إلى المنظر الباهر الذي طلع أمام عينيه
وتمتم قائلاً :

— عفواً يامولاتي . ماغرر بهذا العالم سوى الخيال . لقد
وجدت الحقيقة دائماً أبهى منه وأروع !

ثم نظر إلى وجه الملكة الشاحب ، وبقي صامتاً يناجي صورتها
التي ظلت ماثلة في خياله في أثناء ذلك السفر الطويل .

وأقبل الليل قبل أن يبلغ الركب أسوار حمص ؛ فكان
لا بد لهم أن يقضوا الليلة في فضاء الصحراء . وأقبل سعدان
ولونيحين يقيمان الملكة خباءً ؛ ثم سار الشيخ البدوي بالهجان
حتى بعد ، وأناخها عند سفح كثيب ، ورقد إلى جوارها ،
وذهب في سبات عميق .

وكانت زنوبيا متعبة من أثر السفر ، وما عانت فيه من جهد
واضطراب ؛ ولكن الهموم لم تدع لها إقبالاً على النوم ، ولا
تفكيراً في الطعام ؛ فجلست تحدث لونيحين وتفضي إليه بهواجسها
التي لم تجد فرصة في أثناء السير للإفضاء بها .

وحاول لونيحين أن يسرى عنها ويبعث فيها الأمل من ترقب
لقاء زوجها ، فقال باسمًا :

— ليس بينك وبين الملك إلا أن يطلع الصباح . سيقبل
إليك إذا علم بمكانك كما يقبل النسر المقلهف إلى وكره في رؤوس
الصخور الوعرة .

فقات زنوبيا في زفرة حارة .

— أذينة ! أذينة ! تحدث عن أذينة وإن كان في حديثك
ما يدمى قلبي الجاحد الثائر .

وانتفض لونيحين عند سماع قول الملكة ، وعلا وجهه احمرار
شديد وفتح عينيه ناظرًا نظرة اعتذار وأسف .

فتبسمت الملكة ابتسامة مرة وقالت ناظرة إليه عاطفة :

— لا بأس عليك فيما تقول يا لونيحين ، حدثني عن أذينة
وإن تأملت من وقع حديثك ، فلست أجد في ألى إلا راحة
وسلامًا . حدثني عن أذينة فقد ظلمته وأنكرته ، وأغلقت قلبي
دونه في غيبته ، وكنت في كل ذلك جاحدة ظالمة . لم أفض إليك
بشيء مما كان في نفسي ، فقد كانت الثورة تهز قلبي في أعماق
أغواره ، وكانت كبريائي تقف دون الكشف عنها . لم أكشف
عن ثورة ذلك القلب الظالم لأحد ، حتى إليك أنت أيها
الصديق الكريم .

ثم أطرقت ووضعت يديها على عينيها ، وتركت دموعها تسيل .

فقال لونيحين في صوت خافت :

— مولاتى ! ترفقى بنفسك من هذا الوهم الكثيب .

فقالت زنوبيا وهى تجفف عينيها :

— بل هو الحق يطالعنى الساعة بعد أن غاب عنى دهرأ .

إنك لا تعلم يا لونيحين بسر هذا القلب الثائر الذى لا يزال
يشرد بى . أف من ذلك القلب ثم أف !

فقال لونيحين :

— إنك تحملين على نفسك يا مولاتى .

فقالت زنوبيا مسرعة :

— ما كان أشد غرارتى يا لونيحين . قد وهبى أذينة كل

ما يستطيع أن يهب الرجل إلى امرأة . أتذكر يا لونيحين إذ قلت

إن الرجل إذا أحب وهب لمن يحب قلبه وسخر له قسوته وبذل

له فنه ؟ . قد وهبى أذينة قلبه الباسل وسيفه الباتر وكرمه

الغمر ، وسخر لى قسوته ودفعته وعنف سطوته . وهبى كل

ما يملك فى الحياة ومن الحياة ؛ ولكنى لم أفكر إلا فى نفسى ،

وداخلتنى غيرة المرأة العمياء فى عبثة من عبثاته فنسيت كل

إحسانه ، وكل حبه ، وكل كرمه . نسيت حمايته وبسالته ووفاءه ،

ولم أكن إلا امرأة كسائر هؤلاء النساء . لم تحدثنى هذه النفس

الجاحدة بالعفو ، وذهبت مع الكبرياء حتى أنكرته ، ولم أدر أننى

أفرط فى أغلى ما أملك فى الحياة .

وعادت عند ذلك فوضعت رأسها على يديها واستخرطت في
البكاء . فقال لونجيين وفي صوته رنة اللوم :

— حسبك يا مولاتي ، وكفكفي هذه الدموع . سيطلع
الصباح وستلقين زوجك الباسل ، وستعودين معه إلى تدمر
منصورة . وتجدين كل من تحبين في عافية .

وكان كلمات لونجيين أدخلت بعض السلام إلى قلب الملكة
المضطرب ، فتنفست وجففت عينيها وقامت خارجة من خبائها
وقد وضعت عباءة فوق كتفيها وسارت في الصحراء تملأ
صدرها من هواء الليل ، وتتأمل النجوم اللامعة تتحدث حديث
الأبد ، وسار لونجيين إلى جانبها صامتاً ، فالتفت الملكة إليه وقالت :
— إنك لا تعرف الوحشة يا صديقي الأجل . إنك
تشبه الآلهة .

فابتسم لونجيين وقال وهو يتنفس :

— ليس بآله من له نفس يتردد .

فقالت الملكة :

— الآلهة وحدها لا تعرف هموم الإنسانية .

فقال لونجيين في حزن :

— لا يحس رهبة الظلام من وُلد أعمى .

فالتفت إليه الملكة وقالت :

— كلمات حزينة يا صديقي .

وكان القمر قد ظهر وعلا فوق الأفق الشرقى ، يعلأ الجو
بنور حزين ، فومضت لمعة على بعد في ضوءه الفاتر ، فوقفت زنوبيا
في مكانها تحترق الفضاء الأغيش بعينيهما الصافيتين ، ثم قالت
وهي تمسك بيد لونجين :

— أما ترى ؟

فقال لونجين متردداً :

— هي جماعة مقبلة من حمص . أترين أن نميل عن طريقهم ؟
فقالت الملكة :

— هذه حمص ، وما نحن إلا في الطريق إلى تدصر . فلن
يكون هؤلاء إلا أصدقاء .

وسارت نحو الركب القادم مسرعة وهي تقول :

— وأى خوف نخشى بعد ما نحن فيه ؟

وليمة حمص

كان الربيع الهادي يكسو مدينة حمص بجو وسمان صامت ،
وتجري نسائه الوديمة بين الغصون المتدلّية كأنها توشوش لها
بقصص ما انقضى من ليالى الشتاء الطويلة الباردة ، وتفضي إليها
بفلسفة الكون الخالد المتجدد وما يحتمل به على البشرية من
زخرف الحياة .

ووجد أذينة في جمال ذلك الربيع سراحاً يسكن فيه إلى
نفسه ، ويمتعتها بما حرّمه منه النضال المر في تلك السنوات ؛ فتلك
رياض حمص اليانعة ، وهذه سماؤها المزرجة . لكم تفنى الشعر
بنحمرها ، وكم تحدث المجان عن لحوها . وهذه شهناز امرأة سابور
التي سبأها ليزل عدوه المتكبر ، وأراد لها القضاء العجيب أن
تكون مالكة قلبه ، قد شغلته عنها شواغل الحرب ؛ ولكن
صورتها كانت تملأ نفسه غناءً كلما تمثلها ، وها هو ذا قد فرغ
من حربه وما أودع هذا الربيع في قلبها !

كانت هادئة مستسلمة . وهل للأسيرة إلا أن تستسلم
وتخضع ؟ ولكنها مع ذلك كانت تستسلم له في رغبة راضية .
كانت ترى نفسها جارية قذف بها القضاء إلى حيث لا تقدر على
الاختيار . ولكن ذلك القضاء قد اختار لها فكان بها رجياً .

كان لأذينة إذا شاء هوانها أن يهديها إلى أحد جنوده ليذهب بها إلى واديه في نجد أو اليمامة لترعى له شياهه ، وتحلب له نياقه . ولكنه حفظها لنفسه ، واختارها لصحبته ؛ فلهذا كانت في أسرها ناعمة شاكرة وإن كان الحزن يسرى في هديرها ، ويشع من نظراتها ، ويفيض في حديثها . وهل للأسيرة غير أن تحس أنها أسيرة ؟

ولكن أذينة العنيف وجد لها رقة منذ رآها ، ونسى حقه على سابور في وداعتها ، وملاؤه رحمة وعطفاً ، وصار همه أن يذهب عنها حزنها ويتوسل إلى مودتها .

كان كلما رآها ذكر إلى جانبها زنوبيا التي باعدته وأنكرته . لم تكن شهناز مثلها ، فانها لا تستطيع أن تخرج ممه لصيد الأسود ، ولا أن تصاحبه في معامع الحروب . كانت زنوبيا تريد وتغضب ، وترضى وتسخط ، وتحب وتكره ، ولها في كل شيء رأى وإرادة . وكانت إذا حدثته أحس بالعجز عن فهم حديثها ، وإذا سمعها تقرأ مع لونيخين في شعر هومير وفلسفة أفلاطون ، أحس بالشقة البعيدة التي تفصل بينها وبينه ؛ حتى في خلواتها بها كانت تقبل عليه أحياناً ، وتتأني عليه في أحيان . كان يعرف أنها تحبه ، ويرى من عينيها أنها تجله ؛ ولكنها لم تكن مع ذلك كله مثل شهناز ، فان تلك الجارية الفارسية تستسلم وتخضع وتعبد ، ولم تكن تبتسم متنازلة مثل زنوبيا إذا وجدته لم يدرك

أو لم يعرف ، بل إنها لم تكن تفكر فيما إذا كان قد أدرك أو عرف . كانت زنوبيا صديقة وناصحة ومرشدة ، وكانت في كل الأحوال له سيدة ؛ ولكن شهناز لا تستطيع شيئاً من ذلك كله ، بل كانت في كل الأحوال تراه لها سيداً .

فكانت ليالى ذلك الربيع التى قضّاها أذينة فى حصص أحلى متمعة له بعد حربته الفروس .

وكأنه أراد أن ينهب اللذة بعد طول حرمانه ، فكان له فى كل ليلة مجلس أنس وشراب ، يجتمع إليه فيه من قواده وأصحابه كل من أراد متمعة من خمر أو غناء . ولم يخش شيئاً من لوم أصحابه ، فقد خلف وراءه من كان يخشى رأيهم مثل زباع وزبدة ، تركهما فى بيثنيا ليدبرا أمر دفاعها ويقيما حامياتها ومسالحها . وبقي هو وحده مع شبان القواد والأمراء الذين كانوا يستبقون إلى اللذة إذا شاء . وأهدت حصص إلى تلك المجالس أروع ما كان فيها من ترف ، فكان يقضى فيها صدرأ من الليل ، ثم يأوى بعد ذلك إلى القصر الذى اختاره فى أرباض حصص ليم التمتع فى صحبة شهناز . وكانت حصص تبيع عجيجاً برحمة من فيها من جنود ووفود ؛ وجاء إليها فوق ذلك جماعات وفدت إليها من الأقطار ، بعضها نزل فيها من أجل تجارة ، وبعضها جاء يمر بها فى سيره إلى سواحل البحر أو مدن الشام ، ليقيم بها حيناً قبل أن يتابع السير فى سفره الطويل ؛ فامتلات بالقادمين الفنادق وازدحمت

بالمسافرين الطرق ، وتدفقت على المتاجر أجمال القوافل الآتية من
(الحيرة) ومن (دورة) ، فيها الخمر المعتقة والفاكهة والحريز
والمطور وسائر ما يمين على حياة النعيم .

وعزم أذينة يوماً على أن يولم لأصحابه وليلة شاملة يحتفل
فيها بنصره الباهر ؛ فمد في قصره الموائد الرومانية وزين الأبهاء
بتحف الذهب والفضة والتماثيل البديعة والطنافس الثمينة ،
فكانت الوليمة جديرة بسيد الشرق ومجده الشامخ .

واجتمع ضيوف الملك من فتيان القواد والأمرء ، ومن وجوه
التجار والأعيان ، بعضهم من أهل حمص وبعضهم من (دورة)
و (الحيرة) ومدائن الفرات ؛ وجاء فيمن جاء إلى تلك الوليمة ابن
أخيه معن . لقد كان مقدمه عجيباً ولم يعلم به أذينة إلا عندما لقيه
عفواً في يوم رهان الخيل . وأحس أذينة منه شيئاً من الجفاء
عندما اعتذر عن تخلفه في تدمر وإبطائه عن مشاركته في حروب
آسيا الصغرى متعللاً بمرضه الذي ألم به في سجنه . ولقد كان
صوته يرن في تأثر شديد عند ما عرض ذكر ذلك السجن الذي
أوقعه به عمه ، وأحس أذينة بأن الفتى لا يزال يحمل له قلباً داوياً .
ولما التأم العقد الرائع في المجلس الأنيق أقبل أذينة ليجلس
في الصدر ، وجاء يسير واسع الخطى يبسط ذراعه بالتحية
في حركة تبدو فيها فتوة الفارس اجتمعت بعزة الملك ، وجلس
في الصدر ، وبدأ القوم في اللهو والشراب . وجاءت طوائف

من النساء يغنين ويرقصن ، ثم جاءت بعدها طوائف أخرى من الرجال ، بعضها يتصارع وبعضها يتواثب ، وبعضها يضحك بحركاته أو غرابة ملبسه أو يعرض قصة أو ينشد شعراً . وجاء فيمن جاء فتاة دقيقة العود حسنة القوام مليحة الوجه فرقصت ، وهي تدور على المواثد تعرض خلاعتها على المخمورين وتجمع منهم ثمن عبثاتهم وخمشاتهم ، وهي تثب من ذراعي نشوان إلى ذراعي ما جن ، حتى ملأت حقيبتها من قطع الذهب والفضة ؛ ثم اقتربت من معن وكان جالساً على مائدة أذينة وقد أخذ منه الشراب واستخفه الطرب ، فأتجھت إليه وضحكت ضحكة خليعة ووثبت في خفة حتى جلست على ركبتيه تداعبه وأقبل عليها الفتى في سكره فأفلتت الكأس من يده وسقطت إلى الأرض فتحطمت ، فوثبت الفتاة عنه تمثل الفزع ، وأتجھت إليه بحركة ساخرة خفيفة ، فضج المكان بالضحك وتعال في صرخات السكارى بمبارات التنذر والفكاهة .

وكان الشراب قد أخذ مأخذه من أذينة فعلا ضحكة وصاح قائلاً :

— دعها يا معن فإنك لا تحسن الغزل .

ثم مد يده إليها فأسرعت إليه وهي تنظر إلى الفتى معاينة . فاحمر وجه الفتى ونظر إلى عمه غاضباً وقال وهو يخطو نحوه مترنجماً :

— دعها . أما تكفيك شهناز ؟

وكان سهماً عند ذلك أصاب قلب أذينة ، فهم من مكانه ودفع الفتاة في عنف وأقبل نحو الفتى هائجاً حتى تكفأت الأقداح وانداقت خمرها وتصادمت أطباق الفاكهة وأوانى الزهر ، واتجه نحو ابن أخيه مجرداً سيفه وهو يصيح :

— أيها العبد لن أعفو عنك هذا اليوم .

واضطرب السكان وتوالت الجالسون يترنحون من كل مكان ، وتصايحت جماعة من جوانب البهو ، فإذا الوليمة قد صارت مغممة صاحبة ، وتحطمت القناديل والشموع حتى لم يبق منها إلا بقية ضئيلة في أطراف البهو تلقى ضوءها الخافت على المنظر المخيف ، وخرج من البهو من استطاع النجاة ، وسرى الدعر إلى المدينة ، ومضت ساعة هائلة حتى سكنت الضجة ، فإذا أذينة طريح بين الموائد وابنه هيرود إلى جانبه تسيل منه الدماء ومن حولهما أشلاء الصرعى بين قتيل وجريح .

واجتمع إلى معن بعد ذلك كل من كان له صديقاً وكل من كان له عند أذينة عداً ، وبلغ خبر الحادث ساحة الجيش ، فأنحازت إلى معن قبائل الأزد وغطفان وأعراب سواحل الفرات الذين حاربوا مع أذينة وهواهم مع عدوه ملك الحيرة امرئ القيس بن عمرو ، وقضى معن سائر الليلة مع أصحابه يدبرون كيف يملكون الجيش في الصباح ، وباتت حمص

ليلة واجهة بعد الوليمة التي اهتزت لها كأنها في عيد .

في ظلمة تلك الليلة الصاخبة تسالت جماعة من الجيش خارجة من حصن تريد أن تحمل إلى تدمر نبأ الجريمة الرائعة .
خرجت تلك الجماعة مع مالك ابن القائد زباع صديق أذينة ، وسار الركب يترقب ، وخلف وراءه حصن الدامية ، وكانوا يتناجون في سيرهم مناجاة خافتة حانقة . سيذهبون إلى تدمر لكي يطلعوا الملكة على خيانة معن ، ولكي يثيروا أهل تدمر معها حتى يستقبلوا الخائن ، وينزعوا منه ملكه الماوث بالدماء ، وستثب زنوبيا إلى الانتقام ، وسيساعدوا الامبراطور جالينوس صديق أذينة بجيش يسد الآفاق .

ولكنهم ما كادوا يستقبلون الصحراء حتى لقيهم اثنان على الطريق يعترضان سبيلهم . ثم اقتربوا منهما فتبينوا وجهيهما في ضوء القمر الخافت ؛ ويا عجباً للأقدار ! إنها الملكة زنوبيا ومعها مملها لونيحين يضربان وحدهما في تلك الصحراء كأنهما طريدان .

وأمرعت الملكة بعد اللقاء فسألت الركب في لهفة عن زوجها الذي خرجت إليه . وما علمت بما كان حتى شرد لُبها ، واندفعت لا تدري أين تتجه ، وهي تصيح :

— أذينة ! أين أذينة ؟ ماذا أصابه ؟ من أصابه ؟ أتقولون

قتل ؟ معن ؟ النذل ! أذينة ! الأسد ! الرمح !
ورفعت يديها إلى رأسها ، وصرخت صرخة تجاوبت بها
جوانب الصحراء في سكون الليل قائلة :
— وا أذينتاه !

ثم ترنحت في سيرها وخرت صمقة بعد خطوات ، وأقبل
عليها لونيحين ومن حوله ، يدلكون جسمها بأعشاب الشيوخ ،
وينشقونها ريحهم ، حتى عادت إلى نفسها . وتحركت فائرة ،
وسألت من حولها : أين تكون ؟ ثم عاد إليها وعيها فأخذت
تذكر ما كان . وعاد إليها الحزن واليأس في عنف ؛ ونظرت
حولها إلى الصحراء المظلمة الموحشة ، وهي تحس في قلبها صحراء
أشد ووحشة وظلمة .

وسكنت لحظة ، شمل الجمع فيها صمت واجم ، ثم تحركت
قائمة ، وسارت تترنح نحو خيمتها . فسار القوم وراءها ، وأسرع
لونيحين فوضع يده على ذراعها قائلاً بصوت حزين :
— إلى أين ؟

فقالت يائسة :

— لقد دنت الخاتمة يا لونيحين . فدعني إن شئت ، فأنت
أولى بهذه البلاد . رومة أولى بك أو حمص .
فشد الرجل بقبضة يده على ذراعها وقال في حماسة هادئة :
— لو كان هذا أوان عتاب لماتبت .

ثم قال بعد صمت قصير :

— لسرعان ما يئست يا ابنة البواسل !

فنظرت إليه زنوبيا قائلة بصوت خائر :

— وأين يطلع على الأمل يا لونيحين ؟ لقد تحطمت الآمال

من كل سبيل .

فأسرع لونيحين قائلاً :

— بل لا يزال الأمل فسيحاً .

فنظرت إليه الملكة فائرة كأنها تأبى أن تخدع . واستمر

لونيحين فقال :

— هناك جالينوس الأمبراطور صديق الملك لا يزال في

عزرة . وهناك جيشك في حمص ، إن دعر اليوم استجمع جنانه

في الغد . ثم هناك الحملة والمكيدة ، وليس معنى بأعز في

العرب من أذينة .

فوقفت زنوبيا تنظر إليه حيناً وهي صامتة ، وصرت في

ذهنها المحموم صور تتعاقب سريعة مع خواطرها الهائلة ، ثم

أمسكت بذراع معلمها وقالت وفي صوتها رنة الغريق المتلهف

إلى النجاة :

— لم يبق لي إلا المرأة التي بين جوانحي ، لم يبق في إلا

المرأة . ليس أُمّاي إلا أن أذهب لأستسلم إلى معن وأدع له

ملكه . لم يبق لي إلا أن أسلم يا صديقي الأجل . أوّاه من نفسي

الجامحة ! إننى لا أقدر أن أستقر . ليت شمري ما حال بناتى
وصببتي فى تدمر ؟

فنظر إليها لونجين يائساً ، وقال بصوت خافت :
— مولاتى !

فنظرت إليه زنوبيا فى ضجر وقالت :

— دعنى إن شئت يا صديقى ، ولكن ترفق بجراحي .
وأسرعت داخلة إلى خيمتها ، وارتمت على الأرض تنسج
فى البكاء . وبقى لونجين مع القوم يتحدثهم عما كان فى تدمر
من أحداث .

الفرار المهيبة !

بكر معن ذاهباً إلى المعسكر في أعوانه لينزع من جنود أذينة بيعتهم ويأخذ ملك عمه الملطخ بالدماء ، وسبقته الهدايا إلى شيوخ القبائل ووزعت الأموال في الرجال ، وحمل كل ذلك من فندق المدينة من أموال تجار الحيرة ودورة الدين كانوا من رسل سابور . فإن معناً لم ينجى إلى حصص إلا على موعد مع العاهل الذي لم ينس الانتقام .

ولما بلغ معن معسكر الجيش ألقى في جمعه مقالة أعدها لموقفه ، وتزعزع الجنود وتردد قوادهم . فمن كان لتدبر بعد بطولها القتل ؟ ولأن يلقون تاجه إذا لم يخضعوا لمعن ويسيروا وراءه ؟ أليس معن ابن أخيه وسليل الخيران السמידع ؟ أليس هو الأمير الفتى الذي عرفوه في الحروب ؟ إن أذينة لم يخلف سوى صبية صغار ، وهذا ولده الأمير هيرود الناعم قد هوى إلى جانبه صريعاً . أيخالفون معن من أجل صبية لم يبلغوا بعد شأو الرجال ؟ لقد كان جيش تدمر في بلاد غريبة لا يأمن فيها وثبة الناس إذا رأوا منه ضعفاً ، ولو كانوا في تدمر لاستطاعوا أن يجدوا فراغاً للنظر وتقلب وجوه الرأي ؛ ولكنهم في حصص ولا يدرون ما يكون مصيرهم إذا انشق الجيش نصفين

وحارب العربي أخاه في طرقها وحصونها وبيوتها .

وهل كان الجيش العربي ليأبى على معن ولايته ؛ ثم يلقى قياده إلى زنوبيا ؟ أكان هؤلاء البواسل ليتقاتلوا ، ويتفانوا في أرض غريبة لكي يحفظوا تاج تدعى لامرأة ؟ لم تكن زنوبيا إلا امرأة لا تستطيع أن تقودهم في الحروب ، ولا أن تشاطرهم حر الجلال ، ولا أن تعود بينهم منصوره من قتال سابور أو القوط ! كانت هذه الخواطر تجول في قلوب الجنود ، وهم يسمعون مقالة معن ؛ فلما فرغ منها لم يثبوا ، ولم ينطلقوا ، واستطاع شركاء الجريمة أن يصافخوا صاحبهم ، ويبايعوه بالملك ، وأبصار جنود تدعى المترددة تتطلع إليهم في سكون ووجوم .

ثم فرغ معن من مقالته في الجنود ، وأبجه منصرفاً في حلقة المتأمرين ذاهباً إلى قصر الأمير القليل ، ليحل في مكانه ويستولى على ترائه ؛ فهناك أثنى غنائم فارس والقوط ، وهناك طرف المشارق والمغارب ، وهناك سبايا سابور ، وفيهن شهناز ، شهناز التي كانت حديث القصص العجيب في حلقات المجالس كلما اجتمع قوم في سمر ، ستكون له بعد حين ، ويتم له الانتقام من عمه الذي أذله وظلمه .

وسيكون انتقامه من عمه مكافئاً لانتقام سابور من أذينة .

ما كاد ذلك الصباح يلوح على كيشان الصحراء حتى تحركت

زنوبيا داخلة مع أصحابها إلى حصص ، وكانت طرقها مقفرة يخيم عليها سكون الموت ؛ وأسرعت إلى قصر الأمير ، فلم تجد فيه غير أشلاء منشورة على جوانبه . ودخلت إلى البهو فوجدت زوجها مسجى ، ورأت عنده شهناز تبكي أحر البكاء . لم يبق من يميّكه إلا ذلك الفؤاد الحزين الذى سلبها محبة أذينة فى الحياة . هذه هى المرأة التى دخلت فى حياتها ، فستخرتها الآلهة لى تفسد عليها سعادتها الصافية ؛ ولكنها هى الأخرى كانت من ضحايا القضاء ؛ إنها جاثية إلى جوار جثمان أذينة تبكى فيه سعادتها المفجوعة . فوقفت زنوبيا حينئذ تنظر مرّة إلى الجثمان الطريح ، وتنظر أخرى إلى الجارية الحزينة ؛ ثم اندفعت ، وأكبت على زوجها إلى جانب الأسيرة المسكينة تشاركها البكاء ؛ ورفعت رأسها بعسد حين ، وجعلت تناجيه بما رثت به أندروماك زوجها هكطور :

« لقد ولدنا فى طروادة معاً ، ويا ليتنى لم أولد ، ويا ليتنى لم أرك . فها أنت ذا تمضى وتبقى زوجك بعدك أبماً ، وهذا طفلك لن تجديه نفعا ، ولن تقف دونه درعاً إذا ما دهاه بلاء الدهر . يا ويلتاه لا بنك اليتيم بعدك ، فأنتى له أن يجد الصديق . سيذهب المسكين إلى رفاق والده يستعينهم على نوب الدهر . أو اه ! لقد ربى ذلك اليتيم فى حجر النعمة والعز ، فماذا يلاقى هكطور بعدك من هوان ؟ أنت هذا أراك عارياً ، وكانت حملك لا تشرى بالأثمان ، فمن ذا يلبسها بعدك أيها العزيز ؟ لأجعلها طعمة

للنار بعد أن حرمت مصاحبة هذا البدن الكريم .
ثم قامت تجفف عينيها ، ولم تعد نظرها إلى المرأة الجاثية إلى
جانبا . مسكينة هي الأخرى ، قد جمعهما القضاء في النكبة .
وسارت خارجة ، فرأت لونيحين مع أصحابه يتحدثون ، فأتجهت
إلى معلمها قائلة :

— أعلمت أين مضى معن ؟

فقال لونيحين في حزن :

— إلى معسكر الجنود .

فسارت رافعة رأسها لا تلتفت إلى أحد ، كأنها تحس ضيقاً
من تلاقى العيون .

وقرب لها مالك فرسها ، فركبت صامتة وقالت :

— إلى معسكر الجيش نسير .

ذهبت زنوبيا نحو معسكر الجيش لترى معن بن الحيران ، وقد
أعدت في نفسها قولاً تستلين به قلبه . وكانت وهي تسير تفكر
فيما آل إليه أمرها من هوان وشقاء .

ولحمت الخاتم الذهبي الذي في إصبعها فتذكرت كايوبتر
الباصلة التي استقبلت الموت باسمه في أبهى حللها وأثمن حليها ،
وأحست القصور الذي يقعد بها عن بلوغ بطولتها .

كانت تستطيع — لو شاءت أن تخلد على الزمن قصة مجدها —

أن تبتلع ما في ذلك الفص اللامع من السم ، وتقع عن فرسها جثة قبل أن تستقبل الملك الغاصب الذي غدر بزوجه ، ذلك الخائن الذي كان في استطاعة أذينة أن يقضى عليه ويسفك دمه ؛ ولكنها كانت تزيد شعوراً بالعجز كلما أطالت التفكير والنظر . أف لهذه الأقدار ! لقد أرادت لذلك الفتى معن أن يبقى لكي يخون عمه الباسل ويغصب ماله . بل لقد أرادت لها هي أن تكون آلة في يد القضاء لانفاذ مشيئتها ، فسخرتها لكي تتوسل إلى أذينة حتى يطلقه من سجنه لتمهد لها سبيلها . ليتها كانت تستطيع أن تحمق في وجه الموت الكالح . ولكن ماذا يفعل بنوها وبناتها من بعدها في تدمر ؟ ألا تتحمل من أجلهم ذل الحياة وذهاب العز لكي تقف إلى جانبهم وتحميمهم من المذلة والموت ؟ لقد كانت تقشعر كلما تمثلت برد الموت يدب في أوصالها .

وأفاقت زنوبيا من هواجسها وقد طلع عليها ركب معن مقبلاً من المعسكر بعد أن ألقى مقاتله في الجيش واطمأن إلى مبايعته ، وكان متهلل الوجه خافق الفؤاد إذ يداعب أمه العريض .

وما كاد معن يراها مع أصحابها حتى وقف وفتح عينيه كأنما ينظر إلى ركب من الجان يقبل عليه . كيف أتت هذه المرأة العجيبة إلى حمص ؟ إن السفر من تدمر طويل ؛ فكيف طوت هذه الفيا في لكي تبلغ حمص في هذه الساعة التي يترجح فيها ميزان القضاء ؟ أحملتها الريح إليه أم هو يحلم ولا يرى دونه

منوى خيال صورته له المخاوف الشائرة في طيات نفسه ؟
ووقع في قلبه عند ذلك شعور من الخذلان وتضاءل وهو
يراها تقترب منه ، ولم يستطع أن يفكر فيما ينبئ له أن يفعل
ولا كيف يكون بينهما الحديث .

وتقدمت زنوبيا نحوه ثابتة تحاول أن تهدى من خفقان قلبها
وأن تخفى اضطراب صدرها ، ووقفت أمامه لحظة وهي صامتة ،
ثم بدأت الحديث في صوت متهدج فقالت :
— أيها الملك !

فتنفس ممن عندما سمع هذا النداء وهداً روعه ، وعلم أن
المرأة جاءت إليه مستسلمة .

وتجهز للقول والكلمات تتردد بين شفثيه يريد أن يختار
أكرمها وألينها ، ومد يده نحوها بالتحية ، ولكنه ما كاد ينطق
حرفاً حتى سمع من ورائه صيحة تعلو فجأة وتشق الفضاء من
ناحية الجيش . فنظر إلى ورائه مدعوراً وهمز فرسه يريد أن
يرتد به إلى المعسكر ، ثم التفت لفتة سريعة حانقة إلى زنوبيا
قائلاً : « تعساً لك ! » . ولكنه ما كاد يتحرك من مكانه حتى
رأى كتلة مخيفة من الجيش تتحرك نحوه بسرعة وهي تنادى
بتحية الملكة ، وتتدفق تدفق السيل الطامى .

وذهل ممن ومن حوله فوقفوا ينظرون إلى التيار القوى
المندفع نحوه وهم جامدون كأنهم يشهدون منظراً في ملعب ؛

ووقفت الملكة تفتح عينيهما ولا تصدق ما ترى . وما هي إلا لحظات حتى كان الجيش الصاخب يحيط بمن حانقا ، وفي طليعته مالك بن زباع يحرك جواده والسيف في يمينه وهو يصيح صيحة يملؤها الحقد : « عليكم بالغاصب الخائن ! »

ثم اقترب من معن فأهوى عليه بالسيف قبل أن يستطيع أن يميل من مكانه فخر من الضربة صريعا . وعم الاضطراب بعد ذلك ، وأحاط الجنود بشركاء معن يضربونهم في غيظ . وما هي إلا لحظة قصيرة حتى كانوا قد ذهبوا جميعا في أسنة الجيش الحانق وظبا سيوفه ، إلا من استطاع منهم الهرب على فرسه والدماء تسيل منه ، فانطلق لا يلقى على شيء نحو الصحراء .

ووقفت زنوبيا تنظر إلى ماحولها ذاهلة في دهشتها ، ثم أحست برأسها يدور بها ، ورفعت يدها لتمسح العرق الذي بلل جبينها ، ومالت خائرة على فرسها ، وكادت تسقط لولا أن تداركها لونيحين فأسندها ، ولم تحس شيئا بعد ذلك حتى أفاقَت ورأت نفسها في قصر زوجها أذينة ولونيحين إلى جانبها ينظر إلى وجهها في لهفة وحزن . فتلفتت حولها لتعرف أين تكون ؛ ثم عاد إليها الوعي بطيئا ، وأعاد عليها لونيحين قصة القضاء العجيب .

إن الأحلام الخادعة أقرب إلى الحقيقة من هذا الذي قصه عليها لونيحين . ألا تكون في غمرة من الخيال العاثر الذي يصوره لها ذهنها المكدود ؟ أين ذلك العقل الذي جعلته هاديا وآمنت

بوحيه منذ حين ؟ أين لها قلب مثل قلب لميس لىكي تؤمن ولىكى
ترى فى أحداث الحياة آيات تعزز الايمان ؟ لقد أثار القضاء
إعصاراً أهوج فى ليلة حتى خيل إليها أن الأرض كله قد انتهى وأن
الملك والمجد والشرف والحب وأذينة والحياة ، كل ذلك قد مضى ،
ولم يبق منه بقية تؤنس بقية الأيام التى لم تستطع أن تتخلص منها .
فإذا بها ترى الإعصار قد هدا فجأة ، وتكشفت السماء بعده فلم
يخلف وراءه إلا أشلاء الصرعى الذين خبطهم فى هبوبه .
لقد سكن ذلك القضاء الغاضب . قد سكن بعد أن
أنفذ ما أراد !

وقامت الملكة من سريرها فاترة ، وأصلحت من شأنها وقلبها
متوزع بين حزنها وأملها ، تفكر فى زوجها الذى جاءت
هاربة إليه ، فلم تجد منه إلا جثة قد أكتبت عليها المرأة الحزينة
شهناز التى شاركتها فى قلبه ، شهناز الأعجمية الكريمة
المسكينة . ويل لها من الليالى الموحشة التى بقيت لها فى الحياة !
لقد ظنت أنها تستطيع أن تعيش بغير أذينة ، وهى ذى تحس
مرارة اليأس عند ما تحققت أنها سوف تحيا بغيره . ماذا بقى لها
فى الحياة بعد أذينة ؟ لم يبق لها إلا صبيتها الذين تركتهم فى
تدمير بين يدى العدو الغالب الخفيف . وما كادت تذكر ذلك
حتى اهتزت من القلق ، وتمنت لو أن لها جناحين تطير بهما
إلى القصر المحصور لتتظر كيف أصبح من بين جدرانها من

الأعزاء . أيهلك زوجها أذينة ويتبعه أبناؤها الذين كانت تحرص
من أجلهم على الأمل في الحياة ؟

أيهلك وهب اللات وتيم اللات والحيران بنو أذينة ؟ وهذه
الفتيات اللاتي كن يضئن عليها القصر بابتسامتهن أيذهبن جميعاً
في ظبا السيوف الحانقة الوحشية ؟

ونزلت إلى البهو لتودع أذينة قبل الرحيل ، فوجدته قد حمل
إلى مخدع منمزل ، والكهنة والأطباء يعالجون جثته بالقطران
والمر والنطرون ، ويعدون لها للمقام الطويل الأبدى ، فلم تستطع
أن تنزود منه بالنظرة الأخيرة ، ووقفت لدى بابه متمحكة
الأشجان ، وأسندت ذراعها على الجدار ، ومالت برأسها فوقه ،
وقالت في حزن عميق :

— سوف تغدو الحياة بعدك قفراً يا أذينة . كنت مؤنسى
وعمادى ، وكنت موئلي في الخطوب . فزعت أرجو الأمان
عندك لما أن أحاطت بي المخاوف ، ولم أدر أن القضاء أسرع إليك
قبلي . وعلى أن أقضى سائر أيام الحياة الموحشة وحيدة لا أجد إلا
إلى نفسي . كنت وأنت بعيد تبعث في الأطمئنان . كان قلبي
يجحدك وهو ممتلئ بك ، ويكابرني فيك وهو منصرف كله
إليك . استمع يا أذينة إلى حزني وانظر إلى دمي ، استمع إلى
زنوبيا لتفضي إليك بحديث قلبها ، لعلك تعفو ولعلك ترضى .
إنني أتوجع يا أذينة ! إنني أتعذب !

وجعلت تنشيج حتى خارت قواها .
فتقدم إليها لونيحين ، وكان واقفاً وراءها يشاركها في البكاء ،
فوضع يده تحت ذراعها وجذبها برفق ، وسار بها إلى البهو ،
فأقعدها على أريكة ، فارتمت عليها وأغمضت عينيها والدموع تتساقط
على خديها في صمت لولا شهقات عنيفة كانت تهز صدرها .
وأقبل مالك بن زباع بعد حين ، فوقف إلى جانب لونيحين
ونظر إلى الملكة في حزن ، ففتحت عينيها عند ما أحست به ،
واعتدات في جلستها ، وجففت دموعها ، ونظرت إليه قائلة
وهي تمالك نفسها :

— ألم يحزن الرحيل ؟

فنظر لونيحين إلى مالك ينتظر ما يجيب به ، فقال
مالك متردداً :

— متى شئت يا مولاتي .

فقامت تتحامل على نفسها ، وقالت في اضطراب :

— الآن ! الآن نسير إلى تدمر .

ثم التفتت إلى لونيحين فوجدته ينظر إليها في شيء من الهلع
لما رأى من ضعفها ، فاستمرت تقول وهي تسير خارجة من
البهو مترنحة :

— مالك تنظر إلى كذلك يا لونيحين ؟ الآن يسير الجيش

إلى تدمر . يا مالك جهز الجيش للسير غداً ، غداً إذا بزغ

الفجر . ولكن ، كيف لي أن أصبر إلى غد ؛ اليوم نسير إلى
تدمر يا مالك . أوّاه !

ثم تعثرت في خطواتها ، ورفعت يديها إلى رأسها ووقفت
تهتز لحظة ، وكادت تسقط لولا أن أسرع إليها لونجين ومالك
وحملوها ؛ وقضت أياماً بعد ذلك طريحة في وقدة الحمى ، وهي
تهذى في بحرانها ، تنادى أذينة ووهب اللات ، وتذكر شهناز
وليس ، وتصرخ فزعة باسم معن . واضطر مالك أن ينتظر بالجيش
في حمص حتى تستطيع الملكة أن تصاحبه ، وكانت الأيام تمر
بطيئة ، والأخبار تقوارد بما يحدث في تدمر وفي الاسكندرية
وفي رومة . لقد كان العالم كله يضطرب ويفور بالحوادث : فتدمر
تموج بمجموع العدو ، والحامية لا تزال تدافع في القصر .
والاسكندرية تثور بالروم وتطارد جيوشهم فيها ، وتخرجهم
فتقذف بهم إلى البحر ، وقواد الجيش الروماني يثبون في إيطاليا
على أمبراطورهم جالينوس ، ويقتلونه وهو في معمرة القتال مع
العدو . لكأن الآلهة قد تخلت عن حمل هذا العالم ، فترزل
واضطرب وتداعى لكي ينهار ، فليس يستقر فيه ركن
من الأركان .

ومضى أسبوع ، ثم أبلت الملكة من مرضها ، واستطاعت
أن تركب مع الجيش وتسير معه ، وهي تستحثه لعلها تبلغ تدمر
قبل أن يمجز من في القصر عن النضال .

ثم اقترب الجيش من تدمر في أول الليل ، وكان الهلال الجديد قد غاب في أفق الغرب ، وكان الهواء البارد يعصف في أنين حزين ، ويشير رمال الصحراء بعد يوم صائف ثقيل ؛ فأمرت الملكة بالنزول حتى يستريح القوم تلك الليلة قبل أن يبدأ النضال المر في الصباح . وجاست إلى جانب لونجوين في خيمة تتق بها عصف الرياح ، وجعل لونجوين يقرأ لها في الألياذة وهي تستمع إليه في فتور ، وتذوق طعاماً يسيراً من صرق لحم الأبل ومن لبنها بعد مشقة السير الطويل ، حتى بلغ لونجوين في قراءته إلى خدعة أوديس ، إذ نصح قومه بصنع الفرس الخشبي العظيم ، ودس أبطال الاغريق في جوفه ، فقالت الملكة لعلها :

— حيلة بارعة يا لونجوين !

فاستمر لونجوين في قراءته متحمساً ، موسيقى النبرات ، بصور بصوته لوحات هومير :

— ونزل أهل طروادة إلى ذلك الفرس الخشبي ، وفرحوا بالاستيلاء عليه غنيمة من هدوهم المهزوم ، حتى إذا نام الحراس وسكنت (إليون) ، خرج الأبطال من جوف الفرس وقتلوا حراس الأبواب .

فرفعت زنوبيا عند ذلك يدها ووضعتها على صفحة الكتاب صامتة وعيناها تحمقان في الفراغ .

وكان الليل قد مضى نصفه ، واشتد البرد ، ورها الهواء ؛

فتدثرت زنوبيا بعباءتها وقامت تسير في الصحراء ، وسار لونهاجين وراءها في صمت ، وجمت تنظر إلى النجوم اللامعة ، كأنها تناجيها وتستوحي نصحتها .

ثم مالت إلى كتيب فاضطجعت عليه ، وذهبت في صمتها حيناً تحمق في النجوم . فقال لها لونهاجين مشفقاً :

— ألا تصيبين من النوم شيئاً قبل الصباح ؟ إن البرد يشتد ، وفي غد جهد شديد .

وسمعت زنوبيا قوله ، وكأنها لم تسمع شيئاً ، وبقيت تفكر باظرة في الفضاء ، ثم قالت بعد حين بصوت حالم :

— لقد كان أوديس داهية يا لونهاجين .

فنظر إليها لونهاجين متعجباً ولم يجب .. فقامت من ضجعتها وقالت له في حماسة :

— لكأني بالآلهة توحى إلى " يا لونهاجين " ، ألا تفهم ما أريد ؟ فقال لونهاجين :

— هي قصة من نسج الخيال ، إني أحب هو مير من أجلك يا مولاتي . ولكن الآلهة لا توحى بخيال الشعراء .

فقامت الملسكة وقالت في حماسة :

— بل هي الآلهة توحى إلى " يا أيها السيد المبجل " ؛ سأدخل القصر من حيث خرجت يا لونهاجين ، فلعله لا يزال سالماً من ذلك العدو . وسأكون في تدمر مثل خدعة أوديس في إليون .

ففتح لونيجهين عينيه وقال مسرعاً :

— ولكن

فقالت له الملكة وهي تتأوه :

— لا تأخذني يا صديقي بالشكوك . لأن كان العدو قد اقتحم

القصر فما لي في الحياة أرب من بعد من فيه . أرسل إلى مالكا
يا لونيجهين ، فلا أصبحن تدمر ، أو لألحقن بصديقتي إلى الهلاك . إنى
لا أطيق الصبر على طول الحصار .

فأطرق لونيجهين حيناً ، ثم نظر إليها فراها لا تزال تنظر إليه
تنتظر إنفاذ أمرها ، فلم يستطع المخالفة ، وقام يسير إلى خيمة
مالك بن زباع .

وعادت زنوبيا إلى خيمتها تتصور في نفسها كيف تتم
مخاطبتها العظمى .

وهب الهز

كانت حامية القصر تعاني ضيق الحصار ومشقة الحرب المتصلة
وهي تجاهد جموع العدو المحيط بها . لقد كان ذلك العدو يزداد
عدداً وجراًة كلما مضى عليه يوم ، في حين كانت هي تزداد جراحاً
وإعياءاً وهماً . وازدحت مخادع القصر بالدين أعجزتهم الطعنات ،
وشغل النساء وفيهن بنات أذينة بتضميد الجراح والعناية بالمرضى ،
فما بقي لهن فراغ للنظر في إعداد طعام أو تهيئة ملبس ، وكان
الجنود يتساقطون صرعى وقد أصابتهم السهام ، حتى تنزف دماؤهم
ويخمدوا تحت أبصار رفقائهم ، فلا يجدون من يلتفت إليهم ،
إذ كان من حولهم في شغل من معاناة كرب النضال الوعر مع
العدو الذي لا يمهلهم ولا يوادعهم .

واجتمع قواد الحامية في ليلة يتجادلون فيما عساهم يفعلون
بعد أن رأوا أن الضيق قد ازداد شدة من حولهم حتى أحسوا
المجز عن تحمله ، وجعلوا يتحاورون في حيرة : أينتظرون حتى
تنفذ منهم الأقوات فيتساقطوا من الجوع والتعب ، أم يخرجون
على العدو في يأسهم حتى يقتلوا عن آخرهم والسيوف في أيديهم ؟
وهل بقيت لهم حيلة يمتثلون بها على ذلك العدو المدل بقوة
فيحملونه على مصالحتهم أو تخلية سبيلهم ، ليلحقوا بأرض أخرى

من بلاد أذينة ، تاركين له القصر وما فيه من كنوز غنيمة طيبة ،
أم لقد سدت عليهم أبواب الحيلة في ذلك الصلاح ، والعدو يعني
نفسه باقتحام القصر في كل صباح وفي كل مساء ؟

وكان وهب اللات بن أذينة واقفاً مع القواد يستمع محاورتهم
المضطربة صامتاً مطرقاً ، وكان فتى في الثامنة عشرة ، ولكنه
كان مثل أبيه مديد القامة واسع الصدر أقنى الأنف له عينان
مثل عيني أمه تأتلقان .

ولما لم ير القواد من مجادلتهم مخرجاً نظروا إليه يستطاعون
رأيه كأنهم كانوا يذكرون في مرآه بطلهم أذينة . فأحس الفتى
أن الأرض تميد به ، وشعر كأن النار تتقد ما بين عينيه . ثم
ثارت في رأسه الخواطر سراعاتتواثب ، وهو صامت في حيرة
وقلق يحس النظرات كأنها تصدع جسمه وتحز وجهه . أترك
الحامية القصر لكي تهلك في القتال اليائس ، وتخاف من ورائها
نساء القصر وضعفاء من المرضى والشيوخ ؟

أبتركون إخوته لذلك العدو الوحشى الذى يموج تحت
الأسوار ؟ أيتحدث العرب بأن امرأ القيس بن عمرو قد سبي
بنات أذينة وعاد بهن إلى الحيرة ، لكي يتخذهن إماءً لزوجاته
وبناته ؟ إن الموت لنعمة ما كان ينبغى له أن يستأثر بها دون من
في حوزته من النساء والضعفاء

فوقف حيناً ينظر إلى الجمع في صمت ثم قال مثدفعاً ، وقد

احمر وجهه من الحماسة :

— أيها الرفاق البواسل . ليس منكم من يخشى الموت ، وليس
الاقدام على الموت ما يفخر به الشجاع . أليست هي طمعة أو ضربة
ثم تذهب الآلام ؟ ولكن ما حديث الذكر الذي يبقى وتسير
به سير الزمان ؟ وما مصير الحرم التي تخلفون وراء ظهوركم ؟
لخير لدى أن أموت قطعاً ، وأن تساقط نفسي ذرة بعد ذرة وأنا
أعاني الآلام دهرأ ، لخير لدى ذلك من أن تبقى من ورأى ذات
خدر تتعرض للهوان . ولن أبرح ههنا مقبلاً في القصر حتى لا
أجد به موضعاً أقف فيه لعدوى . فإذا عجزت ولم يبق إلا الهلاك
ارتددت إلى من خلفي من هؤلاء الضعاف وسفكت بسيفي دماءهم
ثم استقبلت بعدهم الموت راضياً .

وسمع القواد قوله حتى انتهى منه ، وبقي الصمت مرناً فوقهم
حيناً ثم انطلقت منهم صيحة عالية ، ومدوا أذرعهم بالتحية وقالوا
في حماسة :

— مرحبى أيها الأمير الباسل ! مرحبى يا ابن أذينة ! سنابق
معك يا ابن أذينة العظيم !

وبقيت الضجة حيناً ، وقد أقبل كل قائد على صاحبه يصافحه
ويشد من غزمه ، ويعلن أنه لن يبرح القصر حتى يسير تحت لواء
وهب اللات إلى الموت .

ثم هدأت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى عاد السكون ونظر

الجمع إلى وهب اللات ينتظرون أمره .

وعند ذلك علا صوت من خلفهم يقول : مرحبى
أيها البواسل ! .

فالتفتوا جميعاً إلى الورااء وفتحوا أفواههم من الدهشة
وتراجعوا وهم يصيحون صيحة مكتومة :
— الملكة ! .

واندفع وهب اللات نحو أمه وارتمى بين ذراعيها الممدودتين .
وقضت زنوبيا حيناً حانية على ولدها تضمه بهطف ، وتغرغ
وجهها على صدره ؛ ثم رفعت رأسها وأرسلته من ذراعيها ،
ونظرت إلى الجمع بهينها الدامعتين ، وقالت بصوت متهدج :
— يا شجعان تدمر !

وكان القواد مطرقين ، وقد حركهم منظر الحنين ، فلبا
سمعوا صوت الملكة رفعوا رؤوسهم نحوها في عطف وإجلال ،
فاستمرت تقول :

— لقد تركت القصر خفية لما رأيت الخطر محققاً به ، ولم أعلم
أحداً منكم بما عزمت عليه خوفاً على عزيمتكم أن يداخلها وهن
أو تردد . وكانت الأقدار وحدها تحركنى وتسدد خطاى .
خرجت أقصد قصداً ، ولكنى وجدت الأقدار تدفع بى فى
سبيلها تقصد بى قصداً .

خرجت أطلب ملككم أذينة الباسل للاستجير به وأدعوه

النجدة تكم كما كنت أفعل دائماً كلما أحسست المخاوف تساورنى .
ثم اختنق صوتهما ووقفت عن الكلام ، ورفعت يدها إلى
عينيهما وأجهشت بالبكاء .

فنظر القوم إليها فى دهشة ، واقترب ولدها وهب اللات
نحوها فى فزع وعطف ، وأمسك يديها وقال فى توسل :
— أماء !

فكفكت زنوبيا دمها بعد جهد ، ثم قالت بصوت
يشبه الأنين :

— كيف أعزىكم فى بطلكم الباسل ، وكيف أعزى نفسى
فى زوجى الحبيب ؟

وعادت فاستخرطت فى البكاء ، وخيم على الجمع وجوم
كثيف ، وصاح وهب اللات وهو يمسك بمقبض سيفه :
— أقتل أذينة ؟

فرفعت زنوبيا رأسها ، وفتحت عينيهما الواسعتين الحمراءين
من أثر البكاء ، وقالت بصوت يشبه زنين النحاس :

— نعم قتل يا ولدى . ولكن كن قري العين ، فلقد اشتفت
نفسى من القاتل الخائن .

وأخذت تقص على الجمع قصة المأساة ، حتى بلغت نبأ
الجيش الواقف عند أبواب تدمر ينتظر إتمام المكيدة التى اتفقت
عليها مع مالك بن زباع . ثم قالت :

— هي الأقدار العجيبة التي أخرجتني ، وهي الأقدار العجيبة التي عادت بي في هذه الساعة ، لأسمع ابن أذينة يحدثكم كأنه ينطق بلسان أبيه . تقدموا أيها الشجعان فحيوا ملككم الكريم .

فد القواد أيديهم إلى وهب اللات ، وحمّوه على دروعهم وصاحوا :

— وهب اللات ملك تدمر ، أغسطس حامى المشرق !

وكان جنود الحيرة لا يزالون حول أسوار القصر آمنين في نومهم ، لا يسمع لهم حس إلا وقع أقدام الربيثة ، وهم يجمعون الأحطاب ، يوقدون النيران ليستدفئوا من برد الفجر الذي يسبق مطلع صباح الربيع .

وفتحت أبواب القصر في حذر وسكون ، وكان ظلام الليل لا يزال يلف الفضاء ؛ إلا أنفاساً وسُنى ضئيلة تنبعث في السماء عند الأفق الشرقى ، يرمقها ديدبان جيش الحيرة ، مرتاحاً بعينيه الوانيتين ، اللتين تترقبان طلوع الصباح لكي تغفيا بعد سهر الليل الطويل .

ثم انطلق من باب القصر ركب من الفرسان يركض جياده في دفعة سريعة ، وترددت أصوات وقع سنانبكها على صخر الأرض ، كأنها وابل من الحجارة قد سقطت من السماء فقمقع

وطقطق ، وملاً الجو ضجيجاً على حين فجأة . فصحا عسكر الحيرة
في دعر ، وتنادى جنده من جوانب الفضاء : واصباحاه !
وأخذوا يستعدون للركوب سراعاً ، وقد طار النوم عن
أجفانهم ليلحقوا بهؤلاء الذين حسبوهم خرجوا إليهم يناجزونهم
القتال ، بعد أن أيسوا من مقاومة الحصار . غير أن فرسان
تدمر لم يقفوا لقتال ، ولم يلتفتوا وراءهم إلى مطارده ؛ بل انطلقوا
في سبيلهم حتى عجب منهم عدوهم ، وسخر من أنهم لن يجدوا
دونهم مخلصاً إلا إن استطاعوا الوثوب فوق الأسوار العالية .
وكان في صدر فرسان تدمر وهب اللات بن أذينة في سلاح
مثل سلاح أبيه راكباً على فرس أدهم محجل ، وقد رفع سيفه
يشير به إلى جنوده نحو باب القمر الذي كان يلوح في غبش
الفجر بعيداً في طرف الطريق الأعظم . وكانت الطريق خالية
تظهر فيها الأعمدة القائمة في صفين على جانبيها كأنها ممتدة إلى
نهاية الأرض ، وكانت الحوانيت حول الطريق تبدو كالحلة ، وقد
حطمت أبوابها ، وخلت من كنوزها الثمينة ، التي طالما حملتها
إليها القوافل من الشرق والغرب ، فقد ذهبت كلها غنيمة
لجنود امسى القيس بن عمرو .

ولما بلغ وهب اللات باب القمر وقف ، وجعل يشير إلى
أصحابه ، ويقسمهم في كتائب يجعل لكل منها موقفاً ، وهم يطيعون
في مسارعة وسكون ؛ فأسرعت طائفة إلى الباب ووقفت كتيبة

أخرى تعترض الطريق الأعظم ، وتسد المسالك المؤدية إلى السور .
واندفع وهب اللات مع جماعة من فتيان تدعى إلى البرجين
القائمين على جانبي الباب ، فقتلوا من هناك من جند الحيرة ،
ونادوا أصحابهم من وراء الأسوار يؤذنونهم أن يشوروا على
ميعادهم مع الملكة . فارتفعت ضجة من الجيش المتدفق . وأخذ القوم
من داخل المدينة ينزعون قضبان مصراعى الباب ، ويحطمون
دعامتهما ، ويجهدون في فتحهما ، على حين كان إخوانهم
من ظاهر السور يعاونونهم بالدفع والتحطيم .

وكان جنود الحيرة في أثناء ذلك ، قد هبوا سراعا وركبوا
وراء عدوهم الجريء ، فلما اقتربوا من الباب وجدوا كتيبة تعترض
مسالك الطريق المؤدية إليه ، وثارت هناك معركة الحياة والموت
بين الفئتين .

ولكن الطريق الضيقة لم تتسع لجموع جيش الحيرة أن
تحيط بحامية تدمر الضئيلة ، فاستطاعت هذه أن تدافع ، وأن ترد
خطوة بعد خطوة ، وأمواج الجموع المتكاثرة عليها تصدمها
وتدفعها في سبيلها حتى ضاقت الحلقة حول الباب ، وأوشكت
أن تنطبق على الذين يعالجون فتحه . وعند ذلك انفرج المصراعان
وهما ينهران ويصوتان ، وتدفق منهما فرسان جيش تدمر من
خارج المدينة ، ومالك بن زباع في صدرهم ، وهم يصيحون صيحة
ارتجت لها جوانب الفضاء . فلما أحس جنود الحيرة بذلك ترددوا

ثم تزعر جمعهم واضطرب ؛ ثم أخذوا يرتدون عن الباب
يلتمسون البراح في الميدان الأوسط من المدينة ، وتدفت وراءهم
جنود تدصر ، ومالك بن زباع في صدرهم ، واختلط الجمعان
في نضال حافق مضطرب لا يتعارف فيه المتقاتلون إلا من شمارهم
في النداء .

وكان ضوء الصباح قد جلا المنظر البشع ، فاذا بتدصر الأنيقة
معممة قتال تتناثر في أنحائها جثث القتلى من الفرسان والجياد ،
وصبغت الدماء جوانب الأبنية البديعة القائمة على حافتي الطريق ،
وانعقدت منها برك تلمطخ أرض الطرق والميادين .

وكانت زنوبيا عند ذلك واقفة فوق سور القصر مع لونيحين
في برج من الأبراج ترقب حركة القتال البعيد ، وهي تهتز مع
تردد أمواجه بين المد والجزر ؛ وقد حصرت روحها ومشاعرها في
نظراتها المتلهفة . وفيما هي كذلك إذ سمعت وقع حوافر خيل
مقبلة نحو القصر من جانب من الميدان الفسيح ؛ فالتفت تقاب
نظراتها قلقة في الفضاء الذي في أسفله ، فرأت فارسين يتطاردان ،
وقد أوشك أحدهما أن يضع رمحہ بين كتفي صاحبه . ولكن
الفارس السابق مال على سرجه في حركة سريعة ، ولوى عنان
فرسه فحاذ عن طريق قرينه ؛ فاندفع المطارد ، وذهبت طمئنته
في الهواء ، وتزحزح عن ظهر فرسه ، حتى كاد يسقط من شدة
الدفعة ، وما كاد يعطف فرسه ليعاود النضال حتى كان عدوه قد

اعتدل ، وأقبل نحوه رافعاً سيفه ، وابتدأت بينهما مبارزة
هنيئة سريعة .

ولم تستطع زنوبيا من سرعة الحركة أن تتبين من يكون
الفرسان ، حتى اقتربا في تجوالهما ، وبدأت حركات تناضلتهما ،
ورأت ملابسهما وسلاحهما ، فصاحت صيحة هلع عالية تقول :
— ولداه ! .

ثم أسرع من موضعها فهبطت من البرج وهي تردد صيححتها
حتى بلغت الفناء وقصدت نحو باب القصر .

ولم تقف لتسأل أحداً أو لتطلب عوناً ، بل أسرعت إلى فرس
فركبتها ، وأخذت رجماً من سلاح الحراس وأمرت بفتح الباب
وخرجت إلى الميدان ، وركضت فرسها نحو المتقاتلين . ولم يقدر
لزنوبيا أن يحدثها أو يمدى لها رأياً ، ولم يجد بداً من أن يسرع
خلفها راكباً وهو يميل على سرجه ، ويحاول أن يحفظ مقعده عليه .
ولما صارت الملكة على مقربة من الفارسين أسرعت رافعة
رجلها تريد أن تنقض به على ذلك الذي يوشك أن يطعن قلب
ولدها . ولما رآها الفارسان مقبلة عليهما تباعدا وجعلا ينظران إليها
في دهشة ، ثم صاح وهب اللات في يأس عند ما عرفها :
— أماء !

فأسرع العدو تاركاً وهب اللات ، واندفع نحو الملكة
في خفة وهو يصيح :

— هلمى إلى أيتها المهابة ، فأنت أولى بصييدى ! .

وكان وهب اللات قد بغت من هذه المفاجأة ، فوقف حيناً متردداً حتى رأى الفارس ينطلق نحو أمه كالصخرة المتحدرة . فصاح صيحة ذعر وحلق ، وأقبل على الفارس يرمى عليه نفسه فى يأس ، وكان لونجين فى ذلك الوقت قد بلغ موضع القتال ، فلما رأى الفارس قاصداً نحو الملكة امتلاً قلبه خوفاً عليها ، ودفع فرسه نحوها فى اضطراب ، وهو يصرخ فى غير وعى ، فاصطدم فى طريقه بالفارس وهو لم يجرد سيفاً ولم يشهر رمحاً . فضربه الفارس الحائق بسيفه ضربة أسقطته عن فرسه ، وتركه واندفع يقصد إلى الملكة التى عول على أن يفوز بقتلها أو أسرها . ولم يلتفت إلى شيء سوى صيده الثمين .

وكانت اللحظة التى وقف فيها الفارس عند اصطدامه بلونجين فرصة أمكنت وهب اللات من عدوه ، فركض نحوه فرسه صائحاً من أعماق صدره صيحة عالية ، واندفع لا يفكر فى شيء إلا أن يتجى أمه من ذلك الفارس الخيف ، فأدركه وهو يستعد للطعنة ورمى الرمح من خلفه بين كتفيه ، فى حين كانت الملكة الباسلة تدفع رمحها بيدها المضطربة ، فوقع فى عنق فرسه من الأمام ، فهوى الفارس وفرسه معاً يتخبطان فى الدماء .

وقفت الملكة ووهب اللات حيناً ينظران فى دهشة نحو المنظر الدموى الذى دونهما ، ثم أسرعا إلى لونجين المسكين

فحملاه وهو لا يبي ، وعاداه إلى القصر .

ولم يبق وهب اللات في القصر إلا قليلاً ، ثم ترك أمه جالسة إلى جوار سرير لونيحين وعاد إلى قومه ليشاركهم بقية القتال ؛ فلما بلغ الميدان الأوسط الذي ترك فيه المعركة نائرة منذ حين ، وجد فيه جماعة من جيش تدمر تدفق على الجرحى في غل وحقد ، فاستقبله فرسانها هاتفين باسمه هتاف فرح عند مارأوه يقبل عليهم سليماً ، بعد أن حسبوا أن العدو قد أصابه فيمن أصاب ، وسار معهم نحو باب القمر وهو ينظر حوله إلى ما خلفته الحرب الضروس . ولم يمنع أصحابه من التمثيل بقتلى العدو ، فكانوا يطأونهم بخيولهم ويقطعون أوصالهم عابثين ، إذ كان غل القلوب أعنف من أن تلينها رحمة على العدو الكريه . ولما بلغ باب القمر ألفاه مفتوحاً ، ولم يجد عنده إلا كوكبة تحرسه بعد أن خرج منه جنود الخيرة فلولاً ، وتشقتوا في الصحراء ، واتبعهم فرسان تدمر يتعقبونهم بالقتل والأسر ، أنى وجدوا آثارهم على الرمال .

لقد كان قتالاً عنيفاً ، ولكنه كان مثل خيال الأحلام . كانت تدمر منذ ليلة يائسة في يد العدو ، وكان العدو ناعماً حول قصرها يملل النفس بقرب القضاء على ما بقي فيه من مقاومة لا تلبث أن تبوخ وتخمد ، فاذا بالصباح يطلع عليها وقد خلت من عدوها المهزوم ، ولم يتخلف منه إلا تلك الجثث الطريجة ،

وتلك الدماء المنعقدة على وجه أرضها الفسيحة .

وعاد وهب اللات إلى أمه ، ليحمل إليها أنباء ذلك النصر
العجيب ، فتنفست وهي تستمع إليه في لهفة ؛ ولكنها لم تفيض
معه في الحديث . وعادت إلى سرير لونيخين وهي تناجي نفسها
بما تحده الأقدار في قلبها الغامض العجيب .

ما هذه القيم التي جعلها الانسان لنفسه وما يحيط به في هذه
الحياة ؟ إنها لا تزيد على أن تكون من صنع خياله أو من
صنع أطعمه الجائعة ؛ ولكن تلك المطامع إذا ما قبض عليها
المرء بيده وجدها خاوية أو لم يجدها شيئاً ، بل رأى نفسه يقبض
على الريح ؛ وهو مع كل ذلك يناضل ويجاهد ، ويقسو ويخضع ،
ويخون ويذل ، في سبيل بلوغ مأربه منها .

لقد عرفت زنوبيا الملك والمجد ، وذات الحب والفيرة
والبغض ، وقاست المخاوف ، وخاضت الأخطار ، وكشفت كل
ما يمكن أن يكشفه الانسان من الحياة . فماذا وجدت بعد ذلك
كله ؟ إنها لم تجد في الحب إلا ألماً واضطراباً وخيبة ، ولم تجد
في المجد إلا خداعاً وغروراً ، ولم تعرف في قلب الانسان
إلا الغموض ، ولم تجد في عقله إلا القصور وقلة الإدراك ،
ولم تحس السلام إلا عند سرير معلمها المسكين لونيخين ، وهي
تحاول أن تخفف من آلامه وتعيد إليه الحياة .

مسكين لونيخين ! كانت زنوبيا تحس في قلبه معنى غامضاً

لا تستطيع أن تدرك كنهه . كانت تحس أنه يفنى ويبذل ولا
ينتظر الجزاء . أ يكون ذلك الذى يبذله حباً ؟ لأن كان ذلك حباً
فهو غير ما عرفت من الحب ، وغير ما فهمت من الحب . إنه
حب لا يشبه حب هذه الأرض المضطربة الملوثة بالدماء .
جلست إلى جانب سريريه وقد امتلأ قلبها رقة وعطفاً . لقد
كان المسكين لا يبخل أن يجود لها بنفسه قبل أن تطلب منه أن
يجود ، ولم تسمعه يوماً يقول لها كلمة تنم عن أنه يطمع في هرقانها
أو الوفاء بدينها .
لمت ليس كانت تأتي إليها في تلك الساعة لتحدثها ، فقد
استطاعت أن تتسامى إلى شيء يشبه ما كانت تنعم به تلك
القديسة في حياتها من خدمة الضعفاء والأشقياء .

رسول مصر

أبل لونيخين من مرضه ، واستطاع أن يجلس مرة أخرى مع الملكة في طنف القصر ويشرف على الحدائق الباسمة في نور الأصيل . وبدت له الحياة عند ذلك في لون لم تبد به من قبل لعينيه . فذلك الصيف الدافئ الذي يملأ السكون قوة ونضجاً يملأ قلبه رغبة في الحياة ، ويفتح له أبواب الأمل الخالب . وذلك النسيم الهادي الذي يهب من الغرب رخاءً يمسح جبينه ويغري به الأحلام الثائرة التي لم يعتد مثلها من قبل . وهذه الشمس الرائعة التي تسير في موكبها الذهبي نحو الأفق ترفع في خياله صورة زنوبيا ، الملكة الساحرة ، إذ تقبل نحوه باسمه في حلتها البسيطة البيضاء الأنيقة ، وهي باهرة في شحوبها رائحة في كآبتها .

وأقبلت عليه زنوبيا في هذه اللحظة ، وهو ينظر إلى الأفق الغربي المبهرج ، فقام من مقعده وهو يترنح ، وابتمسم وهو خافق القلب في خشوع العابد إذا أطل عليه تمثال إلهه من محرابه . وأسرعت زنوبيا نحوه مشيرة بيدها إليه أن يعود إلى مكانه ، وقالت بصوت رقيق :

— لا تزعج نفسك يا صديقي الآجل ولا تكثر من الحركة .
ثم جلست على أريكة ، ونظرت إلى معلمها وهي تجلس في

بطء ، وقالت وعلى وجهها ابتسامة ضئيلة :

— فيم كنت تفكر وحدك أيها السيد البهجل ؟ لقد لمحتك منذ حين غارقاً في تأمل عميق .

فتحرك لونيخين وقال وهو يبتسم في شيء من الحيرة :

— كنت أتملى بما حولى من هذه المناظر الباهرة .

فنظرت زنوبيا حولها وتنفست نفساً عميقاً ، ومالت إلى

ظهر الأريكة ، ووضعت يديها وراء رأسها وقالت في صوت حالم :

— حقاً أنها مناظر باهرة ! ما أبدع هذه الشمس الغاربة في

هذا الإطار الساحر ! .

ونظرت حيناً إلى الشمس وما حولها كأنها تريد أن تستشف

ما وراءها وقالت :

— إننا نسخر ممن يزعم أن هذه الشمس هي بعل الحى الإله

القوى . نعم إننا نعرف أن هذا ما هو إلا كوكب نارى من

عناصر هذه المادة الكثيفة . ولكنى مع ذلك لا أحب أن أسخر

ممن يدعون له الألوهية (١) إن خيال الانسان يخضع على الحياة جمالا

يجعلها جذيرة بأن نحياها ، وما ذا تكون الحياة لو نظرنا إليها

بذلك العقل البارد وحده ؟

ووقفت عن الحديث حيناً وتنفست نفساً عميقاً آخر . ونظر

إليها لونيخين صامتاً . ثم نظر إلى الغرب وقد كادت الشمس تختفى

فيه ، وأراد أن يتكلم ؛ ولكن الملكة نظرت إليه وقالت :

— لست أدري يا لونجين هل كانت الفلسفة نعمة على العالم أم كانت نقمة . ألا تظن الحياة تكون أكثر معنى للناس لو عاشوا بقلوبهم مع الطبيعة كما تمليه عليهم الطبيعة ؟ ألا يكونون أكثر توفيقاً إذا هم أطاعوا وحى القلب ، ولم يعبدوا هذا العقل ؟ لقد رأيت من خداع العقل ما أزعجني في مواطن لا أستطيع عدها ، ولكنى لا أذكر مرة كان فيها وحى القلب كاذباً مضللاً . فنظر لونجين نحوها باسمّاً وقال :

— لقد قضيت أكثر حياتى أتعلم الفلسفة وأعلمها حتى لم تترك لى شيئاً فى الحياة أحب أن أحيها من أجله . ولكنى أجد فى نفسى معنى جديداً يدب اليوم فى أعماقها كأنه ثائر يدبر فى الخفاء مؤامرة ، ولا يريد أن ينطق بحرف ينم عنها . وكنت لا أستطيع أن أكتنه هذا الثائر الخفى حتى سمعت أقوالك لى وأنا ملقّ على الفراش فى سرضى . وإنك لتمعجين يامولاتى إذ تسمعين منى اليوم أنى أوافقك وأتنكر لفلسفتى .

فضحكت الملاكه كأنما الطير يغنى فى نبرات صوتها الحزين ، وقالت وهى تعتدل فى جلستها :

— ما كنت أحسب أننى أفسد عليك عقيدتك فى فلسفتك . أنت تعلمنى الفلسفة ، وعليك أن تصلح من هذه النظرة الجاهلة إلى الأشياء ، وليس يليق بتلميذتك أن تهدم ما أنفقت هذه السنوات فى بنائه .

فقال لونيحين في صوت هادى وهو يتنفس :

— هناك حقائق أدق من أن يدركها العقل في تحليله وتعليله . هناك معان يدركها القلب وحده ، ولا يستطيع العلم أن يكشف عنها . وهذه الحقائق تبدو للانسان أحيانا في لمحات من التجلى ثم لا تلبث أن تدق عن إدراكه الكشيف . ولقد بدا لى شىء من هذه اللمحات في مدة مرضى ، وإلى اليوم أنطق بصدى ما أحسسته عند ذلك . ألا تذكرين يا مولاتى ليلة أشرفت على الهلاك ، وأنت تدهنين جيذنى المحموم بالعطور والماء البارد ؟ لقد كنت تحسبين أننى أهذى فى بحران الحمى ، ولكنى لا أزال أذكر ما كنت أهذى به . لقد كانت تبدو لى عند ذلك ومضات تلمع كالبرق ثم تختفى ، وتبدو لى فيها صور أحس أننى أرى فيها الحقيقة التى قضيت الحياة أنشدتها بغير طائل ، وكنت عند ذلك أنطق هاتفا بما أرى ضنا على هذه الحقائق أن تزول بغير أن أبلغ ما رأيته منها . ألا تذكرين ما قلت فى بحرانى ؟ إننى أذكره كأنما هو مشهد أراه اليوم بعينى .

فنظرت الملكة نحوه جادة ، وقالت بعد حين كأنها تخاطب نفسها :

— لست أذكر يا لونيحين إلا أنك كنت فى خطر من الهلاك ، وأننا كنا نتوجع ونلتمس لك الحياة .

وكأنها أرادت أن تصرف القول عن هذه الذكرى فقالت وهى تتكلف المرح :

— ولكن حذار أن تتمادى فى إفساد عقيدتك فى فلسفتك ،
فهى لى بضاعة كما أنها لك بضاعة .

ونظرت حولها ، وقالت كأنها تخاطب طفلاً من بنينا :

— ولكنك أطلت الجلوس اليوم يالو نجين ، وما ينبغى لك أن
تفعل . فهلم إلى مخدعك .

وقامت تساعده على النهوض ، فقام لونجين وهو متردد
كأنه لا يريد الذهاب ، ونظر إليها نظرة شكر ، وملاً عينيه من
وجهها لحظة ، ثم أغضى و صار فى ضعف وفى قلبه حاجة ، ثم
حياها تحية قصيرة و صار إلى مخدعه .

وجاست زنوبيا وحدها فى الطنف تنظر إلى الفضاء الذى
حولها ، ومالت فى فتور إلى ظهر الأريكة ، وانصرفت إلى خواطر
نفسها تناجيها .

ومرت على ذهنها ذكريات حياتها العجيبة منذ كانت صبية
يتنافس الأمراء على خطبتها ، وهى تحس نفسها تتفتح للحياة ،
ويدب فيها الأمل الغامض الذى يجعل حياة العذراء حلاًماً وردياً .
وتذكرت أذينة عندما رآها أول مرة . لقد كان فى صرامته
وديباً ، وفى عنفه هادئاً ، وفى قسوته ممتلئاً بالحنان . كانت ملامح
وجهه وعرة حادة صلبة ، ولكن نظرتة عندما وقعت عينه عليها
كانت حلوة كالأمل الذى يناعى قلبها ؛ وكان صوته المعتلى يبعث
فى نفسها الاطمئنان والسلام . وكان حديثه عن حروبه

ومخاطراته يحى في خيالها ذكريات الأبطال من أجدادها الذين سمعت عنهم الأحاديث من عجائز القصر .

وصرت أمام عينيها أطيف أيام حياتها مع ذلك الزوج الذى وهبته قلبها ، وتتأبمت مناظرها يتلو بعضها بعضاً سرعاً تتلاحق ، حتى عرضت لها صورة شهناز . وعند ذلك اعترتها هزة عنيفة لم يخفف منها تذكر ما آل إليه أمر تلك المرأة المسكينة من الهوان منذ صارت فى قصرها خادمة ذليلة . فإن قلبها لم يلبس ، ولم يعطف ، ولم ينس أنها هى التى أنست أذينة حبها ، وغيرت قلبها عليه ، وأقامت بينها وبينه سداً منيعاً . ولم تقف لحظة لى تسمع مجادلة عقلها فى أمر تلك المسكينة التى لم يكن لها وزر فيما كان من انصراف أذينة إليها . فحسبها من الجريمة أنه لولاها ما تغير قلب أذينة وما تغير قلبها هى ، ولولاها ما اضطرت إلى أن تصمق فى الحقائق بعقلها ، وتجرد الحياة من زخرفها وخداعها وخيالها . كان منظر هذه الشمس الغاربة يحمل إلى قلبها طرباً ، ويجعلها تتمزج بالطبيعة الحلوة وتحيا معها . وكان البدر إذا سطع فى سماء الصيف الصافية بديع فى الجو الذى حولها موسيقى يصاحبها رفيف أجنحة الملائك الذين يحفون بعرش (عجل بعمل) . وكانت الفلسفة التى تسمعها من معلمها تعينها على التملى بمتعة الحياة ، لأنها تساعد على أن تبصر فى الكون الواسع نظاماً يزيد فى رونقه جلالاً ؛ ولكنها منذ فقدت أذينة اتخذت من

الفلسفة دواءً لآلام نفسها ، فتجردت الطبيعة من حياتها ،
وأصبحت حواسها كثيفة ، فصارت لا تسمع موسيقى الفضاء في
الليلة القمراء ، فإن كانت تقسو على تلك المرأة فما ذلك إلا كما
تقسو الطبيعة الصارمة إذا وجدت في سبيلها ما يعترض سيرها .
ولكن تلك القسوة لم ترجع إليها سلامها ، ولم تخفف عنها
شقاء قلبها ، بل لقد كانت تزداد شقاءً كلما زادت في قسوتها عنفاً ،
حتى كاد الشقاء يخيم على أبعاد كنف وجودها . ثم عرضت لها
بعد ذلك صورة مملها لو نجين . إن المرض قد غيره تغيراً أبعد
من أثره في الهزال والضعف . فلقد أصبح غير ذلك المعلم الحكيم
الذي لا يعرف غير الفلسفة . وصارت تحس في قلبه نبضاً ، وفي
صوته تهديجاً ، وفي نظره ليناً ؛ وأعجب من ذلك كله أنها صارت
تطمئن إلى سماع نبضة قلبه وتهديج صوته ورؤية نظره اللينة .
ونظرت حولها إلى الفضاء بعد هذا التأمل الطويل كأنها
أفاقت من حلم ، فرأت البدر يلمع في الشرق ، ويرسل أشعته الفاترة
إلى رؤوس الشجر ، وجوانب الأعمدة المرمية الوردية . وكان
كل ما حولها ساكناً يشمله السلام ، إلا ذهنها الثائر وقلوبها
الحائرة . لقد عاد كل شيء إلى الهدوء بعد تلك العواصف الجاحمة
التي زعزعت ملكها ، وكادت تدكه من أساسه ؛ ولكن ذلك
الهدوء عاد إلى تدمر ، وقد أصبحت هي وحيدة لا تجد أذينة إلى
جانبا . نعم عاد الملك إلى ولدها وهب اللات فامتلاً عرش تدمر

بصاحبه ، ولكن قلبها بقى خالياً من صاحبه الذى أمسى ثاوياً
هناك فى أطراف الصحراء تحت برجه العالى تحف به الأعمدة
الباسقة . وما كادت تذكر قبر أذينة حتى قامت من مكانها بغير
أن تفكر ، وسارت فى الطنف متجهة إلى باب قاصدة أن تخرج
إلى الصحراء لتقف عنده هنيهة تبكى ، كما كانت تفعل كل ليلة أو
كل يوم ؛ وقد أحست أن تلك الإلمامة بالقبر تبعث فى نفسها
من الهدوء ما لا يبعثه التفكير فى هذه الوحدة فى سكون الليل .
وسارت وحدها خارجة من القصر على جوادها الأدهم ،
يتبعها سائس الجواد عن بعد ، يسير خاشعاً كأنه يحاذر أن يقتحم
على أحزانها بصوت أقدامه على الرمال .

ولما ضربت فى الصحراء نظرت حولها فرأت القمر قد علا
ونشط وتكشف ، وملاً الفضاء الساكن بنوره الرقيق ، فتنبست
نفساً عميقاً ، وأحست شيئاً من الأنس يدب إلى نفسها بعد تلك
الكآبة العميقة التى كانت تخيم عليها فى القصر وهى تناجى
خواطرها . وخيل إليها أنها سائرة إلى لقاء زوجها الحبيب كأنه
ينتظرها ليخرج معها إلى رحلة من رحلاته فى هذه الصحراء التى
طالما شهدت مناجاتهما تحت مثل هذا البدر الساطع .

ووقف الجواد بها بعد حين عند البرج العالى ذى الأعمدة
المرصية الوردية ، فتنبهت إلى أنها عند قبر أذينة الذى مضى عن
هذه الحياة .

فنظرت إلى القبر حيناً وهي شاردة اللب كأنها تستجمع ذكرياتها لتعرف سر وقوفها هناك ، وعادت إليها بعد حين تلك الذكريات في سيل من الشجون الثائرة . هناك أذينة الذى أحبته والذى أنكرته حيناً ، والذى عادت إليه مسرعة لتكفر عنده عن فكراتها ، فوجدته صريعاً لا يسمع اعتذارها ، ولا يفتح ذراعيه لعودتها إليه .

وانفجرت عيناها بالدمع وصدرها بالأنفاس الحارة ، ووضعت يديها على وجهها تحاول أن تكتم صوت النسيج ؛ ولكنها لم تقو على الوقوف ، فترنحت ومالت إلى العمود الأملس تستند إليه ، ثم جلست على قاعدته وجعلت تتحدث بصوتها المخنوق كأنها تخاطب زوجها :

— لقد كنت أسألك نفسى كيف أحيا بغيرك يا أذينة ، وأنا الآن أسألك كيف أخلص من ذلك اليأس الذى يسربل قلبي . صارت الحياة عبئاً ، وصار الفضاء فى عيني ضيقاً ، كأنى أتنفس فيه من ثقب إبرة . كنت أرهب الموت حتى لا أستطيع أن أثبت إذا أنا تمثله ، ولكنى الآن لا آنس إلا إلى ذكره ، وأتمنى أن ألحق بك يا أذينة .

ورفعت يديها عند ذلك عن عينيها ، وجففت ما على وجهها من الدمع ، وقامت فائرة تنظر إلى التماثيل البديعة التى تزين جوانب القبر ، ثم هزت رأسها بعد قليل وقالت كأنها تخاطب نفسها :

— ولكنى لا أومن . ولكنى لا أومن . ليتنى كنت أصدق
أن بعد الموت حياة ولقيا كما يقولون . ليتنى كنت أومن كما
يؤمن هؤلاء النصارى . كما تؤمن ليس .

وذهبت تجر قدميها نحو فرسها ، فركبته فى ضعف ، والسائس
ممسك بالركاب يساعدها على اعتلائه . ثم سارت عائدة إلى تدمر
وهى مطرقة حائرة الفؤاد .

ولما اقتربت من باب المدينة لاح لها ضوء خافت من بيت
صغير ، فنظرت إليه ، وأوقفت جوادها ، وبقيت حيناً مترددة .
ثم لوت عنان الفرس نحو البيت وقالت تنادى خادمها :
— اسبقنى إلى هذا البيت واطرقه .

فجرى الخادم يثب فوق الرمال ، وسارت زنوبيا وراءه
مببطئة حتى بلغت باب الدار ونزلت متجهة إليه ، حتى إذا ما صارت
عند مدخله وجدت ليس مقبلة نحوها ترحب بها فى هدوء ،
فاندفعت إليها فاحمة لها ذراعيها قائلة :

— هلمى إلى يالىس ، فانى فى حاجة إليك .

فأسرعت ليس وفتحت لها ذراعيها ، وبقيتا حيناً متعانقتين
فى صمت ، لا تقطعه إلا أنفاس الملكة وحركة رفيقة من كف
ليس على رأسها . ولما رفعت زنوبيا رأسها عن كتف صاحبته
نظرت إلى وجهها بعينيها المليئتين بالدمع وقالت لها بصوت مختنق :
— أى ليس . لم أكن أعرف أنى آتية إليك الليلة .

ولكن قلبى ساقى إليك .

ثم هزت رأسها وأطرقت قليلا وقالت :

— ساقنى إليك حزنى ويأسى وضعفى ، لأجد عندك ما لم أستطع أن أجده فى ذلك العالم الضيق .

فنظرت إليها ليس عاطفة كأنما هى أم تنظر إلى طفلها ، أو كأنها هى ملكة تحركت فيها الأريحية لنداء قاصد ضعيف . ووضعت يدها تحت ذراعها صامئة وسارت بها مترفقة حتى دخلت إلى بهو الدار ، وفيه مجلس بسيط الأثاث ، ومصباح يتقد عند كرسي قد وضع عنده كتاب مفتوح .

جلست الملكة على الكرسي والتفتت لفظة سريعة نحو الكتاب ، ثم تنفست نفساً عميقاً وقالت :

— كنت تقرئين يا ليس ؟ إن القراءة لا تبعث اليوم فى قلبى سلاماً . فكيف تجدونها ؟

فقالت ليس فى شيء من الخجل بصوت هادئ :

— بعث الله السلام إلى قلبك يا مولاتى . فهو هبة من الله ينزلها فى القلوب إذا شاء .

فحركت زنوبيا رأسها فى شبه يأس وقالت :

— دعوة صالحة يا ليس . ليتنى أجد ذلك السلام ، فأصرف قلبى عن التماس كل شيء آخر فى الحياة . ولكن ما هذا الذى تقرئين ؟ أهو شعر أم هو فلسفة ؟

فقالت ليس ولا يزال الخجل يغشى وجهها :

— لم يكن لى علم بالفلسفة يا مولاتى . ولست أقرأ الشعر .
لا أقرأ إلا هذا الكتاب . هذا إنجيل الرسل .

فرفعت زنوبيا رأسها باهتمام ومدت يدها نحو الكتاب وقالت :
— إنجيل الرسل ؟ وكيف تجدين قراءته ؟

ثم أخذته وجعلت تقلب صفحاته وتقرأ فى بعض سطورهِ ،
وقالت كأنها تحدث نفسها :

— كان بولص السمسطائى أهدانى منه كتاباً فلم أجد
نشاطاً لقراءته . ولست أدري أين وضعته .
فقالت ليس فى حماسة :

— إني إذا قرأت فيه طلع على الأمل كما يطلع الفجر فى
الليل المظلم .

وكانت زنوبيا قد قلبت صفحة منه وجعلت تقرأ فيها :
« قال يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب
وبع أملاكك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ،
وتعال اتبعنى » .

ولما أتمت قراءة الكلمة نظرت إلى ليس وقالت وهى تتنفس :
— نعم يا ليس . هذا هو الحق ، لا يعرف الحق من
يمش فى ضجة الحياة . لا يقترب من رؤية نور الحق إلا من
يصرف عينيه عن وهج الأطماع الكاذبة . لقد عرفت الحياة فلم
أجد فيها إلا كذباً وخداعاً ، ينتهى دائماً إلى الخيبة واليأس .

قابضت ليس ابتسامة وديعة ، وقالت وهي تضع يدها
على ذراع سيدتها :

— هذا صوت الإله يا مولاتي . تريدن السلام لكي تصرفي
نفسك عن الحياة . ولكن سبيل السلام أن تصرفي نفسك
عن الحياة .

فأطرقت زنوبيا حيناً ، ثم هزت نفسها كأنها تعاني نضالاً
شديداً في أعماق نفسها ، وقالت وهي تتنفس :

— من يكون قرب الشاطئ يستطيع أن يخلص إلى المرج
الأخضر . ولكن ويح الذي يكون في قلب التيار الجارف .
خبريني يا ليس كيف استطعت أن تجدى السلوان عن حسان ؟
وكانت ليس لا تنتظر هذا السؤال المفاجئ ، فعراها عند
سماعه شيء من الاضطراب ، ثم تمالكت نفسها وقالت بصوت
فيه أثر من الشجن :

— لم أسأل حساناً يا مولاتي . ولكني أنتظر اليوم الذي
فيه ألقاه . سوف نجتمع عند كرسي الإله الأبدى ، وهناك
سوف أراه ، وسوف نحيا معاً إلى الأبد إذا انقضت هذه الحياة
القصيرة . إنني أذكره صباحاً ومساءً . ولكن ذكراه تؤنسني
وتعينني . وكلما تمثلت صورته سمعت كأن صوته يناديني ويوحى إلي
وكانت زنوبيا تنظر إليها باهتمام وهي تتحدث ، حتى إذا
ما انتهت من قولها رددت آخر كلماتها كأنها تخاطب نفسها :

— كأنه يوحى إليك ؟

فقالت ليس فى حماسة :

— نعم يوحى إلى . فهو مئى دائماً يشاركنى وبعينى .

فأطرقت زنوبيا حيناً ، ثم رفمت رأسها فى فتور وقالت فى

شبه ضراعة :

— إننى شقية يا ليس . فلست أجد ذلك الأمل الذى تحيين

به . ولست أجد فى تذكر أذينة إلا لدعة الألم لفراقه . لا أسمع

صوته ، ولا أجد منه وحيأ . أحس دائماً بالافتقار إليه والوحدة

من بعده . ألا تعودين إلى يا ليس لعلى أجد فى صحبتك ذلك

السلام الذى يمتنع على ؟

فقالت ليس بعد تردد قصير :

— لست أنسى يا مولاتى ما أنا مدينة به لك فى كل حياتى .

ووددت لو كان السلام شيئاً يبذل فكنت أهبه لك ولو حرمت

منه نفسى . ولكن السلام لا يشوى إلا فى القلب ؛ وهو فى

متناول كل قلب يتجه إلى الله وحده . وما أنا إلا امرأة ضعيفة

جعلت حياتى وقفأ على الضعفاء .

فقالت زنوبيا وفى صوتها شعور بالخمية :

— لست أطلب ما أطلب منك إلا لأننى أحس الضعف بعلأ

نفسى . لم آت إليك وأنا ملكة تدمر يا ليس . وإنما أتيت إليك

وأنا امرأة شقية ترجو معونتك .

فمدت ليس يدها ومسحت بعطف على رأس الملكة ، وقالت
بصوت يملؤه الحنان :

— أتستطيعين يا مولاتي أن تبيني كل أموالك وتنفقها على
الفقراء ؟ أتستطيعين أن تنزعي نفسك من الحياة وتؤمنى ؟
فأطرقت زنوبيا ملياً ، ثم تنفست وقامت من مجلسها في شيء
من العنف ، وقالت في صوت به صدى اليأس :

— أعيريني ذلك الكتاب لأقرأ فيه ، لعل أملأ منه قلبي
إيماناً . لكم تمنيت يا ليس أن أومن ، ولكني لأحب الخداع
أريد أن أومن بقلبي ، وكان العقل دائماً يقيدني . ولعل إذا
أطلت القراءة في هذا الكتاب وجدت فيه ما يخفف غل ذلك
العقل عني

فحملت ليس الكتاب وقبلته وقالت للملكة وهي تمد به
يدها نحوها :

— إني أوثرك به على نفسي يا مولاتي ، وما يكون أسعدني
إذا عدت به إلى وأنت مؤمنة . السلام لك يا مولاتي .

فأخذت زنوبيا الكتاب وسارت متجهة إلى الباب صامتة ،
وليس تسير إلى جانبها واضعة يدها برفق على ذراعها . ولما
صارت الملكة عند الباب نظرت إلى صاحبته صامتة ، ثم مالت
عليها فضمتهما برفق ، وأسرعت فركبت فرسها وجعلت الكتاب
تحت ذراعها ، وهمزت الجواد تستحثه . وبعدت عن ليس وما

زال صوتها يرن ويتردد في أذنيها . أتستطيع حقاً أن تؤمن
وأن تجد ذلك السلام الذي تحدثت ليس عنه ؟ أتستطيع حقاً أن
تبصع كل ما في الحياة من زخرف وغنى وسلطان لكي تتبع
يسوع ؟ أما من سبيل إلى السلام إلا إذا بذلت كل ذلك الثمن
الذي يفرضه هذا الكتاب ؟

ولست الكتاب بيدها وهو تحت ذراعها ، واستمرت
تفكر في ليس وأقوالها . وأحست العزة تثور في نفسها عندما
تذكرت ليس وهي تضع يدها على رأسها عاطفة ، كأنما كانت
هي الملكة وكانت زنوبيا إحدى ضعيفات تدمر اللاتي يقصدن
دارها يلتمسن عندها الإحسان .

وكانت قد بلغت باب القصر ، فنزلت عن الجواد وقلبها
ممتلئ بالكبرياء ، ونادت السائس ومدت يدها إليه بالكتاب ،
وقالت له وفي صوتها غضب مكتوم :

— اذهب إلى دار ليس وأعد إليها هذا الكتاب ، ثم
صعدت على درج القصر المرمرى بسرعة ، وقالت وهي تدخل
باب بهوها الفسيح تخاطب نفسها :

— ما بالك يا زنوبيا تهادين في هذا الحزن الذي يضعف
جنانك ؟ وما هذا السلام الذي تهرفين به ؟ لن تكون زنوبيا
غير ملكة تدمر ما بقيت في الحياة .

وارتمت على أريكتها ، وجعلت تنظر إلى الشموع العظيمة

التي تزهى في أركان البهو ، وتتأمل ما حولها من تماثيل وأرائك من الذهب وأوان من المرمر ، وتحف مجوهرات تتراقص الأنوار المنبعشة من فصوصها . ورأت علبة بديعة الصنع استوقفت نظرها بما فيها من زمرد مصر الثمين ، فقامت نحوها وجعلت تنظر في دقائق محاسنها ، ثم رفعت يدها إلى رأسها كأنها ذكرت أمراً كان قد غاب عن ذهنها ، واعتراها شيء من الذعر عندما مرت تلك الذكرى برأسها ، وتراجعت خطوة إلى الوراء قائلة :

— ما هذا الضعف الذي غمرني وأنا ساني كل ما حولي ؟ لقد غاب عن ذهني أن رسول مصر واقف ببابي وقد طال مكثه . وأسرعت نحو ناقوس فدقته في شيء من العنف ، وسارت في البهو في اضطراب يسير . ولما دخل الخادم وحيا قالت له :
— ألا يزال رسول مصر في القصر ؟
فقال الخادم :

— نعم يا مولائي . وقد طلب اليوم أن يستأذن في العودة فقالت له الملكة في بعض الحلق :

— أسرع إليه وادعه إلى الساعة .

وعادت تسير في الغرفة في اضطراب ، تفكر في رسول مصر الذي طال في تدمر انتظاره ، وهي عنه لاهية في شجونها . ألم يكن سبب شقائها ذلك الضعف الذي استولى عليها فأنساها كل ما كان يجب عليها أن تذكره ؟ ألم يكن شقاؤها وليد هذا الجمود

الذى شل كل حركة نفسها ؟ أليست هذه الحياة الجاهمة الحزينة
التي تحيط بها في تدمير أسمى من الموت الذى طوى زوجها الحبيب ؟
وتبدت لها عند ذلك صورة قصر الملك فى الاسكندرية ، ذلك
القصر الذى أقام فيه أجدادها من بنى بطليموس ، وأشر فوا منه
على مجد البر والبحر ، ومحاسن السماء والأرض . وتمثلت لها مياه
البحر الزرقاء الصافية تسطع عليها أشعة الشمس الفاترة فى أيام
الربيع الهادئ ، وسفينة كليوباترة تمايل فوقها وتتحرك مع
المهاذيف المذهبة الممدودة من جانبيها كأنها الراقصة الباردة
الرشيقة ، إذ تخطو خطواتها الموسيقية على بساط من الحرير .
واهتز قلبها عندما تصورت مصر تفتح لها ذراعها باسمه وترد إليها
تاج إيزيس . ما أحلى اسم وهب اللات إذا قرن بملك مصر !
لقد مضى أذينة بمجد الحرب كله ، وما كان ابنها الفتى ليجد
ميداناً آمناً من هذا الذى يتفتح أمامها — ميدان مصر .

أتفرق فى أحزانها وهذا رسول مصر واقف ببابها منذ
زمن ينتظر أن تأذن له ، حتى مل وأيس منها وعول على العودة
خائباً حائقاً ؟ إن مصر تنادىها ، وهناك ستجد فى زحمة الحياة
ومسراتها ما يشفيها .

وتنفست نفساً عميقاً وهى تبسم أول ابتسامة منذ ثارت
عليها العواصف العنيفة التى زلزلتها ، ونظرت نحو الباب تنتظر
قدوم الرسول .

ملك مصر وهب اللات

كانت الاسكندرية تفتتح عينيها للصيف الحالم ، وتستقبل نسيمه الدفء الذي يهب ممتلئاً بعطر البحر ، ويتسلل خفية إلى أعماق الصدور . وكانت الشمس الغاربة لا تزال على عهداتها تهبط إلى صفحة الماء الزرقاء في زفة أنيقة من سحب رقيقة بديعة الألوان ، وهي تميل إلى الأفق مترددة في وجل كأنها تخشى من الماء على جمرتها أن تفتأ .

ولكنها لم تكن الاسكندرية اللعوب الفاتنة التي كانت من قبل عروس البحر الأبيض ومناقسة روما . فقد حطمها الثورات ، ودكتها المعارك المتتالية منذ زال عنها مجد كليوباترة وبيت بطليموس ؛ وكانت أشد السنوات فتكاً بها تلك السنوات الأخيرة التي شهدت تطاحن الأحزاب منذ خرج اميليانوس هلى إمبراطوره الضعيف جالينوس ؛ فإنها منذ ذلك الحين لم تعرف سلاماً ولم تطمئن إلى حكم مستقر ؛ حتى استطاع الزعيم المصرى (تيماجين) أن يستميل (زنوبيا) إلى نصرته ، وأن يطرد الروم بمساعدة جنود تدعى من الاسكندرية ، ويحكم مصر باسم وهب اللات بن أذينة ، ويعمل نفسه باستقلال مصر وإعادة عرشها إلى ورثة بطليموس .

وتحركت الاسكندرية في ذلك الصيف بعد حرب سنتين كما
تتحرك الحسنة التي طحنها المرض ، وقامت تترين لاستقبال
(زنوبيا) ملكة تدمر ، إذ عرمت على زيارتها بعد أن استقر الأمر
فيها لجيشها المنصور .

ولما أقبلت زنوبيا إلى الاسكندرية وحياتها جيش تدمر
الباسل عند باب كانوب ، وركع تياجين بجوار فرسها ليقبل
موطئ قدميها ، جاشت في صدرها شجون كادت تزعزعها
وتكشف عن المرأة التي بين طيات طبيعتها . ولكنها تماكنت
نفسها وسارت في قلب الموكب في عربة مذهبة ، ولونجين يسير في
خشوع وإعجاب إلى جوارها ، والقائد المصري تياجين يقود
جياذ العرب ، وهو ينظر من هوأ إلى الجيش التدمري الكثيف
الذي يملأ الفضاء في طليعة الموكب ناشراً أعلامه تخفق فوق لجة
من السلاح اللامع والدروع المتألقة . وسار الموكب من باب
كانوب ، ولكنه لم يتجه في الطريق الأعظم الذي كان من قبل
نهر الاسكندرية العظيمة ؛ فقد تحطمت في محن النضال قصوره ،
وهدمت معابده ، وطرحت عمده الرخامية السامقة ، ودكت
حدائقه الغناء ؛ بل اندفع السيل المتدفق مع موكب الملكة إلى
شاطئ البحر متجهاً إلى قصر الملك القديم في (الوكياس) .
ونزلت الملكة الحسنة في بيت أجدادها تنظر إلى السماء الصافية
واللجة الزرقاء المتراقصة تحت أشعة الشمس القوية . وأخذتها من

المنظر نشوة غمرتها ، وأرسلت خيالها يسرح في الماضي المجيد إذ لم تقع عينها على شيء يذكرها بالحاضر السقيم في عاصمة مصر العظيمة .

وجلست زنوبيا بعد أيام من مقدمها في طنف القصر الأنيق تنظر نحو البحر ، وكانت الشمس تعلو فوق الأفق الشرقى من وراء كثبان الرمال الصفراء البعيدة عند ضاحية نيكوپولس ، وتبعث الدفء إلى الجو الوسنان ، فتملؤه بالأحلام ، وتشيع فيه نشوة الحياة المليئة .

وكان ماء البحر الصافي يتدافع في رفق على صخور الشاطئ ، وتتخلله أضواء الشمس إلى أعماقه ، فيبدو كأنه البلور المذاب فوق قاع من الرمال البيضاء اللامعة ؛ وكان الهواء يهب مادئاً يحمل إلى رأس اللوكياس روائح الأعشاب البحرية المتراكمة على الجزائر الصغيرة التي تحف بالساحل الصخري الجميل . هذه هي الاسكندرية الضاحكة تتجرد في الصيف ، وتهتف داعية إلى شواطئها الساحرة ومياها الباردة المتألقة بتلك اللغة الأبدية التي سمعتها من قبل كليوباتره ، وحاناسو ، ونيتو كريس . طالما كانت كليوباتره تطل من قصرها المشرف على رأس اللوكياس ، وتبتسم لمنظر الأضواء المتكسرة على تجمعات تلك المياه المتراقصة ، ثم لا تلبث أن تسمع هتاف البحر فتهبط إليه متجردة ، تترد في مائه ، وتسلم نفسها لداعبة أمواجه المرحية .

وقفت زنوبيا في الطنف تتأمل ذلك البحر ، وتستمتع إلى
هتافه فإذا بها تحس في أعماقها تلبية له تبعثها على طاعته .
وهبطت الدرج المرمى الأبيض المنحدر إليه ، وهي تسير فآترة
كأنها في حلم ، حتى بلغت (الرصيف) الحجري الذي تشلعب فوقه
مياه الموج ضاحكة في تدافعها وتجاذبها ؛ ودخلت إلى مقصورة
منعزلة على الرصيف قد أعدت للتجهز للنزول إلى الماء ، وللتجفف
والراحة بعد الخروج منه ، وجلست تنظر إلى اللجة الزرقاء حيناً
وهي وانية ، وتغلاً صدرها حيناً من الهواء الرقيق الذي يجمر على
الماء أذياله في وداعة ؛ وأحست من نفسها ميلاً إلى أن تنغمر في
ذلك الصفاء البلورى ، فقامت تخلع عنها ملابسها في استرخاء حتى
تجردت ، ثم قامت تسير مبطئة فوق الرصيف تغسل رجليها في
المياه المتدافعة إليه من البحر ؛ ثم مالت إلى الماء الصافى المجمع
في بطون الصخر الذى يحف بالشاطئ فإذا بها ترى صورة
منظبعة على صفحته الهادئة فوقفت تتأملها حيناً .

ما هذه الصورة التى رأتها على صفحة الماء الصافية ؟ إنها
صورة دمية أبدع صانعها وافتن في إبراز محاسنها . هذا الوجه
الصغير الأسمر ، وهاتان العينان اللامعتان ، وهاتان الشفتان
الحراران المثلئتان بالحياة والعاطفة ؛ وهذا الصدر البلورى والخصر
الأنيف والقوام الدقيق اللدن ، أهي صورة إيزيس الخالدة التى
تمثلت مرة في الحياة في جسم جدتها كليوباترة ؟ أهذه صورتها هى ،

زنوبيا التي تحارب وتناضل وتجاهد ، ولا تعرف في الحياة غير الهموم ؟ .

وتنفست نفساً عميقاً وهي تهبط إلى الماء وتغمر فيه ذلك الجسم الدافئ ، وتبرد فيه من وقدة حر الصيف . ثم انسابت في الماء في رفق ، وجعلت تسبح فيه في حركة ناعمة فاترة ، وأسلمت نفسها في غمرته لمتعة الشعور بفيض الحياة . وتتابع عليها الرؤى المبهمة ، وهي تتحرك في الماء حركتها المتسقة الوئيدة ، وقد شملها السكون ورنق فوقها السلام .

وبعدت عن ذهنها صور النضال المر الذي سبق مقدمها إلى مصر ، حتى كأنها لم تعرف يوماً عنف القتال ولا مآزق القضاء . وأى شيء أقرب تسرباً إلى خيال المستسلم إلى متع الحياة من الحنين والرقّة ؟ فما أسرع أن امتلأ خيال زنوبيا بصورة كليوباترة التي كانت تهبط إلى ماء هذا الشاطئ نفسه مع أنطون ، وذكرت قسوة الأقدار التي حرمتها أذينة في عنفوان حسناتها وفورة حياتها ، وجعلت تسائل نفسها : أقد حتم عليها أن تقضى باقي الحياة في وحدتها ووحشتها ؟ وتمثل لها حسناتها الذي رأت صورته على صفحة الماء ، وامتلات نفسها رقة تشوبها حسرة . ولكن الهواء الوديع والماء الصافي كانا يذهبان بلذعتها ولا يتركان فيها إلا سيل الرقة الغامرة . ثم خرجت من الماء بعد حين ودخلت إلى المقصورة ، وجعلت تسمع قطرات الماء عن جسمها الأملد

الفاعم في ثوب من السكتان الأبيض ، ونثرت شعرها الطويل ، وجعلت تجذله في غدائر وتأنق في تنصيده ، وهى شاردة العقل تسبح في أفكار غامضة غير مفصلة ، لا تستبين فيها إلا صوراً تلمع أحياناً ثم تختفى .

لقد تركت أذينة في قبره عند تدمر ، ولكنها هى لا تزال حية ممتلئة من الحياة . وليت أذينة كان إلى جانبها لتنعم بحبه في هذا الصيف الجميل في قصر أجدادها الذين آل إليها ملكهم بعد قرون . أين منها زوجها أذينة الحبيب ؟ ولكن ما هذا الخداع الذى تخدع به نفسها ؟ إن الموت قد خلع على أذينة صورة من نسج الوهم الكاذب . بل لو كان أذينة حياً لكان اليوم في هذا القصر وحده . فما كان أحد سواه ليذهب إلى مصر في جيش تدمر الفاتح . وهل كان يختار لصحبته إلى مصر غير شهنار التى اختارها لصحبته إلى الشام وبيثينا ؟ كانت شهنار بغير شك هى التى تقيم في هذا القصر معه ، وتنزل إلى ذلك الماء البلورى إلى جانبه ، وتجلس في هذه المقصورة المنعزلة تستقبل النسيم الوديع الدافئ وهى بين ذراعيه . شهنار الأعجمية ! ويل لها ! إن ذكرها لا تزال تزعمها ، وتملاً قلبها غيرة ، وهى لا تزيد على أن تكون جارية مقيمة في حجرة من حجرات الاماء في قصر تدمر ، تبكى ذلك الحبيب الذى غصبته منها . وكأن هذه الخطرة قد عكرت على زنوبيا متعتها ، فهمت في شيء

من العنف ولبست ثيابها ، وخرجت إلى الشاطئ ذاهبة إلى
الدرج المرمى لتصعد فوقه إلى مخدعها في القصر النيف واتهمياً
للقاء القائد المصري (تياجين) فقد كان على موعد لزيارتها لكي
يقدم لها ولاءه في حفل يجتمع فيه سراة مصر أجمعون ليركعوا
تحت قدمي الملكة التي انتصرت جيوشها ذلك النصر المبين على
جيوش الامبراطور كلوديوس وأخرجتهم من الاسكندرية
يضطربون فوق أمواج البحر في سفنهم المزدحمة التي يلاحقها
فزع الهزيمة . وبدأت لها عند ذلك صورة تياجين المصري ،
ولم تملك فؤادها من خفقة خفقة عند ما ذكرته . إن وجهه
لا يشبه وجه أذينة ، ولونه أسمر كالون القمح الذي تخرجه أرض
مصر ، وعيناه الواسعتان العسلتان ليست فيهما قسوة عيني
الصقر ، وإن كانتا تلعبان في صفاء ، وجسمه الطويل المعتدل
ممتلئ بالفتوة ، ولكنه لا يتنفس أنفاس الصحراء القاسية ، بل
فيه رفق ولين ، وهو يبتسم وينحني في إجلال ، وينظر نحوها
نظرة غريبة فيها شيء من الجراءة .

لم يكن (تياجين) بالسيد الذي يستطيع أن يسيطر عليها ،
ولكن فيه شيئاً يجعلها ترتاح إلى منظره وأحاديثه ، ولا تجد في نفسها
كراهة لجرأته . سيحضر بعد حين إليها حاملًا النقود الجديدة
التي سلكها باسم ولدها وهب اللات ملك مصر ، وقد أمرته أن
يجعل رسم ابنها على وجه منها ، وأن يحفظ صورة الامبراطور

(كلوديوس) على الوجه الآخر حتى لا تظهر أمام أقطار العالم أنها خارجة على الدولة التي كانت صديقة تدمر في تقلبات الحوادث التي مرت على الأرض منذ سنين . فلئن كانت زنوبيا قد غزت مصر بجيوشها فما ذلك إلا لتسكين الثورة التي شبت فيها ، ولم تكن في حربها سوى حليفة الروم تسير على سنة زوجها الباسل أذينة قائد جيوش الشرق وحامي حماه .

وأتمت زنوبيا لبسها الملكي ، واحتفلت بزينتها احتفالاً طال عهدها بمثله منذ كانت تستمد للقاء أذينة . وكان هواء الصيف الدافئ الممتلئ برائحة البحر يشيع حولها جواً وسنان يثير أحلام الحياة الفتية . وسارت نخطر في الطنّف الفسيح المطل على الشاطئ ، وهي في فتور هائل . هناك فوق هذا الشط كانت كايوبتره تسير في الاصباح والآصال مع أنطون يتناحيان بحديث حبهما القوي ؛ وهناك فوق هذا البحر الساجي كانت السفينة الذهبية تحملهما في ليالي القمر الوديمة في مثل هذا الصيف . إن إلهام الشعر لا يستطيع أن يصور ما كان يدور في قلبيهما ، وهما صامتان جنباً إلى جنب ؛ ولكنها هي تستطيع أن تدرك ذلك الحديث الخفي الذي سرى بينهما ، وإن كانت تعجز عن النطق به في اللفظ المبتذل . فإن ألفاظ الانسان تقصر عن مثل هذه المعاني العميقة التي لم تدركها إلا قلوب قليلة على مر الدهر الطويل . إن الألفاظ لم تخلق إلا للتفاهم على ما يحسه

الألوف من هذه الدهماء التي تدب فوق الأرض ، وهؤلاء لا يدركون ما وراء حواسهم وأبدانهم . ولكن نجوى القلوب الكبيرة أبعد غوراً ، وأدق معنى من أن تصورها هذه الألفاظ ؛ فمن يحاول أن يستمد منها ألوانه أخرج صورة مادية شوهاء كاذبة سارت زنوبيا تتأمل في قلبها تلك المعاني الدقيقة المهمة ، وهي في غمرة تشبه أن تكون سحراً ، حتى تنهت إلى صوت يدعوها في رفق ، فاذا به لونيّين ، وقد وقف وراءها في خشوع يحادثها ، فالتفتت إليه ، وصحت من أحلامها وتنفست في شجى ، وقالت في ابتسامة فائرة :

— أنت هنا أيها السيد المبجل ؟

فنظر إليها الرجل متطلعاً بعينيّه كما يتطلع العابد إلى إلهه ، وقال وفي قلبه لدعة من الشجن :

— أرجو أن تكون أحلاماً سعيدة يا مولاتي .

فقالت باسمه وهي أكثر نشاطاً :

— أكنت هنا منذ حين ؟

فقال لونيّين وهو يتنفس :

— منذ وقفت مولاتي .

فقال في صيحة مرحة :

— ولم أحس بأنك هنا أيها السيد المبجل ؟

ثم التفتت إلى البحر وقالت مغيرة مجرى الحديث :

— إن منظر البحر ساحر يا لونيحين .

فقال لونيحين وهو يتنفس :

— وهو مليء بالشعر يا مولاتى .

فقلت مازحة :

— وهل تعرف الشعر يا لونيحين ؟ لم يكن الشعر جديراً
بالفلاسفة .

فأحس الرجل لدعة في قلبه وقال وهو يتنفس :

— ويل لهؤلاء الفلاسفة يا مولاتى . إنهم يكذبون . إنهم
يخادعون الناس ويخادعون أنفسهم . الفلاسفة ، والقديسون ،
والكهنة ، والأبرار ، وكل هؤلاء الذين ينطقون بالمثل العليا ،
كلهم يكذبون ويخادعون . ألم أقل لك ذلك من قبل يا مولاتى ؟
فنظرت إليه زئوبيا في شيء من الارتياح . وقالت :

— إنك حزين يا أيها السيد المبجل . لقد قلت لى هذا القول
فى أشد حالات البحران من الحمى . ولعلك الآن غاضب أو
متعب ، فان هذه ألفاظ حائقة .

فسار لونيحين حتى وقف إلى جوارها واتكأ على جانب السور
المرسى ، وقال متجهاً إلى البحر كأنه يحدث نفسه :

— بل أقول الحق الذى طالما عذبني فى إخفائه . لقد كنت
أنطق بالحق فى بحراني عندما أغفى عني العقل . وإنى اليوم أشعر
بأننى قضيت العمر أ كذب على نفسى .

فنظرت إليه زنوبيا في دهشة ، وبقيت صامدة حيناً ، وأحست
رغبة في أن تغير ذلك الحديث فقالت :

— إذا فلنقرأ الشعر هنا ما دمت قد رضيت عنه .

فنظر إليها لونها في عناد وقال :

-- مالى والقراءة يا مولاتى ؟ ليتنى لم أقرأ فى حياتى
حرفاً . . ولكن آه .

ووضع رأسه على يديه متكئاً فوق السور حزينا .

فقالت له الملكة مرتاعة :

— أبك شئ يا صديقى ؟

فهز رأسه وقال فى حزن :

— ليتنى أستطيع أن أخلص من هذا الذى يعذبنى . هذا

العقل الذى يلاحقنى . إننى وددت لو لم أقرأ حرفاً فى حياتى .

ثم صمت لحظة وتحرك حركة مضطربة ، وقال يراجع نفسه :

— ولكنى لو لم أقرأ ما عرفت الحياة ، وما ساقتنى الأقدار

إلى صحبتك يا مولاتى .

وعاد إلى صمته وارتبأ كه لحظة أخرى ، ثم قال فى يأس

وهو يعصر رأسه :

— أنا فى تيه لا أجد فيه هدى . أنا فى حيرة لا أستطيع

النجاة منها . إن قلبى يحترق . إن ذهنى يتمزق .

ثم رفع رأسه عن يديه وسار مسرعاً عن الملكة ، ولم يجبهها بكلمة عند ما كررت نداءه تأمره أن يغود .

ونظرت زنوبيا في أعقابها حيناً وهي شاخصة ببصرها في الفضاء ، ثم هزت رأسها وتنفست وعادت إلى السور المرمى ، فاتكأت عليه وعادت إلى أحلامها الفاترة . وكانت بين حين وحين تتذكر لونيحين وهو يولى عنها في هذا الحلق الذي يشبه الجنون ؛ ولكنها كانت لا تلبث أن تصرف صورته عنها قائلة : « مسكين أيها الصديق » .

وبعد حين أقبل عليها تيماجين داخلاً من البهو في خطى سريعة ترن أصداء وقعها إذ يسير ، فالتفت وراءها وتبسمت له عندما وقع نظرها عليه ، واعتدلت إليه تحييه ، فأمرع يسير في خطاه الواسعة ، رافع الرأس لامع العينين محمراً الوجه ، وقال لها وهو ينحني وقد امتلأ وجهه بابتسامة :

— المجد لك يا مليكة مصر ! .

فمدت إليه يدها وقالت باسمه :

— ولك الإجلال يا أمير الجيوش العظيم .

فرفع يدها إلى فمه فقبلها في خشوع ، ثم أبقاها في يده حيناً وقال ناظراً إلى البحر :

- كأن كليوباتره قد عادت إلى الحياة .

فأغمضت زنوبيا عينيها لحظة قصيرة ، وسحبت يدها من يده

في رفق ، وسنحت في ذهنها خاطرة من العجب لجراته ، ولكنها
تبسمت وقالت :

— حقاً أن هذا القصر مليء بالذكريات .

ثم سارت إلى جواره في الطنف ، وجرى بينهما الحديث
في هدوء .

فجعل تباحين يقص عليها أخبار الاسكندرية وما جرى فيها
من نضال بين الأحزاب وما جره عليها ذلك النضال من خراب
ذهب بمحاسنها وغير معالمها ، وأزال كنوز الآثار التي تكدست
فيها على مر السنوات من مخلفات أجدادها آل بطليموس ، ثم
نظر إليها متلهلاً وقال في سرح :

— والآن يا مولاتي قد حاب لعروس العالم أن تعود
إلى مجدها .

فنظرت إليه زنوبيا وكانت تتابع حديثه مستغرقة في اهتمامها
وقالت وهي تنفّس :

— أرجو أيها السيد الباسل أن يصفو لها الدهر .

ثم اتجهت ببصرها إلى الأفق البعيد من قبل البحر ، كأنها
تستطلع ما يخفيه وراءه من مخبات الغيب . وقالت بعد حين تشير
إلى حاجز الميناء البعيد :

— قد وددت لو كان هذا الحاجز سوراً تستطيع أن تجعل
فيه ربيّة وجنداً .

فابتسم تيماجين وقال في استخفاف يشوبه المرح :

— وماذا تخشى الملكة من وراء هذا البحر بعد اليوم ؟

فقالت الملكة بعد صمت قصير :

— أولى بك يا أيها الشجاع أن تعرف مقدار قوة هدوك .
أتحسب رومة ترضى عن هزيمتها ؟

فانفجر القائد الشاب ضاحكا وقال في خفة :

— رومة ! إن للدول آجالاً حتمتها الآلهة كما حتمت آجال
البشر . لقد كان من قبل رومة دول بلغت من المجد مثل ما بلغت .
ثم أين هي اليوم ؟

فنظرت زنوبيا إليه في شيء من العجب ، وصرت على وجهها
سحابة رقيقة من التعجب ، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى الهدوء
وقالت باسمه :

— أظنك لا تعرف يا سيدي القائد ما في هذه الدولة من
قوة . حقاً أنها اليوم تعاني محناً وشدائد منذ حطم سابور
جيش فالريان . وكان من نحسها أنها لم تجد في ولده جالينوس
رجلاً يستطيع أن يقيها من عثرتها . ولكن . . .

فأمرع تيماجين فقال في شيء من الخفة :

— ونحسبين هذا الشيخ الفاني كلوديوس يعيد إليها مجدها ؟

فسنحت عبسة على وجه الملكة وقالت في جد :

— عفواً أيها القائد الباسل إذا نهيتك إلى خطئك . فليس
كلوديوس كل ما عند رومة . حقاً هو شيخ فان كما تقول ،
ولكنه استطاع أن يجمع الجيش ويزيل عنه ما اعتراه من
الفرقة التي أصابته منذ هزيمة فالريان . ولا شك أن رومة اليوم
تتموئب للانتقام . أنت لا تعرف رومة يا أيها السيد الباسل .
ثم التفتت نحو الشاطئ الصخري الجميل ، وجعلت تتأمل
ألوانه الباهرة في صمت ، وأخذ تيماجين يحدّثها عن حصون
الساحل وما طراً عليها من خلل وما اعتزم إصلاحه منها ؛
ثم تنقل بها في الحديث إلى وصف أحياء الاسكندرية وما فيها
من آثار ، ويصف لها ما اعتري تلك الآثار الجليلة من فساد
وتهدم في معارك الأحزاب ، وهي غارقة في تأملها . وكأنه أدرك
أثر هذا الوصف الحزين فيها فقال عائداً إلى صرحه مغيراً مجرى
الحديث :

— ولكن ذلك كله عهد قد انقضى ، وهذا المستقبل
يبسم للاسكندرية منذ طلعت عليها يا مولاتي
ثم نظر إليها باسمّاً وقال :

— وهذه الليلة ليلة البدر . والقمر الكامل يملأ الجو
سحراً . أما تخبين يا مولاتي أن تجولي جولة في هذا البحر تحت
ضوئه الفضي ؟

فتنفست زنوبيا وعاد إليها البشر وقالت :

— نعم هي ليلة لا تعود إلا بعد شهر يا أيها السيد الباسل .
ثم مدت يدها إليه فتناولها في رشاقة وسار بها داخلا
إلى البهو الكبير وقال :

— هل ترى الاسكندرية بعد الآن غير إقبال السعود ؟
إن إريس تبتسم راضية ، وليس للأقدار إلا أن تطيع إريس ؛
فقلت زنوبيا وهي تسحب يدها من ذراعه وتتجه نحو
أريكة في صدر البهو :

— إذا فالليلة نجول في هذا البحر بعد أن ينقضى الاحتفال .
ثم رفعت عينيها إلى وجهه ، فقابلت عينييه الباسمين ،
وقالت له في صرح :

— وهل أعددت دنائير (وهب اللات) ؟

فأسرع تهاجين إلى أقصى البهو وحمل صندوقاً من الذهب
بين يديه ، وعاد به ثقيلاً في خطاه حتى وضعه تحت قدميها ، ثم
جثا إلى جانبه وفتححه وملاً يديه من الدناير التي تملؤه ورفعها إلى
الملكة الباسمة قائلاً :

— المجد للملكة وابنها إلى الأبد .

فتناولت زنوبيا قبضة من تلك القطع اللامعة وجعلت
تأملها في نشوة وتقليبها في يديها ، وتنظر إلى صورة وهب اللات
حينئذ وصورة الامبراطور كلوديوس حينئذ ؛ وكانت الأصوات
تنبعث إلى البهو من فناء القصر تؤذن بأن الجمع الزاخر قد

التأم من جيوش تدمر وجنود مصر ومن سراة الاسكندرية
ووفود العواصم ، وقد جاءوا جميعاً في شوق إلى أن تطالع عليهم
الملكة الحسناء سائلة كل يوم بتره .

وأعادت زنوبيا الذهب إلى تيماجين وهي في شيء من الدهول ،
ثم قامت مبطئة وعليها أثر من هزة الشجن الثائر ، ومدت يدها
نحو تيماجين بغير أن تنظر نحوه وقالت :

— تقدم أيها السيد الباسل لأتكىء على ذراعك .

فأسرع تيماجين ووجهه يفيض بشراً ، وسار إلى جانبها في
خشوع نحو الدرج المرص الذي يهبط إلى الفناء ، وأشار إلى
أميرين من أصراء جند مصر أن يحملوا الصندوقين الذهبيين
وراءهما لتنتثر منهما الملكة المجيدة على رؤوس الجمع الحاشد
ذكري لذلك اليوم السعيد .

نفس هائرة

كان البدر يسطع بنوره السحري فوق مياه البحر ، ويضيء آفاقه بضوئه الرفيق ، فتبدو غامضة كأنها آفاق عالم الأحلام . وكان الهواء يحمل صوت الأمواج المتكسرة على حاجز الميناء البعيد فيردد في أصدائه معنى الرهبة من القيب المجهول . هكذا تتلاقى الانسانية صوت الفضاء المحجوب عن عينيها ، وهي لا تستطيع أن تدرك مبعثه أو تعرف غايته . ووقف لومجين في طنف القصر يحلق في الفضاء الذي حوله ، ويدور بعينييه يحاول أن يتمرر بنظراته في أذيال السفينة الذهبية اللون ذات الشراع الأبيض والمجاديف الفضية ، التي سارت فيها زنوبيا في جولاتها في البحر مع تيماجين تحت أستار ذلك الليل القاسي . ولكن ضوء القمر كان يحاور عينييه ، وكأنه أراد أن يسخر من شجونه الثائرة ، فكان يبدى له أحيانا لمعة من بياض فيثب بنظره إليها يحسبها الزورق الملكي ، ويهم أن يعلق بصره به فإذا ذلك البياض موجهة فائرة تضمحل وتخبو تحت بصره الكليل ، فيرد طرفه عنها ليعيد البحث في أكناف الماء مقدسًا بنظره بين مياهه المتقلبة ، لعل بياض القلوع يبدو له بين طياتها ؛ ولعل الزورق يعود إلى مرساه راجمًا بالملكة إلى الشاطئ . بعد تلك الجولة الطويلة التي ملأته قلقا .

وكان ذهنه المحموم يحمل إليه ذكريات حياته بين ماضيها وحاضرها في تراحم وتلاطم . وأى حزن لم تمتحنه به تلك الحياة ؟ لقد قست الحياة عليه حتى لم تدع في قلبه غير الفزع والألم والخوف ، وسلبته تلك الألوان الزاهية التي تجعل الأيام والليالي نشوة تبعث في ركودها هزة من السعادة . أحب في شبابه فإذا وجد من أعقاب المحبة ؟ لم يجد إلا تفاقه ونفاقاً ، وخيانة وخيبة . وما كان أشد الطعنة لكبريائه وثقلته بنفسه حتى عنزف عن الحياة وأقبل على الفلسفة والقراءة والعلم لينصرف عن كل شيء في ذلك العالم القاسي غير حياة الفكر والمثل العليا . وسلا على الحب في تأمله ودراسته فإذا جنى بعد ذلك من التأمل والدراسة ؟ لم يجد إلا ذلك الركود الذي ملأ قلبه برداً ، وذلك الخلاء الذي ملأ نفسه وحشة ، وتجردت الحياة أمام عينيه حتى أصبح لا يراه الناس إلا كتاباً ودرساً ، وحتى ضاق بنفسه كلما رآها قد آلت إلى أن صارت كتاباً ودرساً . وترك الحياة كلها وحرم نفسه من متعتها ، على حين كان الناس جميعاً يعيشون وينعمون ويتمتعون بكل متعة من متع الجسد الدافئ . ثم عرف زنوبيا — تلميذته وصديقتها زنوبيا — فالتحذت الفلسفة لونهاً آخر غير ما كان لها ، وسرت الدماء الدفيئة مرة أخرى في حياته الراكدة ، ودب في أعماق قلبه حنين إلى أن يعود كما كان من قبل : رجلاً له قلب ينبض ، ونفس تحس ، وأمل يجيش في

صدره . ولم يتنبه إلى التغير الذى دب فى أعماق قلبه حتى تكشف له على حين فجأة عند مرضه ، فاذا به يسخط على نفسه وعلى الفلسفة التى أصارته إلى كتاب ودرس ، وتحركت شجونه التى كان يكتبها ويحكمها ويكبحها ، وعصته وأخذت تدافعه حتى رآها تغلبه وتمثوره ، وتملؤه حيرة وشقاء . وهى ذى تلميذته زنوبيا تتركه خلفها على الشاطئ ، وتخلو فى الزورق الذهبى الأنيق مع ذلك القائد الجرىء المصرى ، وقد رآها تميل على ذراعه وهى نازلة على سلم القصر نحو السفينة المتراقصة فوق الموج . ماذا بقى له من زنوبيا ؟ وماذا بقى له فى الحياة إذا لم يبق له شيء من زنوبيا ؟ لقد كان يخفى شجون قلبه عن نفسه يحاول أن يخدعها عنها ، ولكن الحقيقة صعدت رأسه ، ولم يبق له جلد على إخفائها . إن الملكة الحسنة تملأ قلبه ، ولا يجد لنفسه وجوداً إلا فيها ، ولا يجد فى الحياة معنى إلا إذا كان يستمدّها منها .

ألم يكن أشد الناس حمقاً إذ كابر وأخفى ، وخادع نفسه عن الحقيقة التى كان يعرفها ؟ أما كان أولى به لو كشف نفسه بذلك السر الدفين ، وعالجها حتى أبرأها ، وحملها على السلوان والعودة إلى زهده ، واستئمان على أمره بما عنده من علم وفلسفة وحجة وإرادة ؟ وإذا كان ذلك السلوان لا يواتيه أما كان أولى به أن يطعن قلبه طمئة جديرة بمن كان مثله من أصحاب الفلسفة والعقل ؟ أكان يجدر به أن يحرص على حياة قائمة على الخداع واليأس ؟

وماذا كان يطمع فيه من وراء هذه الشجون التي أباح لها أن تنمو
وتتقوى تحت ستار خداعه ؟ أكان له أن يطمع في حب زنوبيا
ملكته تدمر التي لا يقوى على أن يملأ عينيه منها ؟ وما الذي
غمر به حتى خادع نفسه عن حبها ؟ لقد طالما غمر بنفسه قائلاً
لها إنه يقنع منها بأن يعبدها كما يعبد الكاهن إلهه . ولكنه كان
كلما نظر في أعماق نفسه عرف أنه كان يحبها كأشد ما يكون حب
الرجل للمرأة . إنه كان يحب حديثها وقربها ، وتنعشه أنفاسها
إذا هبت عليه ، ويحمل إليه النسيم المنبعث منها رائحة السعادة
الساحرة ؛ وكانت نظرتها ترسل فيه هزة تزعزع كيانه ، ولمسة
يدها إذا ما صافحها تملأ دمه حياة . فماذا ينطوى تحت كل هذه
المظاهر إلا الحب القوي الذي يملأ قلب الرجل من المرأة ؟ أليس
من الرياء أن يتستر وراء الكذب ، ويسمى ذلك الحب عبادة أو
إجلالاً ، أو كما سماه أستاذه أفلاطون حباً سامياً ؟ .

وأى حماقة دفعت به إلى أن يغالق عينيه بمد أن تبين له الحق
حتى آل أمره إلى أن يفيض بهذا الشقاء ، وهو واقف في ذلك
الليل يحملق في الفضاء يتربص أن يطلع عليه الزورق الممكي من
ثنايا أشمة البدر الخافتة ؟ وماذا يكون نظرها إليه لو تكشف
أمره لها ، وعرفت ما امتلأ به صدره الجائش من الشجون
الجريئة الحمقاء ؟ أكانت زنوبيا لترضى في كبريائها أن تتطلع إليها
أشجان مثله ، وهو لا يزيد على أن يكون عوداً من الكلال

يستظل بظلها ؟ وأى جزاء يكون ذلك لما وجدته من عطفها وبرها وكرمها ؟ إنها بقيت عند سريره عاكفة عليه في مرضه حانية كما تحنو الأم على ولدها . فأى كفران ذلك الذى دفع به إلى أن يتمادى فى أمانيه الكواذب وطمعه المنكر .

وفما كان لونيحين يقلب عينييه فى أطراف البحر ، ويراجع خواطره فى حلق ، بدا له الزورق الأنيق ينساب خفيفاً مع ضربات المجاذيف الهادئة كأنه الأمل يطالع على الفريق إذا عثر بجذع يطفو بين ذراعيه المضطربتين وهو مشرف على الهلاك . ونزلت الملكة على الشاطئ خفيفة ، وتماجين يرفع ذراعه القوية ليساعدها . ثم صعدت ترتقى درجات السلم الرخامى ، وأقبلت إلى الطنف تسير باسمة نحو معلمها عندما أبصرته يتحرك نحوها يستقبلها . ولما اقتربت منه ورأت وجهه على ضوء القمر بدا لها فى شحوب ووجوم ، ورأت من نظراته أنه يخفى تحت هدوئه الماكويه . وكأنها أدركت بغريزة المرأة ما أغناها عن التساؤل والعجب ، فأخفت ابتسامتها فى تحية جادة ، وأسرعت فالتفتت إلى تماجين وكان يسير وراءها ، فقالت له فى تأدب وتجميل :

— شكراً لك أيها القائد الباسل على هذه الجولة الساحرة .

وإلى البدر المقبل إذا شاءت لنا الآلهة البقاء .

ثم ابتسمت ومدت نحوه يدها بالتحية ، فانحنى القائد المصرى

فخياها في إجلال . ثم خرج وفي خطواته السريعة ما ينم على شيء
من حنق الخيبة .

وأحس لونجين شيئاً من الراحة عندما سمع خطاب الملكة
للقائد ، وإن كان لم يدر مبعث هذا الارتياح . فقد وقع في نفسه
أن تحيتها لم تكن مما يزيد الآلام التي بقيت تعصر قلبه منذ
أول تلك الليلة .

وذهبت الملكة إلى أريكة في الطنف فجلست عليها ومالت
إلى ظهرها كأنها تستريح من جهد طويل ، وقالت مخاطبة لونجين
وهي مغمضة عينيها :

— أما تجلس قليلاً في هذا النور الرفيق ؟

فسرى عن قلب لونجين ما بقى به من الألم ، وجلس إلى
جوارها ينظر إلى وجهها ، وهو يبدو شاحباً تحت شعاع القمر ،
وجمل يتأمله كما يتأمل الفنان البارع تمثاله الدقيق الذي أبدعه
قرباناً لآلهه .

وقالت الملكة مخاطبة بعد صمت قصير ، وقد فتحت عينيها
في فتور :

— فيم كنت تفكر يا لوجين ؟ لقد بقيت وحدك منذ
تركك ، وأملك لم تقرأ شيئاً .

فقال لونجين وهو يتحرك مرتبكاً :

— لم أقرأ شيئاً يا مولاتى . وإن كنت أرى صفحات جديدة من الحياة .

فقلت الملكة :

— وماذا يقرأ الانسان فى صفحات الحياة إلا أن تكون آلاماً ؟ إن الحياة لا تستطيع أن تسطر الأفراح والسعادة . فقال لونيخين مسرعاً :

— حكمة بالغة يا مولاتى ! تمر لحظات السعادة بغير أن تخط فى الحياة أثراً . ولكن الشقاء وحده يستطيع أن يكتب السطور بحده القاطع .

فتنفست زنوبيا وقالت :

— ولم تكن الحياة بنا رحيمة يا لونيخين . أحس أننا نتقارب فى ظلمة الحياة .

فقال لونيخين فى شيء من الدهشة :

— أما أنا فقد وجدت الحياة قفراً منذ أدركت ممناها . لم أدرك ما غايتها ، ولم تشاورنى الآلهة عندما قذفتنى إليها ، ولم تكن رحيمة بى ، فلم تخادعنى بتلك الشواغل التى تلهى الانسان عن نفسه فيها . فقطعتها لأعرف إلا الحقائق الجاهمة ، وعلى أن أصبر حتى أصل إلى النهاية .

فقلت الملكة ، وفى صوتها رنة ألم :

— تتحدث عن نفسك كأنك تظن أنك الشقى فى هذه

الحياة ، ولعلك تحسب أن الآلهة كانت أكثر ترفقاً مع سواك .
وأما أنا فلست أدري أيهما أشقى : من لم يعرف السعادة ، أم من
ظن أنه عرفها ، ثم أبصر نفسه بعد حين قابضاً على الربح ؟ لقد
سمعتك يوماً تقول : لا يعرف وحشة الظلام من ولد أعمى . أليس
الذى لم ينخدع يوماً بزخرف الحياة أقل شقاءً ممن تورط في
ذلك الخداع حيناً ثم فتح عينيه فجأة للحقائق المريرة ؟

فتنفس لونجيين وصمت قليلاً ثم قال :

— ولكن من ذا الذى نجا من إغراء زخارف الحياة ؟

ثم أطرق وعاد إلى صمته . فاعتدت زنوبيا فى جلستها وقالت

فى حرارة :

— حتى أنت يا أيها الحكيم ؟ .

فقال لونجيين متردداً ، وفى صوته رنة الحسرة :

— أنا ؟

ثم قال فى صوت هامس كأنه يحدث نفسه :

— ما أنا إلا كتاب . ما أنا إلا خيال .

فنظرت إليه زنوبيا جادة وقالت :

— لقد قلت لى مرة هذه الكلمة فى حنق ، وأنت تعيدها

لى الآن فى يأس . أى مأساة تلك التى تدمى قلبك ، وتحاول

إخفاءها تحت هذه السخرية المرة ؟ .

فرفع لونجيين بصره إليها صامتاً ، وأحس ما فى قولها من علو

وعطف فقال في نبرات متهدجة :

— لست أخفى شيئاً كنت أستطيع أن أكشفه . أو أكنم شيئاً أراه جديراً بأن يظهر وينكشف . وما قيمة مأساتي في هذا الوجود حتى أعرضها وأكشف عنها ؟

فقالت زنوبيا في عطف :

— ولكذك تبقى عليها في مكمنها ، وتزيدها تغلفاً في نفسك كلما زدها تغطية . ولن تجد لمأساتك دواءً إلا أن تصارح نفسك بها أو تفضي بها إلى صديق . لقد سألتك يوماً : « هل عرفت المرأة ؟ » ولكذك لم ترد أن تفضي إلى بسرّك ، وآثرت أن يظل الغطاء محكماً . أما تذكر ذلك يا صديقي ؟

فقال لونيخين متنفساً :

— نعم أذكر ذلك يا مولائي .

فقالت زنوبيا :

— لن تجد من يحدثك عن المرأة مثلي . فلقد عرفتُها كما لم يعرفها أحد سواي . لم أسمع رجلاً يتحدث عن مأساة إلا كان يقصد المرأة . ولكن المأساة ليست في المرأة بل في نفوس الرجال وعقولهم ، لأنهم لا يعرفون المرأة على حقيقتها . ليست المرأة مأساة الحياة ؟ .

فقال لونيخين في شبه أنة :

— هي كذلك بغير شك .

فقلت زنوبيا في شيء من الحماسة :

— سأحدثك عنها فاني أعرفها ، ومتى حدثتك عنها لم تجد

فيها ما يستحق أن يكون محل الأسى .

فنظر إليها لونيحني في اهتمام ، ومالت زنوبيا على ظهر الأريكة

واضعة يدها تحت رأسها ، وجعلت تحدثه كأنها تصف له مناظر

منطوية في أعماق وجودها . قالت :

— أنا لا أحب أن أخدع نفسي يا لونيحني ، كما لا أحب أن

أخدع الناس عن نفسي . ولكن أشد الناس خداعاً لأنفسهم هم

هؤلاء الذين يسمون أنفسهم الفلاسفة . لقد كنت يوماً أقرأ

ما كتبه أفلاطون عن المرأة والحب ، فلم أجد في كتابته غير

أوهام وتفرير . لقد خلق الفلاسفة شيئاً سموه الحب ، وأضافوا

عليه ألواناً من خيالهم كأنه من عواطف الملائكة . أتظن المرأة

تفهم من كل هذا شيئاً ؟ .

فقال لونيحني في دهشة :

— ومن أقدر من المرأة على فهم الحب يا مولاتي ؟ .

فقلت زنوبيا في شيء من الاستخفاف :

— هذه الألفاظ كلها من صنع الرجال ، ولا تفهم المرأة منها

شيئاً ، ولا تظن أنني أنقص من قدر النساء يا صديقي . لست ألقى

على المرأة يوماً ، فاللوم لا مكان له فيما تحتمه الطبائع . اللوم معناه

الدم ، ولست أدري إذا كان لنا أن نذم أحداً من أجل طبعه .
أتلوم البحر على أنه يغرق ، أو السبع لأنه يفترس ، أو السم لأنه
يقتل ؟ هذا طبع الأشياء وإنما اللوم على من يكلفها ضد طبايعها .

ونظرت عند ذلك إلى الرجل فوجدته ينظر إليها في دهشة
وخجل . فاستمرت تقول ، وكأنها أرادت أن تخفف عنه :

— الذى يزعم أن المرأة خلقة مثل خلقة الرجال ، وأنها
تفهم أمور الحياة كما يفهمها ، يخطئ خطأ بعيداً ، ويندفع إلى لوم
لامبرر له . المرأة تندفع مع طبعها ، والرجل يحاول أن يقيس
وأن يعمل وأن يجادل . المرأة تعيش فى دائرة نفسها ، ولكن
الرجل لا يهتم إلا بالعالم الخارجى الذى يهيمه . المرأة لا تعبأ بشيء
فى العالم الخارجى ، وكل شيء له قيمة فى نظرها يرتد إلى نفسها
وإلى شخصها . الرجل يطلب المرأة كما يطلب الصيد ، وكما يطلب
الحرب ، وكما يطلب السيادة ، ويريد منها أيضاً ما يسميه الحب .
ولكن ما هو الحب ؟ ما هو الحب الذى يريد الفلاسفة أن
يجعلوا منه أسطورة ؟ الحب كله خرافة ، فما هو إلا وسيلة الطبيعة
فى حفظ الجنس البشرى . فالمرأة وعاء البشرية تقاسى الآلام من
أجل تخليدها ، وهى تتقاضى ثمنها من الرجل ، وليس من فرق
بين امرأة وأخرى إلا فى ذلك الثمن . قد يكون الذى تبذله من
نفسها شيئاً يسميه الرجل حباً سامياً ، وقد يكون ما يسميه
بهميمة وخيانة ، ولكنها فى كل الأحوال تبذل ما وهبته لها

طبيعتها . فبعض النساء لا يستطيع الاختيار إلا بالحس الأعشى ،
وبعضهن يستطيع الاختيار بالذكاء والتمييز ، والرجل في جهله
يسمى الأولى بهيمة والأخرى عفيفة ، ويسمى حب الأولى
دنيتاً وحب الأخرى سامياً ، وما هذه كلها إلا ألفاظ .

فقال لونيحين منفجراً :

— تخيري ما شئت من الألفاظ يا مولاتي ، ولكن هناك
دائماً الحب السامى والحب المبتذل . وهناك المفة والدناءة .
فقلت زنوبيا باسمعة في هدوء :

— قلت لك إن الرجال لا يستطيعون أن يفهموا المرأة ، ولكنى
امرأة أمتاز على النساء بأننى أستطيع أن أقول بغير رهبة ..
وإذا أراد الرجال أن يتحدثوا فليتحدثوا عن أنفسهم وليدعوا المرأة ..
فقال لونيحين في شبه صيحة :

— إذا كانت المرأة لا تفهم من الحب إلا نداء الغريزة فهى
غير جديرة بالانسانية .

فضحكت زنوبيا ضحكة عالية ، ونظر نحوها لونيحين متألماً في
خجل ، فمالكت نفسها وقالت في لهجة الاعتذار :

— لا أقصد كل ذلك يا صديق المبجل . ولكن لم تزدري
المرأة إذا كانت لا تفهم إلا نداء الغريزة ؟ .

فقال لونيحين في شيء من الحنق :

— وأين إذا الاستملاء ؟ أين التسامى الجدير بالانسان ؟

فأمسكت زنوبيا حيناً قصيراً عن الرد ثم قالت فى بطاء :
— نعم هذه كلمة أخرى . كلمة صنعها الرجال ، وكان جديراً
أن يصنعوها لأنفسهم وحدهم . أذكر مرة أنك قلت لى إن
الرجل إذا أحب بذل لمن يحب ماله وسخر قسوته وقوته ، ووهب
فنه ومهارته . نعم هو يهب ذلك كله ثمناً لحب المرأة . والذى
يستطيع أن يهب ويبذل يقدر على أن يقنع بالخيال الذى فى
نفسه إذا لم يفز ببضاعته ، ولكن المرأة لا تقدر أن تهب إلا
ميراث الجنس البشرى ، وحسبها ذلك يا صديق .

ثم أمسكت عن الحديث فجأة ، وقامت تسير فى الطنف على
هينة ، وتنظر إلى أضواء البدر فى صمت .

وكان لو نجين يستمع إلى حديثها فى اهتمام وكأنما كانت
تفتح له بالفاظها عالماً مغلقاً طلع عليه فجأة بعلم جديد . ورنّت
كلماتها الأخيرة فى أذنيه وتردد رنينها فى أعماق صدره . فلما
انتهت من قولها أطرق يستمع إلى أصداه كلماتها ، وغاب فى
تأمله وجعل يستعيد ما صر به منذ أول تلك الليلة من شجون
منقرت قلبه .

هى إذا امرأة لا تفهم غير وحى الغريزة كسائر النساء .
حتى لا تفهم من الحب إلا أنه خرافة من تأليف الفلاسفة .
أكانت تسير فى البحر تحت ضوء هذا القمر الساحر مع تياجين
تناجيه بوحى تلك الغريزة التى تتحدث عنها ؟

وعادت زنوبيا من سيرها عند ذلك حتى وقفت إلى جانبه وهو لا يزال غارقاً في تأمله ، فوضعت يدها على كتفه وقالت باسمه :
— أظنك لا تزال تحدث نفسك عن تلك الأقوال التي سمعتها مني .

وجاست إلى جانبه على كرسيها ، ونظرت إلى عينييه الحائرتين وقالت في عطف ووداعة :

— لقد قلت لك ما قلت لكي أطلعك على ناحية أظنك لا تعرفها من المرأة ، ولكنني أخشى أن يكون قولي داعياً لسوء ظنك بها .

فرفع لونهاجين بصره إلى الملكة في لهفة فقالت له باسمه :
— لست أنكر أن المرأة تستطيع نوعاً من الاستعلاء كما يستطيع الرجل (١) فالرجل إذا تسامى وهب للمرأة كل شيء ولم ينتظر منها بضاعة ، ولكن المرأة إذا تسامت كان تساميتها في تخيير ما يبذلها الرجل لها .

فنظر لونهاجين نحوها فأحجأ عينييه كأنه لم يفهم قولها ، فقالت له ولا تزال باسمه :

— أظنك لم تفهم ما أقصده ، وسأبين لك معنى ذلك القول الغامض . إنني امرأة أستطيع أن أحدث بما لا تستطيع امرأة أخرى أن تفعله . وسأحدثك عن نفسي حديثاً يصور لك المرأة التي بين ضلوعي .

كنت اليوم فى الصباح أسير فى هذا الطنف أنظر إلى البحر
فى دفء الضحى الوضاء . فاستهوانى البحر وسرى فى عروقى
النسيم الدفء ، فخلعت ملابسى ونزلت إلى الماء ، ورأيت خيالى
على صفحة البحر الساكن ، ونظرت إلى صورة جسمى ولا يزال
فيه رونق الشباب ، فأذكرنى ذلك كله بمتعة الحياة ، وحركات هذه
العوامل طبيعى التى لا تزال مستعدة لأداء وظيفة المرأة
فى الحياة .

وصمتت حينئذ متردة ثم تنفست وقالت :

— فلما وقفت بعد ذلك أنتظر تهاجين ، تذكرت حياتى
الماضية وما أصابنى فيها من جراح ، وامتلأ قلبى بالخيال . فلما
أقبل على الشاب المصرى رأيت نفسى تتحول تحت أنظارى ،
فاذا بالمرأة التى فى " تصيحح بغريزتها فى أعماقى . وإذا بى أرى
فى نفسى شخصين ، شخصاً عاقلاً ، وإلى جانبه حيوان ثائر .
فتمتم لونهجين فى يأس كأنه يحدث نفسه :

— حتى ملكة تدمر ؟

فهزت زنوبيا رأسها باسمها وقالت :

— حتى أنا . حتى ملكة تدمر . ولكنى أستطيع أن

أتحدث ، فاسمع تمة حديثى :

— لقيت تهاجين بعد ذلك ، وتصورت كليوباتره وأنطون ،

ونسيت كل شىء آخر غير أنشودة حبهما الخالد . ولما دعانى ذلك

الرجل إلى الزهرة معه في البحر امتلاً قلبي سروراً ، وكان النسيم
البارد يمسح جبيني برفق ويحمل إلى عطرًا عجيبًا ، والبدر يحدثني
هامسًا ، وهدير الأمواج من بعيد يوحى بالأمن من ضجيج العالم .
وسكنت عند ذلك حينًا ولو نجين ينظر إليها باهتمام وقلق .
ثم تنفست وقالت :

-- ولكن تيماجين بدأ يحدثني بعد قليل ، وهنأ تنبيه
الشخص العاقل الذي في نفسي . ولم أستطع إلا أن أفكر ،
وأن أميز وأختار .

وضحكت ضحكة مضطربة واعتدت في جلستها ناظرة إلى
البدر ، وقد قطع وسط السماء ومال إلى الغرب .
وقالت بعد حين :

— كان حديثه ألفاظًا منمقة مثل نقوش هذه السقوف
المذهبة . كلها فن ، وليس فيها قوة . فتذكرت أذينة . لم يكن
أذينة ينمق لي الحديث ، ولكني كنت أحس الحب القوي في
أنفاسه . وكنت أحس بأنني أجد الأمان عند صدره . فرأت
ألفاظ تيماجين في أذني جوفاء فائرة . وانقشع الخيال وثار في
عقلي الكبرياء . لم يستطع هذا الشاب أن يهب لغريزتي الثن الذي
ترضاه ، ولعل كلماته هذه كانت تحمل رنينًا قويًا في غير أذني ،
كما رنت كلمات أنطون في أذن كليوباتره . وليس من فرق بين
امرأة وأخرى إلا في الرنين الذي ترضاه طبيعتها .

ونظرت إلى لونيخين باسمه ، وقد رأت الغمامة التي كانت على وجهه تنقشع ، ويرتد إلى ظهر أريكته مرتاحاً . ثم قالت :

— لم تمنعني عن تيماجين عقيمة في عفة ولا استعمال .

ولكنه الاختيار الذي أملاه طبي . ولو كان أذينة هو الذي لقيني أول مرة في مثل هذه الخلوة في مكان تيماجين لما كنت تحدث إليك هذا الحديث .

ومالت عند ذلك إلى ظهر الأريكة مرة أخرى وهي تضحك ضحكة قوية مرحة .

فقال لونيخين وهو يتنفس نفساً عميقاً ، كأن ثقلاً قد أزيح عن صدره :

— وما الذي يمنع أن نسمى هذا سمواً ؟ إنه بغير شك هو السمو .

فقالت زنوبيا باسمه :

— ألقاظ جوفاء لا تعيش إلا في عقول الرجال الذين لم يعرفوا الحياة ، وهي سبب كل المأسى التي يعذبون بها عقولهم . وما أخرى الرجال ألا يتحدثوا عن شيء لا يعرفونه .

ثم نظرت إلى لونيخين في شيء من الخبث وقالت له باسمه :

— حسبي من الدرس هذا الحديث في ليأتي ، ولا تؤاخذني أيها السيد الجليل إذا جلست منك مجلس المعلم وأنا تلميذة لك . ووضعت عند ذلك يدها على رأسها ، وقالت في شيء من التوجع :

— لقد أطلت الحديث يا صديقي ، وأحس الماء يصدع رأسي .

ثم نظرت حولها وقالت في فتور :

— خير الممتع أن يستريح ، فإن نفس المتعب لا توحى

إلا أفكاراً مظلمة .

ثم أمسكت عن الحديث وقامت إلى الباب المؤدى إلى الطنّف .

ووقفت حيناً تنظر إلى أنوار القمر المائل إلى الغرب وهي تتراقص

على أمواج البحر المضطرب ، وأحست الهواء الرطب يثقل على

أنفاسها ، فقالت بغير أن تلتفت إلى معلميها :

— لقد مضى أكثر الليل ، ولا أجد النوم يا لونيّجين .

ثم أضافت باسمة :

— أعندك شيء من كتب أفلاطون لأقرأها كي تبيث

النوم إلى ؟

فقال لونيّجين متحمساً :

— عندي ما شئت منها ، وأسرع إلى ركن البهو الأقصى

فحمل منه كتاباً كبيراً قد نقشت جلده نقشاً بديعاً مذهباً

وعاد به نحوها .

فأخذت منه الكتاب وحيته بإيماءة قصيرة . وسارت

قاصدة إلى مخدعها وهي تقول كأنها تحدث نفسها :

— أحب أن أقرأ رأيه في الحب مرة أخرى .

فأحس لونيّجين بالحياة تتدفق إلى قلبه عند ما سمع الملكة

تنطق بهذا اللفظ ، ووقف حيناً ينظر في أعقابها حتى دخلت إلى مخدعها ، ثم عاد يسير في البهو حتى وقف عند باب الطنف ، ونظر إلى البحر اللامع في ضوء القمر ، ثم خرج يتمشى في بطاء في الطنف ، وجعل يملأ صدره من الهواء الرطب الثقيل ، ويمسح في فتور جبينه المبلل بالندى .

وعادت إليه أقوال الملكة تثور في صدره مع مناظر اليوم وشجونه ، ثم أحس الفتور يدب في جسمه ، فاتجه نحو البهو قاصداً إلى مخدعه ، وقال يحدث نفسه في سيره مردداً قول الملكة : إن من يستطيع أن يهب ويبذل يقدر على أن يقنع بالخيال الذي في نفسه إذا لم يفز بمضااعته .

ثم سكت لحظة وقال هامساً كأنه يخشى أن يسمع ما يقوله : — ليس لي إلا أن أعبد وأقدس ، ولن أدع للمأساة من بعد سبيلا إلى نفسي . وسأصرف هذه النفس عن نزعات البدن كما قال أفلاطون ، وإن كلغني ذلك فراق الحياة .

كان الخريف يملأ الهواء هدوءاً في ذلك الأصيل الساجي ،
والسحب السوداء تغطي السماء ، وتنفذ من بينها شموعات خافتة
من الشمس كأنها بقية الأمل في قلب الخائف .

كان كل شيء يعلوه الوجوم ، فالأغصان المتهدلة لا تتحرك إلا
أن تتساقط أوراقها المصفرة الداوية في فتور ، كأنها تذرف الدمع
على الأمل الخائب .

وكانت زنوبيا جالسة في شرفة قصرها تطالع على المنظر الحزين ،
وقد وضعت الكتاب على ركبتيها مفتوحاً ، وبسطت عليه كفيها
وعيناها تحملان في الفضاء في سهوم .

لقد طالما قرأت لتهدى بآراء الفلاسفة وإلهام الشعراء ،
وعادت بعد كل ما قرأته إلى نفسها تسائلاً ، فوجدت الأسئلة
تتزاخم في صدرها في قلق واهتمام وحيرة ، حتى ساء ظنّها بآراء
هؤلاء وإحساس أولئك ؛ واتجهت إلى الفضاء الفسيح الذي
حولها تقلب فيه وجهها قبل المشرق وقبل المغرب كلما أشرقت
الشمس والنجوم ، وكلما مالت إلى المغيب . ثم انقابت بعد ذلك
إلى أعماق نفسها تكتمنه ما فيها من أسرار ، وتحاول الكشف
عما يتحرك فيها من طباع ، أو يثور بها من شجون . ولكنّها
لم تستطع بعد كل ذلك الجهد أن تجد غير إلهام وغموض وحيرة ،

ووجدت الأسئلة لا تزال تزدحم في صدرها في عنف وإلحاح .
لقد كانت منذ سنتين تعاني الوحشة واليأس ، فظنت أن الحروب
والنصر يفرجان من كربتها ، ويغنيان كبرياءها عن التماس السلام
في إيمان ليس . وأرسلت جيوشها وانتصرت في مصر ، وعاد
إليها ملك أجدادها في الإسكندرية ؛ ثم تركت تدمر منذ شهر ،
وهي تظن أنها ستجد في الاسكندرية ما يلهمها ، ويملاً صدرها
بهجة ؛ وحسبت أن قصر اللوكياس يبعث في قلبها الأمل والحياة
مع نسائه العذبة ، ويفسل أشجانها المرة في أمواج شاطئه الساحر .
وقضت في الاسكندرية أشهر الصيف الحلو ، كلما سنحت لها بارقة
من السرور سارعت إليها تلتمس فيها بغيتها ، وحاولت أن تزيد
من أثر الحاضر بذكريات الماضي المجيد المتخاف من آثارها .

لقد حسبت أنها قد فرت من الحزن والوحشة اللذين يخيمان
على تدمر ، وظنت أنها ستجد في مهد أجدادها البطالة ما يملأ
قلبها سعادة ، وينسيها كل الهموم التي عانتها في السنوات الطوال
السود التي صرت عليها . وأقامت هناك حيناً في قصر أجدادها
العجيب على ساحل البحر ، وملأت صدرها من الهواء المعلى بالحياة .
كانت مياه البحر صافية كالبلور ، وكان لون السماء وديماً ، كأنه
اللازورد ، وكان الهواء المعطر بريح أعشاب البحر يغري بمتع
الحياة . لقد كان أجدادها حقاً يحملون قلوب الشعراء عند ما
اختاروا رأس اللوكياس لكي يقيموا عليه قصرهم البديع ، إذ كان

القصر كله كأنه خيال في قصيدة من قصائد الشعر .
فرصره الأزرق يحاكي صفاء البحر في آصال الربيع الهادئة ،
وجرانيته الوردى الصقيل يواثم لون الأشعة الباسمة التي ترسأها
الشمس عند الغروب ، وأبراجه وشرفاته وأبهاؤه وأعمدته وتماثيله
وأبوابه كانت كلها قطعاً أفرغ فيها الفن أسمى ما توحى به أرض
فرعون . وكانت تلك النقوش الغريبة التي تزين جدرانها تثير في
أرجائه كل ذكريات المجد القديم الذي شهدته صخور الشاطئ في
طوال العصور التي كان فيها أجدادها سادة مصر وهي سيدة العالم .
وزارت معاهد المجد الذي تخلف من أجدادها ، فصعدت إلى
رأس المنارة العجيبة التي كانت تهدي سفن الخفافقين إلى ميناء
« العودة السعيدة » . ووقفت عند معبد إيزيس حيث كانت تقف
كليوباتره تتأمل معبودتها العزيزة تناجيها وتستوحىها . وزارت
دار المتحف الأشهب الذي دكمته حوادث الدهر ، ووقفت عند
بقايا أروقته وحجراته وأبهائه حيث كان أساتذة العالم من علماء
مصر وفلاسفتها ، يبعثون النور إلى الطلاب الوافدين إليهم من
أطراف الأرض . ثم وقفت حيناً عند مدفن كليوباتره ، فلم تجده
مدفناً مثل تلك الصروح العالية التي كان الأمراء يقيمونها في
تدمير لتكون مثوى لأجسادهم بعد الموت ، ولم تكن تشبه في شيء
ذلك القبر المنيف الذي أقامته هي لزوجها أذينة عند أبواب المدينة
وأفرغت فيه كل فنها وحبها وراثتها . كان مدفن كليوباتره لا يشبه

شيئاً من ذلك ، ولا يشبهه شيء رأته من قبل .

فهو قصر ، وهو معبد ، وهو حصن .

وتمثلت وهى واقفة فيه فى السكون العميق الذى يلفه مناظر
السفن الغابرة التى مضت بآسيها وملاهيها ، حتى كأن المدفن قد
بعث من طيات القرون ، وأصبح مأهولاً فزدهماً .

كانت جدرانها تنفّس وتتحدث ، وكانت أبهاؤه ترن بالأصدا
العالية ، وكانت الأشباح تملؤه حياة ونجاة .

ولما صعدت إلى أعلاه وأشرفت من نافذته على الفناء الواسع
الذى يفصل بينه وبين القصر ، تمثلت جديتها الخالدة وهى
تستقبل جثمان حبيبها أنطون البطل الذى حمل إليها صريعاً ورفع
إليها من تلك النافذة وهو يئن من جراحه القاتلة . وكأنها كانت
عند ذلك تسمع عويلها وهى تندب ، وتندب معه عزها الذاهب ،
كلما وقعت عيناها على سفن عدوها وعدوه اكتاف تترجح
فوق أمواج الميناء . ثم تمثلتها وهى تستقبل الموت باسمه بعد أن
تعطرت ولبست أبهى حللها ، ووضعت تاج الأفعى الملكية فوق
رأسها لى تذهب عن العالم وهى ملكة مجيدة .

رأت ذلك كله فى الاسكندرية وفى آثارها ؛ ولكنهما لم تستطع
أن تستقر بها ، ولم تجد فى حياتها ولا فى ذكريات مجدها ما كانت
تنشده من السعادة .

فما كاد الصيف يمضى حتى ملت المقام فيها ، وضاعت نفسها

بمناظرها ومحافلها ، وأسرعت بالعودة إلى تدمر في قلب الصحراء ،
كأنها هاربة من ضجة الجمال البارع والذكريات الحية التي تحيط
بالعاصمة الجليلة .

وجالست في أمسية ذلك الخريف في قصرها في تدمر تنظر
إلى الفضاء ، وقد خطرت على قلبها خاطرة من ذكر تيماجين المصري
الذي جاءتها الرسل منذ يومين بأنه هزم وطرد من الاسكندرية
مع جيشها ، إذ كرت عليه جيوش الروم التي بعثها إلى مصر
الامبراطور الجديد أورليان ، ذلك الجندي الحشن الذي آل إليه
ملك الروم بعد موت الشيخ كلوديوس .

ذكرت زنوبيا تيماجين الذي طالما جلس تحت قدميها في بهو
القصر في سكون الليل ، وقد أصغت إليه وهو يتحدث بصوته
الموسيقى يصف لها مفاتن الاسكندرية ، وآماله في العهد الجديد
الذي طلع منذ دخلت جنود تدمر إليها ، وأخرجت منها الروم الذين
غضبوا ملك أجدادها ، وذكر كيف كانت تبسح له أن يتحدث
وهي تنظر إليه كأنها ترى طفلاً يعبث بأول الألفاظ التي تعلمها .
كان تيماجين فتى جميلاً ، ولا تزال صورته ماثلة في خيالها
تحيط بها هالة من السخرية الرقيقة التي لا تشوبها قسوة ولا حقد .
مسكين تيماجين ! لقد كان قلبه ممتلئاً بالأمل ، وكان حديثه حلواً ،
وكانت جرأته عذبة ، مثل جرأة الطفل الغرير لا تبتسح سخطاً
ولا تثير عنفاً . فلم تستطع أن تحس نحوه إحساساً قوياً ، لا من

إجلال ولا من كراهة . ليته كان يستطيع أن يسمو حتى يعلأ قلبها ، وتحس بالخضوع له كما كانت تخضع لأذينة . ليته كان عنيفاً قاسياً مثل أذينة إذا غضب ، أو كان وديعاً كريماً مثله إذا رق وصفا . وليته كان جامداً شديد الأثرة في أهوائه ، أو ليته كان متكبراً عنيداً لا يفهم شيئاً من الشعر والفلسفة ، بل كان مثل أذينة يبتسم لها مدعناً لذكائها مقرأً بجهله أمام علمها ، ولكنه لا يتجه إلا حيث يرى . ليته كان كذلك فاعلمها كانت تحس نحوه ما كانت تحسه نحو أذينة من الحب والاعجاب والخضوع والثقة ؛ ولكنه كان سهلاً رقيقاً يعرف الشعر والفلسفة ، ولا يعرف الكبرياء ولا العنف . كان حديثه كالوسيقى اللينة التي تستهوى ، ولكنها لا تلهم . أو كالماء الصافي الذي لا يدخل السورة إلى مجارى المروق .

مسكين تياجين ! إنه لم يستطع أن يثير فيها حب المرأة ، ولم يقدر أن يسمو معها إلى حب الروح . كان غزله ينادى الجسد ، ولكن نداءه كان نداءً هيناً ناعماً طرياً .

أو ياليتها هي لم تكن زنوبيا ، بل كانت امرأة من نساء ذلك العالم الفاتر اللاتي يعرفن كيف يقنصن السرات إذا سنحت لهن . لا يعنين شيئاً إلا متعة الجسم . ولكنهم لم تستطع شيئاً من ذلك ، ورأت الشاب تحت أقدامها وسمعته يتغنى ، وأحست نفسها فوق آفاقه ، وتركته حيث هو كأنها تراه من عل وهي في طبقات السماء العليا .

مسكين تهاجين قد هزمته جيوش الروم ! ومسكينة هي كذلك إذ لم يكن مع جيوشها رجل مثل أذينة العظيم ، لكي يدافع عن مصر وعن عمرشها أمام هذه الأمواج المتتالية التي تأتي في غير هوادة ولا تردد من وراء البحر ، تبعث بها تلك الدولة العنيدة التي لم يضعفها كل ماس بها من عواصف .

فما كاد الامبراطور كلوديوس الشيخ يستقر في قبره حتى أتى أورليان الجندى الخشن وانتزع العليسان الارجواني ، وأثار الحروب جذعة ليستعيد ماضع من بلاد الرومان .

وها هي ذى زنوبيا في تدمر تنظر إلى الفضاء الساكن ، وتجمل بصورها في الصحراء لا تجد أنيسا ولا تطمع في أمل ولا في سعادة ، وترن في أذنيها أخبار الحروب بعد أن حسبت أن ملكها قد اطمأن واستقرت دعائمه . ولو كانت ليس إلى جانبها لاستطاعت أن تفهمها ، وأن تجد عندها ما يزيل عنها وحشتها ؛ ولكن ليس كانت مع فقرائها ومرضاهها ، لا تعباً بقصور الملوك ولا بهموم من فيها . وهل كانت ليس لترضى عنها أو تفتح لها ذراعها بعد أن ردت إليها كتابها المقدس في ازدراء وكبرياء ؟

ولو نجين ! مسكين ذلك القلب المعبذب ! كم في هذه الحياة من مأس تدق عنها مآسى الخيال ! هذا هو مقبل إليها يحمل كتبه كما يفعل كل يوم . لم يبق لها في الحياة علالة إلا أن تقرأ معه وأن تسمو في مناقشاته إلى آفاق الفكر والروح ، لتأوه عن من

الأيام حتى تأتيتها الأنباء من مصر بمصير جيشها الذي خلفته فيها .
وأقبل لونيحين بعد قليل وهو يبتسم متهلل الوجه ، ويحمل تحت
أبطه كتابا تبدو على جلده نقوش مذهبة أنيقة . ولما اقترب من
الملكة وقف وانحنى في إجلال ، فنظرت إليه زنوبيا في شيء من
التعجب ، ثم أحنّت رأسها إليه بالتحية باسمه ، وأشارت إلى مقعد
قريب منها وقالت :

— صحبتك السعادة يا أيها الصديق العزيز .

فأعاد لونيحين الانحناء وقال وهو يجلس :

— السعادة دائماً أسمى في هذا المجلس يا مولاتي .

فتمنفت زنوبيا وقالت بصوت خافت : السعادة ! ما أحق
الانسان إذ يقنع بهذه الألفاظ ! إن الانسان يقنع دائماً بالأسماء
يا صديق .

فنظر إليها لونيحين جاداً وقال :

— وقد تكون الأسماء حقائق يا مولاتي . فالنور اسم له

حقيقة ، والحزن اسم له حقيقة . فلم لا تكون السعادة اسماً له حقيقة ؟
فقلت الملركة وهي تهز رأسها :

— لقد قضى الانسان الدهر كله ينشدها ويسمّيها . ولكن

أستطيع أن تقول لى أين وجدها ؟

فأطرق لونيحين حيناً ثم رفع رأسه وقال فى هدوء :

— قد يجدها فى السلام يا مولاتي . قد يجدها إذا استطاع

أن يجدها السلام .

فقلت تردد قوله وهى غائبة الفكر :

— قد يجدها فى السلام . فى السلام .

ثم التفتت إليه لفظة سريعة وقالت ولا يزال فى قولها حرارة :

— لقد قلت لك يوما إنك تشبه الآلهة لأنك لا تحس

الوحشة . ولكنك أجبتنى جوابا حزيناً ، قلت لى : لا يحس

رهبة الظلام من ولد أعمى . فهل هذا هو السلام ؟

ثم عادت فكررت قوله :

— لا يحس رهبة الظلام من ولد أعمى . هؤلاء الأشقياء

الذين يقضون الحياة فى حزن متصل لا يعرفون شيئاً غير الحزن .

أتراهم يجدون السلام لأنهم استقروا على حياتهم اليائسة ؟

فقال لونيخين :

— ليس هذا ما أقصد يا مولاتى . لم أكن أعرف السلام

عندما قلت لك هذا القول .

فنظرت إليه باهتمام وقالت :

— ومتى عرفت السلام أيها الصديق الحكيم ؟ وأى حكمة

تلك التى هدتك اليوم إليه ؟

فقال لونيخين وهو يتنفس :

— لم تعلمنى الحكمة السلام . ليست الحكمة إلا مهنة .

وما الحكيم إلا كهؤلاء الذين يحرثون الأرض ويسوقون الابل

ويرهون الأشياء . هؤلاء جميعاً يلتمسون للحياة الوسيلة .

فقلت زنوبيا فى شىء من السخرية الوديمة :

— أنت تسلبنى عزائى فى هذه الحياة . لم أكن أحسب
الحكمة سبيلاً للحياة . فما لى فيها مأرب إذا كانت كذلك .

فقال لونيحين فى لهجة الاعتذار :

— لم أقصد الحكمة التى تنشدونها . أنت تنشدن الحقيقة
يامولاتى . وأما أنا فرجل صناعى الحكمة . ولم أعرف السلام
إلا منذ تعلمت منك أن أنشد الحقيقة .

فتبسمت زنوبيا لقوله وقالت :

— اسم آخر . الحقيقة . أليست هذه اسماً آخر يفرر
بالإنسان ؟ لأننى لم أعرف فى حياتى حقيقة . كل شىء عرفته
وظننت يوماً أنه الحقيقة قد تغير وبدأ لى باهتاً بعد حين .

فقال لونيحين :

— ولكنك دائماً تنشدن الحقيقة ، وفى محاولة الكشف
عنها تعمل بالسلام .

فقلت زنوبيا مسرعة :

— إذا فالحقيقة تعمل وخداع . وما أحرى الحقيقة أن تطالع
على العقول سافرة واضحة !

فقال لونيحين :

— ولكن السلام لا يأتى من العقل . السلام هنا فى القلب .
فقلت زنوبيا :

— وهل وجدته ؟

فقال بعد تردد قصير :

— نعم وجدته أحياناً . هداى إليه قلبى أحياناً . ولكن السلام الكامل لا يكون إلا لمن فارقوا هذه الحياة .

فقالت وهى تتنفس :

— هداك إليه قلبك ؟ القلب . العقل . لا أعرف شيئاً من تلك الأسماء غير اسمها . لا أعرف إلا شيئاً واحداً . وهو هذه الحياة الخالية الموحشة .

وصمتت عند ذلك حيناً قصيراً ثم التفتت إلى معلمها لفتة سريعة وقالت :

— ومتى عرفت ذلك السلام يا صديقى ؟ وأين وجدته .

فأطرق لونها حيناً ثم قال :

— عرفته كلما امتلأ قلبى . أجده أحياناً فى تأمل الحب الخالص ، الحب الحقيقى .

فانتفضت زنوبيا عند ذلك وقالت فى شبه صيحة :

— الحب الخالص ؟ أعود إلى هذا الهراء يا صديقى المبجل ؟

فقال لونها حيناً وهو مطرق ، وقد علا وجهه احمرار شديد :

— نعم وجدت السلام فى الحب الخالص . الحب الذى

لا يعرف شعباً ولا ريباً . الحب الذى لا ينظر إلى جزاء . الحب الذى لا يتطلب بدلاً .

فقلت زنوبيا :

— هو حب الآلهة . لم أعرف في الأرض حباً كهذا . لم يخدع
الإنسان اسم مثل هذا الاسم . ليس الحب إلا سر تولد الأبدان
وتجدد الكائنات .

فقال لونيخين :

— هذا ميل الفريزة وليس الحب .

فتحركات زنوبيا وقالت ضاحكة في شيء من السخرية :

— وهل الحب غير ذلك ؟ هل عرفت حباً غير ذلك ؟ .

فأطرق وقال جاداً :

— نعم عرفت نوعاً خالصاً من الحب يا مولائي كما عرفت حب
الأبدان . أحببت بالبدن فتعذبت ، ولم أجد فيه إلا لذة فاترة ،
ووجدت فيه الحيانة والاثرة والجشع والحيرة والظلم . ثم أخذت
نفسى بالرياضة حتى استطعت أن أسمو إلى أفق الحب الأسمى ،
الحب الحقيقي . فعرفت هناك السلام ، وذقت السعادة ، ووجدت
فيه اللذة القوية الدائمة . هو الحب الذي لا يعرف إلا الأيثار
والكرم والطمأنينة والرى .

فهزت زنوبيا رأسها وقالت وهى تتنفس :

-- لا أفهم . قد حاولت أن أفهم ما قاله أفلاطون فلم أجد في

قوله إلا ألفاظاً لا تحمل معنى إلى نفسى . ما أنا إلا امرأة يا صديق .

فأطرق لونيخين صامتاً ثم قال بعد قليل :

— بل أنت التي وجهت عيني إلى حيث أبصر ، وفتحت قاي
إلى حيث أستقبل السلام . كان ذلك إذ كنت في الاسكندرية في
ليلة البدر ، وأنا واقف أنتظر عودتك من البحر . لقد كان حديثك
في تلك الليلة إلهاماً إلهياً لمحت فيه بريق الحقيقة فسرت نحوها .
الحب الخالص الذي يتسامى إليه الرجل إذا كان لا يطلب إشباع
الغريزة . هناك يجد الانسان السلام والايثار والرفق ، وهناك
يستقر حيث لا تصل الهموم .

فقلت زنوبيا وهي تهز رأسها في تردد :

— أنا لا أحب أن أخدع نفسي يا لونيخين . قد أكون عاجزة
عن الادراك ، ولكني لا أستطيع أن أفهم إلا ما أدركه .
وعند ذلك سمعت أصوات أقدام تقترب ، فالتفت في فتور ،
فأرت وصيفة تتقدم نحوها في تردد ، فنظرت إليها قائلة :
— لست أريد العشاء الساعة يا فتاة .

فقلت الوصيفة :

— مالك بن زباع قائد الحامية يطالب الاذن يا مولاتي

فتحركت زنوبيا وقالت في اهتمام :

— مالك ؟ أدخله إلى البهو ، فسألقاه هناك .

ثم نظرت إلى لونيخين ، وهي تهتم بالقيام وقالت :

— لست أقوى على تحمل برد هذه الليلة المظلمة هنا . فسلم

تذهب إلى لقاء مالك في ظل القصر . فاعمل خيراً ما أتى به .

وأسرعت في سيرها ، وسار لونهاجين وراءها ، وقالت وهي
تخطو فوق العتبة المرمية إلى البهو :

— ما ذا أتى بمالك الساعة على غير عادة ؟ لعل خيراً ما أتى
به ، فأني أحس في هذه الليلة رهبة لا أعرف سرها يا لونهاجين .

وسارت وعلى وجهها أمارات الالهفة حتى بلغت صدر البهو ،
فوقفت تنظر نحو الباب تعبت باصابعها في طرف عقدها اللؤلؤي .

المتمدلى على صدرها ولا تستقر على قدميها من القلق . ولما دخل
مالك بن زباع نظرت إليه وهمت أن تصيح به تسأله ، ولكنها

تمالكت نفسها وهدأت من جأشها وقالت له في بسملة متكلفة :
— لقد طالت غيبتك عن تدصر يمالك ؛ ويسرنى أن أراك عائداً

ثم جلست وأومأت إليه أن يجلس قريباً منها ، فأقبل مالك
في بطء وانحنى أمامها بالتحية باسطاً يده ، ثم مال ببصره نحو لونهاجين

وكان واقفاً وراء الملكة فأومأ إليه بتحية قصيرة ، ثم تأخر إلى
جانب من مجلس الملكة فجلس على كرسي وعلى وجهه عبسة لم تخف

عن عيني زنوبيا . فقالت الملكة وهي لا تزال تحاول كتمان هزتها :
— وما حال الجيش في حمص اليوم يمالك ؟

فرفع مالك رأسه في حزن وقال :
— كنت أود لو جئت إلى مولاتي بغير ماجئت به .

وسكت لحظة كانت طويلة عند الملكة التي لم تملك اضطراب
أنفاسها من الفزع ثم قال ناظراً إليها :

— لقد تحركت جيوش (أورليان) واجتاحت بيشنيا ..

فقالت الملكة في دفعة أفلتت منها :

— بيشنيا ؟ .

ثم تمالكت نفسها وقالت في هدوء متكاف :

— هؤلاء الروم أهل غدر وجحود .

لقد نسوا ما كان لأذينة عليهم من فضل . وها هم أولاء .

يحاربون امرأته ملكة تدمر حامية الشرق . ولكني سأرسل .

جيوشي إلى بيشنيا يمالك لكي أعلمهم أن زنوبيا هناك .

فأطرق مالك ولم يجب ثم قال بعد حين :

— وأوغلوا بجيوشهم بعد ذلك في قبادوقيا !

فصاحت زنوبيا في فزع :

— قبادوقيا ؟

فقال مالك :

— وكليشيا .

فقامت الملكة غاضبة وقالت وأنفاسها المضطربة تقاطعها :

— مالك تعذبني أيها الرجل هذا العذاب ؟

قل كل ما عندك في نفس واحد لأعرف كل المصائب في

لحظة واحدة ، ولا تعطيني هذه السموم في جرعاتك الضئيلة . اسكنها

جميعنا ولا تترفق .. قل كل ما عندك . هل بلغ الروم انطاكية

أو حمص ؟

فقام مالك مطرقا وقال في صوت خافت :

— هم يزحفون على انطاكية .

فجمعت الملكة تخطو في البهو مضطربة وهي تحدث القائد قائلة :

— وأين جندي وأين أبطال تدمر ؟ قل إنهم هربوا وقنعوا

بالذل ، واستراحوا إلى العودة إلى الديار . قل إن جيش تدمر

الباسل قد خارت قواه وأفسدته دعة الحياة .

وسكتت لحظة ، وهي تحتلج من الغضب ثم قالت :

— أظنهم حسبوا أن تدمر لا تثبت لأن أذينة ليس هناك .

ولكني سأذهب إلى الحرب ، وسيعرفون أن سيف زنوبيا ليس

أقل صرامة من سيف زوجها .

ثم اتجهت إلى مالك وقالت ونظراتها الخاطفة تلح تحت

عبيستها :

— ادع إلى الساعة كل من هنا من القواد . سأرسل كل

جندي هنا ، وسأبعث إلى مصر أسترجع من فيها من جيوشي ،

وسأذهب مع كل من يستطيع الحرب في تدمر لكي أحطم هذا

الجندي الجاهل الفطرس (أورليان) .

ثم مدت يدها نحو مالك ، فأحنى رأسه ومد يده بالتحية ،

وخرج يجمع قادة تدمر صادعاً بأمر الملكة ، وبقيت زنوبيا

تسير في البهو تردد ألفاظها الخائفة ، ولونجين يتبعها ببصره ،

ولا يجد من القول ما يواتيه في تخفيف ثورتها .

الفيلسوف الجندى

هذه حصص مرة أخرى تنبسط تحت ناظرى زنوبيا وهى
تطل عليها من القصر الذى كان يقيم فيه أذينة منذ نيف وثلاث
سنوات ، بعد عودته بالنصر من يثينيا .

وهذه قصور حصص وبساتينها تلوح لها وادعة فى ضوء
الصباح الباكر الذى ينبعث من ثنايا سحب الخريف الكئيب .
وجالت الملكة ببصرها فى الأرباض الممتدة تحتها وقد غطتها
خيام الجنود إلى أطراف الأفق البعيد ، فقد اجتمع فى ذلك
الصعيد سبعون ألفاً من فرسان العرب الذين أتوا من فجاج
الصحارى ، ومن وديان فلسطين والشام وبوادي العراق ، تلبية
لدعوة تدمر ، كي يقفوا مرة أخرى لنزال جيوش (أورليان)
أمبراطور الروم .

وكانت زنوبيا بادية القلق ، ينطق وجهها بما فى فؤادها من
هم وجزع ، ويزيدها المنظر الساكن الممتلىء بالسلام شعوراً بما
فى نفسها من اضطراب .

قضت زنوبيا ذلك العام المنصرم كله فى نضال وحروب ،
منذ أتاها نبأ تحرك جيوش الروم نحو الشام ، فجمعت جيوشها
من المشارق والمغارب ، ودعت حلفاءها وأعوانها من أقصى

الشمال وأقصى الجنوب في دولتها الفسيحة ، لكي تصد ذلك التيار الخفيف الذي أنحدر عليها فجأة من بحر بنطش واجتاح بيثنيا وكابادوقيا وكليكميا ؛ فما طلع الربيع حتى وقفت للروم عند نهر (الأورنت) ومعها فرسان تدمر الذين كانت دول العالم تهتز إذا ساروا إليها . وأقبل الروم مترددين في حذر ، وهم يعرفون أن ملكة تدمر قد وقفت دونهم في جيشها الذي تعود النصر .

وبدأ القتال ، وفرّ الروم ، وتبعهم فرسان العرب في دروعهم الثقيلة على جيادهم الخفيفة ؛ وامتلاً قلب زنوبيا من الأمل والكبرياء ، إذ رأت عدوها يتحطم تحت أنظارها في أول لقاء ، ونزلت من أعلى الرتبة التي وقفت عليها تشرف على القتال ، لكي تستقبل قائدتها (زبدة) وتحلى جيده بقلادة من اللؤلؤ قد توسطها وسام ذهبي عليه صورتها في تاجها الملكي . ولكنها ما كادت تبلغ السهل حتى رأت عند الأفق غباراً ثائراً ؛ فوقفت تتأمله وقلبها يخفق من رهبة المجهول ، ثم اقترب الغبار وظهر من تحته فرسان تدمر يخطب بعضهم بعضاً في فزع الهزيمة ، كأن أصوات الجن تطن في آذان جيادهم فتذهلها وتخالع قلوبها وتدفع بعضها في بعض .

وانقلب النصر إلى هزيمة طاحنة لا يستطيع البشر أن يدركوا سرها ؛ وعرفت زنوبيا أن الآلهة قد مدت يدها إلى

العدو ، بعد أن كادت تنزع منه أكاليل النصر لتطوق
بها هامة تدعى .

وتراجعت زنوبيا بما بقي من جيشها ، وجمعت فلولها ،
واستمدت أعوانها وحلفاءها ، حتى بلغت تلال (دافنى) في
طريق حمص ؛ وأرادت أن تعتصم في رءوسها ، ولكن الآلهة
مدت يدها مرة أخرى إلى العدو ، فاذا به يصعد إلى جيوشها
ويتوغل في الآكام في حصن من دروعه المتينة ، وينزل جيشها
من معاقله ، ويسوقه في هيعة عظيمة في السهل الممتد إلى حمص .
وها هي ذى مرة ثلاثة تقف بجيشها في حمص وتستمد
أعوانها وحلفاءها ، وترسل إلى مصر تسترجع جيشها ، حتى
استطاعت أن تحشد في أرباض المدينة سبعين ألفاً من الأبطال ،
لتلقى ذلك الأمبراطور الجاحد ، وتنزع منه النصر عنوة ، وترده
إلى الجبال الباردة في ظلمة الخريف .

وكانت زنوبيا تحاول أن تصرف عن قلبها ما يملؤه من
الجزع واليأس ؛ وجعلت تعمله بالآمال وتحمله على أن ينفذ
بالمنى . ألم تكن جاءت إلى حمص من قبل ، منذ ثلاث سنوات
وهي أشد جزعاً ويأساً ، فوجدت زوجها قتيلاً بها ، ووجدت
تاجها منزوعاً عن رأسها ، ووجدت نفسها وحيدة ضعيفة ؟
ألم تكن قد رضيت بالخضوع وسخت نفسها عن السلطان ،
وأقبلت نحو ممن قاتل زوجها لتنزل له عن ملكها ؟ ألم يحدث

ذلك كله ، ثم إذا بالآلهة تقبل عليها فجأة وتنصرها على غير توقع ،
وإذا بها تخرج من حصص في جيشها الكثيف منصورة عزيزة ،
وتعود إلى تدمير فتطرد منها عدوها في ليلة واحدة ؟ ألم تقف
في الليل حائرة طريدة تنظر إلى أسوار تدمر ، حتى إذا ما طلع
عليها الصباح كانت ملكة تدمر المجيدة كأنها كانت في حلم
كريبه ثم استيقظت منه بمد أن ذهبت ظلمة الليل ؟ ألا تكون
الأقدار المجيبة قد ادخرت حصص لتشهد مرة أخرى قدرة
الآلهة على المعجزات ؟ ألا تشهد حصص مرة أخرى آية من
أعاجيب الدهر التي تخلدها سير الزمان ؟

وتذكرت الملكة عند ذلك زوجها أذينة ، وزادت عند
ذكره وحشتها ، واشتد جزعها . أين أذينة في ذلك اليوم
ليخوض تلك الغمار تحت بصرها ، ويطرد ذلك العدو كما تطرد
الرياح القوية أبخرة الضباب ؟ وأين منه هؤلاء الفرسان الذين
كان يحلق فوقهم كالنسر ، ويدفعهم إلى الاستبسال كما سمعوا
رنين صوته العالي ؟ وما بال (زبدية) و (زباع) لا ينفشان النصر
في قلوب الجيش ، وقد كانا من قبل إذا ركبا في صدر
الكتائب لا تقف دونهم الجموع الزاخرة ؟ أهى السن قد
تقدمت بهما في ثلاث سنين فأذهبت ما في نفوسهما من فتوة ؟
أم هو أذينة الذي كان ينفث فيهم قوته وبطشه ، ويدفعهم
ببطولته ؟ أم هي الآلهة قد تخلت عنها وخذلتها ، وأعدت لها

قضاءً محتوما لا تستطيع النجاة منه ؟

وكان الصباح قد شب وعلت الشمس فوق الأفق ، ونفذت أشعتها الفاترة من خلال السحب السود ، فوقمت في فترات متقطعة على رءوس الخيام التي تغطي البطاح ، ورأت زنوبيا حركة الجنود وهم يستعدون ويتحركون ، وقد وثب بعضهم إلى ظهور الجياد في عدتهم ، يتسللون من بين الخيام في طرق ملتوية ، ثم يسلكون إلى الطريق الأكبر الذي يشقها من الشمال إلى الجنوب ، ويتجهون نحو المرج الفسيح الذي واعدهم قوادهم عنده في ضحوة النهار . فقد اختاروا ذلك اليوم لمنازلة العدو قبل أن يتم له حشد جموعه حول المدينة وضرب الحصار عليها .

وفيما كانت زنوبيا تتأمل أسراب الفرسان المتدفقة نحو الطريق الأكبر بين الخيام ، طلع عليها فارس مقبل نحو المدينة يركض بجواده في خفة وهو معتدل في سرجه في شيء من التكلف كأنه مزهو بمقدرته على ركوب الخيل . وتبينته بعد قليل وانفرجت عبستها عن ابتسامة حزينة أدخلت إليها شعاعة من التسرية تلمع في ظلمة قلبها الحزين . وتنفست وهي تتبع الفارس بعينها حتى دنا من القصر ونزل عند درجه المرمى ، وصعد في لباسه الحربى ودروعه النحاسية البراقة ، ثم ذهبت تستقبله عند باب برج القصر الذي كانت ترقب حمص من أعلاه ، وبعد حين أقبل لونها يخبط الأرض بقدميه الثقيلتين تحت حمل السلاح

والدروع ، فكأنه محارب لم يعرف من قبل شيئاً غير مماع القتال . ولما اقترب من الملكة حياها ماداً يده في انحناءة ، ثم نظر إليها مبتسماً وقال :

— سعد صباح مولاتي مليكة تدعى !

فقالت زنوبيا باسمه في ارتياح :

— سعد صباح سيدي المبجل ! لقد بكرت بالاستعداد ،

كأنك جندي قديم يهزه الحنين إلى النزال !

فأجاب لونجين مرتاحاً :

— أحس السعادة كلما بدا لي أنني أقاتل في سبيل

نصرة مولاتي .

فقالت زنوبيا وهي تعود في بطاء نحو شرفة البرج :

— زعم أفلاطون أن البشر طوائف متباينة ، وأن

الفلاسفة لا يلبقون أن يكونوا جنوداً . ولقد أردت مرة أن

أقيم في تدعى مدينة فاضلة على رسم مدينته ، ثم شغلتنى عنها هذه

الهموم المتلاحقة . ألا ترى يا لونجين أن الفلاسفة يعيشون

في عالم السحب ؟

فقال لونجين في شيء من الحماسة :

— ولكنه لم يزعم أن الفيلسوف لا يكون جندياً ، وأى

شيء لا تقوى عليه رياضة الانسان نفسه ؟ أليس تذليل النفس

أشق على الانسان من تذليل الخيل ؟ أليس من يقوى على أن

يحمل نفسه على مقاومة أهواء البدن أقدر على أن يحمل
جسمه على أن يحدق الركوب وفنون القتال ؟

فقلت زنوبيا وهى تتنفس :

— وهكذا تهبط البشرية من علياء الفلسفة إلى هذه
الحياة المضطربة .

— ولم يكون هذا هبوطاً يا مولاتي ؟ إن الذى يبذل
دماءه فى سبيل الحق خير ممن يقنع بتأمل ذلك الحق .

فصمت زنوبيا حيناً ثم قالت :

— وأين ذلك الحق الذى ندافع عنه ؟ إنما هو المجد
والسلطان والكبرياء . هو المجد الذى يبهر أنظار البشر ،
فيقضون أعمارهم فى طلبه ، ولا يحسون أنهم بلغوا منه إلا
ذلك القلق المستمر — قلق فى السعى إليه ، وقلق فى الاحتفاظ به .

ثم هزت رأسها وقالت فى صوت خفيض كأنها تناجى نفسها :
— ولكن هى الحياة تحتم على البشر خطتها .

وحانت منها التفاتة عند ذلك نحو باب القصر ، فرأت
ركباً مقبلاً ، فقلت فى شئ من الدهشة :

— أليس هذا زبدة ؟ إنه هو بغير شك ، وهذا زباع
معه . لعلهما يالونجين قد أتيا يعلماني بيده القتال . اذهب
إليهما يالونجين وأعلمهما بمكانى .

وأُسرع لولوجين نازلاً من برج القصر يلبي أُمير الملكة ،
وبقيت هي تنظر فيما حولها في قلق واضطراب ، وتلقى بصرها
في أطراف المعسكر ، وتحاول أن ترى الأفق البعيد لتنظر مجمع
الجيش إذ يستعد للقتال في ذلك اليوم الخطير . ثم دخل عليها
القائدان في السلاح الكامل وانحنيا لها ومدا أيديهما بالتحية ،
ووقفوا في جد يستقبلان الملكة صامتين . فمدت زنوبيا يدها
نحوهما بالتحية ، وهدأ اضطرابها عندما وقعت عينها على
وجهيهما المجددين اللذين اختلفت عليهما ندوب الجراح ، وقالت
لها بصوتها الرقيق :

— أقبل عليكم النصر أيها البطالان . إن أجيال تدمر تنظر
إليكم في هذا اليوم . وأرجو أن تحبوكا الآلهة بتوفيقها .
فقال زبدة في جد :

— النصر محقق بمشيئة (بعل — شمس) ، فإن جيش
أورليان لا يبلغ في عدده وعدته هذه الجيوش الباسلة التي
تنتظر القتال في الساحة .

فأرادت الملكة أن تجيب ، ولكنها كانت تحس قلبها
ثقيلاً بين جنبها ، إذ سئحت لها ذكرى المواقع التي مرت
بها في مدة العام وجيوشها إذ ترد من موطن بعد موطن ؛
ولكنها تكلفت الحماسة وقالت :

— نعم . سنعلم هذا الجندى الجاهل أن مغبة غدره وخيمة .

فلم يجب (زبدة) وكأنما لم يعجبه ذكر الغدر في تلك الحروب .
فقال (زباع) منتهزاً صمت صاحبه :

— لوددت يا مولاتي لو تريثنا ولم نبادر اليوم بالقتال
الذى فيه فصل القضاء .

ثم تردد قليلاً وقال :

— لقد بدا لي أن ما حاق بنا في قتال الروم كان من
أثر الافراط في الحفيظة .

فقات زنوبيا في شبه فزع متجهة إلى (زبدة) :

— ألسما على رأى مجتمع يا أبا دعبيل ؟ أعندكما شك في
مغبة القتال ؟

فقال زباع في صرامة :

— هذه الحروب رهن القضاء يا مولاتي ، ومن يستطيع
أن يعلم وجهة الأقدار ؟ ولقد كان زبدة يرى مثل رأبي في
التريث ، لولا أنه يطيع مشيئتك .

فأطرقت زنوبيا لحظة ، وتنفست في حزن ، وخفق قلبها
إذ سمعت قول قائدها وهي مقبلة على نزال فيه فصل الأمر في
مستقبل مجدها وملكها وميراث وهب اللات وعز بيت أذينة
في ممالك الأرض . ثم رفعت رأسها بطيئة ونظرت إلى وجه
القائدين ، فرأت عليهما عبسة ، فزاد جزعها وقالت وهي تحاول
إخفاء ارتباكها :

— ولكنى لم أنصح بالمبادرة فى القتال إلا لأنى حسبت ذلك أحزم فى رأى .

فقال زبدة ناظراً إلى زباج :

— ولقد رضيت رأى مولائى إذ وجدته أسلم عاقبة .

فنظر زباج إليه فى شىء من الغضب وقال :

— أما قلت لى منذ بلغنا حمص أننا لن نسرع إلى قتال العدو حتى تلتئم جراح الجنود وتستجم خيولهم ؟

فقال زبدة وهو يخفض من صوته :

— ولكنى منذ أقت فى حمص وجدت أن رأى الملكة أحجى .

فقالت الملكة فى تلهف :

— وماذا حملك على رأى الجديد يا أبادعبل ؟

فقال زبدة متردداً :

— لقد أوقعت الهزائم فى قلوب القبائل حينئذ إلى

ديارهم . كانوا من قبل لا يفسكرون إلا فى النصر والغنيمة ،

وهم اليوم لا يذكرون إلا أوطانهم التى فارقوها وطالت عنها

غيبتهم . سمعت ذلك فى غنائهم وشعرهم ، ورأيت أثره فى

مفاخراتهم ومنازعاتهم .

ثم نظر إلى زباج وقال بصوته العميق :

— ألم يبلغك يا أبا مالك ما ثار بالأمس من النزاع بين
مجدة وقمارة ؟

فأطرق زباع حيناً قصيراً ثم قال بصوت ضعيف :
— سمعت بذلك يا أبا دعبل .

فنظر زبدة إلى الملكة وقال :

— وإذا تطاول الزمن بنا في حمص لم نأمن أن ينفرط
هذا المقد ، ولن نجد في حمص إلا أعداء .
فقالت زنوبيا مرتاعة :

— عداوة في كل مكان يا زبدة ؟ عداوة في أنطاكية ،
وعداوة في حمص ؟
قال زبدة في حزن :

— نعم يا مولاتي ، فان كراهة الناس لذلك الأسقف ،
بولس السمسطائي ، تتجه إليك اليوم ، لما سبق من تقريبك
إياه . وقد عرف أورليان أن يفرى بك الناس في كراحتهم له ،
إذ صورك لهم صديقتته التي تمينه على إفساد عقائدهم .

فأطرقت زنوبيا وقالت كأنها تهمس لنفسها :

— مالي أرى الأقدار تتجههم ؟

ثم نظرت إلى زبدة وقالت متكلفة الحماسة :

— دع عنك هذه الوسوس يا أبا دعبل ، فان لديك سبعين

ألفاً من أبطال العرب لن يقف لهم عدو إذا صدمته بهم
صدمة عنيفة .

فقال زبدة :

— ولقد أذعنا في الجيش أن القتال اليوم ، وما ينبغي لنا
أن نتردد .

فقال زباج بعد صمت قصير :

— نعم لا ينبغي لنا أن نتردد .

فمادت الملكة إلى تكلف البشر والحماسة ، وقالت وهي
تقدم يدها بالتحية :

— أيها السيدان ، استبشرا . صاحبكما أرباب تدعى ،
ومدت إليكما أيديها ، اذهبا في حماية شيعة القوم وعجل — بعمل
وشمس — بعمل ، واللات . وعودا منصورين ولا أقول
لكما الوداع .

فأحنى القائدان رأسيهما في خشوع ، ونزلا من البرج حتى
ركبا وسارا في الطريق الأكبر بين الخيام ليأحقا بالجيش في
ساحة القتال ؛ ووقفت زنوبيا تنظر إليهما حتى غابا عن عينيها ،
ثم ارتدت في شيء من الضعف تلتمس مقمداً ، ورأت في لفتها
لونيحين واقفاً وراءها ينظر إليها في اهتمام ، وكأنها لم تذكر أنه
كان هناك ؛ فنظرت إليه مبغوفة وقالت :

— لا تؤاخذني أيها السيد المبجل فيما يظهر لك من ضعفي .

إنك أنت الصديق الذى لا أخشى من لومه .
فنظر إليها لونها حيناً فى صمت وقلبه خافق وصدره
يجيش بعطف غامر ، وقال بمد حين فى تردد وخجل :
— تخلفت يا مولاتى لكى أستأذن قبل المركة .

فقلت فى فتور :

— أذهب إلى القتال ؟

فقال فى شيء من الألم :

— أوتعجبين يا مولاتى ؟

فقلت زنوبيا معتدرة :

— لا تؤاخذنى يا صديقى مرة أخرى . هو الضعف يجانى

أتمتر فى لفظى كما يتمتر المترشح فى خطواته .

ثم مدت يدها نحوه فائلة فى عطف :

— لتصبحبك الآلهة يا لونها .

فنظر لونها حيناً إلى عينيها المبللتين بالدمع ، ثم خطف
يدها بيديه وانحنى فى سرعة عليها فقبلها ، وأحست زنوبيا ما فى
القبلة من حرارة ؛ ولما رفع لونها رأسه وتلاقت عيناها شعرت
الملكة لأول مرة فى حياتها أن ذلك الصديق الذى طالما جالس
معها وحدها وقرأ لها وجادلها وراجمها ، إنما هو رجل وله أنفاس
تتردد وقلب يخفق ؛ ونظرت إلى وجهه ولحيته ، وتأملت لون
شعره الأصفر اللامع ، ولون عينيها الزرقاوين العميقتين ، وملأت

بصرها من هيئته ، وقامته الممتدة ، وعرض كتفيه وقوة ساعديه ، وكأنها كانت ترى عند ذلك رجلا وقع نظرها عليه أول مرة في حياتها . وكأن الرجل خشى أن تكون الملكة قد غضبت لتجرئته على تقبيل يدها في مثل هذه اللفة ، فنظر في عينيها متأملا ليتبين ما فيهما من معنى ، فرأى فيهما بسمه ارتياح ضئيلة ، فاطمأن قلبه وقال في صوت متردد :

— إذا أتيح لنا النصر يا مولاتي وعدت سليما بعد هذا القتال ، كنت أسعد الناس في الحياة . الآن فقط أستطيع أن أدرك كيف تكون السعادة .

فقالت الملكة وهي تتنفس :

— ستعود سالماً يا لونيخين ، حاملاً بشري الانتصار .

وصمتت قليلا وقد تحركت أشجانها ثم قالت بعد حين :

— إنني أعلم يا لونيخين ما الذي يدفعك إلى هذه الحرب .

لم تكن الحرب صناعتك ، ولم تكن من قبل تظن يوماً أنك تشارك القوم في القتال . أنت تبذل نفسك يا لونيخين في سبيلي . ولولا أن تحسبني سيئة الظن بك لمنعتك من هذا القتال . إنني أقبل دفاعك عنى راضية وأدعو الآلهة أن تحرسك . ولم يجد لونيخين من نفسه قوة على الجواب ، فأحنى رأسه ومد يده بالتحية وخرج مسرعاً وقلبه ممتلئ بشعور عجيب من الثقة والكبرياء والطمأنينة .

ونظرت زنوبيا في أعقابه ، واسترجمت صورته ، وبدأت لها
ملاحمه واضحة في خيالها . وعجبت من نفسها كيف لم تدرك من
قبل ما في ذلك الوجه من قوة وملاحة ، وما في ذلك القوام من
اعتدال وتناسق ، وما في هين ذلك الصديق من عمق وصفاء .
وجاست تنظر إلى الأفق الشمالى لترى كيف يجتمع الجنود
وكيف يتعبأون للقتال ، وكيف يزحفون إلى العدو . وكانت
صورة لو نجين تعاودها بين حين وآخر ، فتجس العطف يغمرها
وترجو في نفسها أن يعود إليها سالماً ببشرى الانتصار .

الرسول الطريد

كان البهو الفسيح في قصر تدصر لا يزال على عهد مذكور كان أذينة يحل في صدره على التخت العالي الذي جلب خشبه من أرز لبنان . وكانت التماثيل لا تزال هناك على قواعد الذهبية أو المرمرية تتخلل ما بين الأرائك المذهبة التي تحملها النقوش المبقرة ، وتكسوها الوسائد الحريرية . كان كل شيء في موضعه لم ينقص منه إلا ذلك الروح الذي كان يسرى فيه عندما كان أذينة يجلس فيه للسمر على الشراب مع صحبه الذين كانوا يجتمعون في مجلسه من علية تدصر ، وشيوخ القبائل ووفود الأمم .

ولما دخلت زنوبيا إلى ذلك البهو ، وجمعت تنقل بصرها في أركانها هجمت عليها ذكريات تلك المجالس التي كانت هي زينتها وبهجتها وخيل إليها أن الزمن قد تقادم على تلك الأسمار ، وضربت ما بينها وبين ذلك الماضي عدة من القرون ، وثارت في نفسها نائرة من الشجون المرة عندما وقفت تنظر إلى تمثال إيزيس وإلى صورة كليوباتره ، حتى همت أن تخرج هاربة إلى حيث تبعد عن ذكريات ذلك العهد السعيد . فما كان أعظم الفرق بين ما كانت فيه عند ذلك وما آلت إليه بعد أن عركتها حوادث الدهر ، وطحنها تجارب تلك السنين . وأي سلاوى يجدها الشقى إذا

وقف عند آثار مسراته الغابرة وهو ينظر إليها وفي صدره قلب
مكلوم ؟ وأى عزاء يجده الحزين إذا وقع نظره على ما يذكره
بعمود أمله ومرحه وهو لا يجد في نفسه إلا ظلال الخيبة واليأس
وسوء الظن بالحياة ؟ .

ما أمر الشراب الحلو في فم المريض ! وما أقسى رنين
الضحكة المرحية في أذني الثاقل ! ولكن الملكة الحزينة لم تخرج
من البهو ولم تطع تلك الدفعة الأولى التي كادت تحملها على
الهروب من معاهد تلك الذكريات ، فترددت ثم وقفت حيناً
تجول ببصرها فيما حول البهو ثم ذهبت إلى الأريكة التي كانت
تجلس عليها في ليالي تلك الأسفار ، واستلقت عليها في فتور ،
وجعلت تجول بنظرها حول البهو وتستقر به حيناً عند كل
موضع منه ، وأسلمت خيالها لصور ذلك الماضي البهيج . فاذا بها
تجد في كل ركن من أركانه ذكرى ، وعند كل قطعة من تحفه
قصة وحديثاً . وعجبت من نفسها إذ أحست بعد حين أن صرارة
ذلك الشقاء الذي كان يملأ قلبها قد فترت ثم اضمحلت وزالت ،
فاذا بها تحيا بين ذكرياتها وتستعيد مرحها ، وتنتقل بنفسها حيناً
إلى مسرات ذلك العهد السعيد .

والتفتت في جولاتها إلى تمثال جدتها كليونبتره ، وكان لا يزال
عليه العقد الذهبي المحلى بالجواهر الذي ألبسته إياه في يوم العيد
الذي أقامته احتفالاً بنصر أذينة .

فاعتدلت في جلستها وفتحت عينيها باهتمام كأنها تنظر إلى صديق عاد بعد غيبة طويلة ، وصرت في ذهنها صور متراحة مختلفة أعادت لها حياة الأعوام الطويلة في لمحات تومض ثم تختفي كما يلمع البرق الخاطف . هذه كليوبتره التي كانت هي تتخذها مثلها في الحياة وتحاول أن تخطو في آثار أقدامها . هذه كليوبتره التي عرفت كيف تقتنص متعة الحياة ، وكيف تدبر الحيلة في أمر الملك ، والتي عرفت بعد كل ما أصابها من الخيبة والفشل أن تنجو من عواقب الهزيمة بأن لجأت إلى أحضان الموت الرفيق ، واستقبلته باسمه فاتحة له ذراعيها ، وهي في حلتها الملكية ، وعلى رأسها تاجها المجيد .

ونظرت زنوبيا عند ذلك إلى إصبعها ولا يزال فيها الخاتم الذي أعدته ليكون ملاجئاً لها من العار ، ونظرت إلى فصح الأحر الذي خبأت تحته السم الزعاف الذي ينجيها من هوان الحياة . ولكنها عندما نظرت إلى ذلك الخاتم سرت في جسمها رعدة ، وأحست بالبرد يدب في أطرافها ، فقد تمثل لها الموت كالخام مكشراً ، وتمثل لها القبر المظلم الذي يحتويها ويحرمها ضوء الشمس اللامعة ، ويقطع ما بينها وبين التلى بزهر الربيع الطالع وأريج نسيمه الرفيق ، وينزع حياتها بعد كل ذلك من بين بنيتها وبناتها لكي تخلفهم وراءها حيث لا تعرف لهم مصيراً . وتنفست نفساً عميقاً عند ذلك وقالت تنأجى نفسها :

— ماذا جنت على هذه الروح الخائرة التي تقعد بي دائماً
عن السمو والاقدام ؟ لقد كان لهذه الملكة المجيدة عقل وخيال
وروح ، ولكن ذلك لم يقتل فيها تلك الارادة التي رفعتها إلى
مصاف الآلهة . أين لي إرادة كارادتها ؟ .

وقامت في حنق وعادت إليها تلك الوثبة القوية التي كانت
تدفعها إلى الهروب من ذلك البهو ، فأتجهت إلى الباب مسرعة
في شيء من الفزع ، ولكنها ما كادت تبلغه حتى رأت عنده
لونجين مقبلاً نحوها في لباسه العسكري .

فتمهلت في سيرها وتمايلت نفسها ، ولم يخل قلبها من
شعور بالاطمئنان والارتياح يداخله منذ وقع نظرها على معلمها .
وحياها لونجين ووجهه لا ينم عن شيء مما كان في نفسه من
قبضة الخذلان ووجوم الهزيمة الطاحنة التي ذاق صرارها كل من
في تدمر .

ونظر إليها وكأن قلبه لا يحوى شيئاً غير ما فيه من حب
الملكة الذي ملأه وسيطر عليه . وقال :

— نعم مساء مولاتي !

فتمالت له زنوبيا في بسملة حزينة :

— نعم مساؤك يا لونجين . لعلك ذقت بعض النوم في يومك
بعد طول سهرك في الليلة القاسية التي مرت بنا ، لسكّاني بالعدو قد
أحاط بالمدينة من كل أطرافها .

فقال لونيحين :

— لن يستطيع أن يحيط بها إلا إذا أوتى ضعف عدده
من الجنود . ولا تزال الطريق إلى الشرق خالية منه .

فقات زنوبيا وهي تتنفس :

— لم يعد رسولنا الذي بعثناه إلى ملك فارس الجديد هرمز
ابن سابور ، وأكبر ظني أن امراً القيس بن عمرو لن ينسى قديم
حقده ، بل سينتهز الفرصة لاذلالى وإرضاء سخييمته .

فتردد لونيحين ولم يجب ، فاستمرت الملكة تقول فى حزن
واستسلام :

— ماذا تستطيع القوة الانسانية إذا كانت الأقدار قد
حتمت الخذلان ؟ إنها الأقدار التى تحاربني يا لونيحين .

ونظر لونيحين إليها مفتوح العينين صامتاً ، وفى قلبه حزن
عميق يكاد يغلبه ، لولا إشفاقه أن يزيد إظهاره من يأس الملكة
العزيرة .

وكان الهواء يهب من الغرب بارداً بعد أن غابت شمس
اليوم ، لا يشبه فى شدة هبوبه وداعة نسائم الربيع التى تعودت
تدصر أن تستقبلها فى مثل ذلك الوقت من العام ؛ ولم تقو الملكة
على تحمل برده فألقت على كتفها ثوباً رقيقاً صنع من أوبار
الابل ، وجلست فى صمت يخفى تحت ظاهره قلقاً تم عنه حركة

دأمة من أصابع يديها وتقليب عينيها بين حين وحين في أطراف
البهو الفسيح .

وأراد لو نجح أن يخفف عنها ما كان في نفسها من القلق ،
فجعل يحدثها عما شهد في يومه من حوادث الحرب ، ويدكر لها
ما كان من جيشها من استبسال وتفان في المكيمة ، وقال
في عقب حديثه :

— لن يقوى العدو على طول ذلك القتال المضني ، وسيرتد
على أعقابهم يائساً بعد قليل .

فقالت الملكة وفي جوابها شيء من الحق :

— هذا قول كنا نعمل به منذ الخريف يا لونيجهن . كنا
نعمل بذلك بعد هزيمة حمص الطاحنة التي لا أزال أخجل كلما
ذكرتها . ولكن ها هو ذا عدونا يحاصرنا في تدمر منذ تلك
الهزيمة ؛ وها هو ذا الشتاء قد انصرم ولا يزال يحاصرنا . كنا نظن
أن الصحراء تقضي على أورليان وأنه لن يجد فيها زاداً لجيشه ،
ولكن القوافل تتوارد إليه من الشرق ومن الغرب كل
يوم ، ونحن لا نستطيع أن نحول بينه وبينها . ولقد بلغ بي
الأمر إلى أن خضعت وذلت وأرسلت إلى سابور أسأله العون
على الروم مقرة له بذنبي طالبة منه المغفرة . بل لقد نزلت له عن
ميراث تدمر في الشمال والشرق ثمناً لمساعدته . وأشد من كل ذلك
وقعاً على نفسي أنني اضطرت إلى أن أبعث إلى اهرى القيس

ابن عمرو أطلب نجدة وأستميل قلبه بالهدايا لعله ينسى ما مضى
من العداوة ، ويخف إلى نصرتي على الروم الذين لن يبقوا على
ملكه إذا انتصروا على . ولكن الأقدار أبت إلا أن تتألب على
وتحالف أعدائي ، فان ذلك الشيخ سابور الذي كان يحق له أن
يموت منذ عشرات السنين لم تختل له الأقدار أجله إلا عندما هم
بمساعدي . فلم يأت إلى جوابه إلا مع نعيه . وأما امرؤ القيس
ابن عمرو فانه لم يعبأ بضراعتي ولم يبعث إلى رد كتابي . فأى
شيء يدل عليه هذا إن لم يدل على عداوة الأقدار ؟
فقال لونيحين وفي صوته رنين الخيبة :

— ولكننا يا مولاتي لا نزال ندافع ولا نزال يدنا العليا في
القتال . وما أحرارك يا مولاتي في شجاعتك وقوة نفسك أن تكوني
هواناً على الثبات كما كانت من قبل عادتك .

فقالت زنوبيا وقد خفضت صوتها في شيء من الخجل :
— ما هي يا لونيحين إلا للدعة الخيبة تنطق لسانى بما لا أقوى
على دفعه عن قلبي . إننى لا أقدر على النطق بحرف من هذا أمام
سمواك ، فدعنى أنفسى عن صدرى يا لونيحين .

فأحس لونيحين كأن سهماً قد أصاب قلبه عند ذلك لما فى
قول الملكة من حزن وضعف ؛ وصرت فى قلبه صور النكبات
الجليلة التى نزلت بها منذ بدأت حربها مع أورليان . هذه زنوبيا
المتكبرة التى وقفت من قبل فى وجه العواصف الشائرة تلجأ إليه

في استسلام وتبوح له بما عندها من هموم لكي تنفس عن
كربتها الشديدة التي تثقل صدرها . إنها تجلس دونه كما يجلس
الصديق دون صديقه يفضي إليه بمكنون سره لا يحول بينهما
ملك ولا تحجب بينهما عزة ولا كبرياء . هذه هي المرأة التي لو لم
تكن ملكة لاستطاع أن يجد السعادة في قربها وحديثها وسمو
فكرها وقلبها ، وهي تنزل إليه من عرشها لتحدثه كما يحدث
الصديق صديقه ، وهو مع ذلك لا يزال يرمقها من بعيد ولا يحاول
أن يقترب منها . ماذا وجدت من الملك والمجد منذ عرفها غير
الآلام والهموم ؟ وأي يوم طلع عليها منذ عرفها لم تشب سعادتها
شوائب من الأحزان والقلق والاضطراب ؟ ولو كانت زنوبيا
امرأة غير ملكة تدمر لأمكنه أن يفصح لها عن ذلك الحب الذي
يملا قلبه منها ، ويضع ذلك القلب تحت قدميها ، ويهب لها كل
ما يملك من إخلاص ، ويدعوها إلى أن تنجو معه إلى بعض فجاج
الأرض ، فما زالت بها أركان يظللها السلام في مأمن من تلك
الهموم التي تملأ قلبها بأساً .

أي سعادة تكون له لو كانت زنوبيا امرأة من نساء هذا
العالم ورضيت أن تعيش معه في جزيرة بعيدة في البحر أو في
واحة منعزلة في الصحراء ؟ إذاً لوجد السعادة والأنس في وحشة
تلك العزلة ، ولاستطاع أن يذوق الحياة الحلوة التي لم يعرفها في
يوم من الأيام . ولكن هذه المرأة هي زنوبيا ملكة تدمر ،

ولو باح لها بهذه الخواطر لضحكت ساخرة منه ، ولطمنت
كبرياءه طعنة لا يستطيع أن يقوى على الحياة بعدها . إنها تفضل
الشقاء والهم واليأس ، ولا تزال تتعلق بالمجد الزائل الذي طالما
ذاقت صراره ، ولن تدرك من قوله إذا قاله سوى أنه طموح
عقل مخبول أو ثورة قلب ضلّته الأوهام .

ولما رأت زنوبيا معلمها غارقاً في تفكيره قالت له ، وهي
تتكلف الابتسام :

— عفواً أيها الصديق ، فقد ملأت قلبك حزناً ويأساً .
هكذا النساء يا لونيحين لا يستطعن أن يخلصن من طباعهن .
لم تخلق المرأة للجهاد يا لونيحين ، ويا ليتنى لم أعرف يوماً
فلك النضال . وإنى أعجب من نفسى إذا رأيتها لا تسخو بالملك ،
ولا تزهد في هذا المجد الباطل ، بل تبقى على حرصها مع عجزها
وضعفها . يا ليتنى استطعت أن أبيع ما أملك ، وأصرف نفسى
عن الحياة كما فعلت ليس ، وأتبع يسوع كما اتبعته هذه المرأة
الكرامة .

وصمتت قليلاً ثم قالت تحدث نفسها :

— ألا أستطيع أن أرى ليس ؟ إننى أحسن إليها كلما
ضقت بهذه الحياة .

ونظرت إلى لونيحين كأنها تنتظر جوابه ، فقال الرجل متمهما :

— ليس ؟ واعجبا لي ! فقد نسيت أمرها ، ألا تزال مقيمة

عند قبر زوجها ؟

فقالت الملكة في فتور :

— وهل تقدر على البقاء في ظاهر المدينة والجنود يملأون

فضاء الصحراء ؟ إنها هنا في تدسر وإن كانت لا تلم بالقصر .

فقال لونيخين وهو يقف مسرعاً :

— إذا شئت يا مولاتي أرسلت في طلبها .

فقالت زنوبيا وهي تقف في فتور :

— لا تفعل يا لونيخين . إذا شئت ذهبت أنا إليها . لقد بدا

لي الحق من خلال المصائب . هي زنوبيا التي يجب عليها أن
تسمى إلى ليس .

وسارت تخطو على مهل نحو الباب تجرر قدميها ، ولكنها

ما كادت تبلغ طرف البهو حتى ظهر لها حاجب القصر يريد أن
يستأذن عليها . فبادرته قائلة :

— خيراً !

فانحنى الرجل ومد يده بالتحية ثم قال :

— زبدة وزباع يستأذنان مولاتي في بعض الحديث .

فقالت في شبه صرخة :

— أسرع إليهما ، فليقبلا .

ثم التفتت وراءها إلى لونيخين وقد اتسعت عيناها واتقد

فيهما شمع خاطف ، وقالت وقد ذهب عنها الفتور :
— ما أقبل هذان إلا في أمر خطير .

ثم عادت إلى صدر البهو فجلست وهي تكافح الاضطراب
الذي اعترأها ، ونظرت نحو الباب صامتة في قلق :

ودخل القائدان بعد حين يسيران في خطى وثيدة وهما
جاهان ؛ ونظرت الملكة إلى وجهيهما المجددين ، وإلى آثار الجراح
التي مرقتهما في المواقع الكثيرة التي خاضا غمارها ، وخفق قلبها
خفقة عميقة كاد ينخلع لها عند ما ذكرت كيف كانا يقبلان
عليها بعد انتصارهما ليركما عند قدميها ويردا إليها المجد الذي
استمداه في الحرب من عز دولتها .

ولم تجد زنوبيا من القول ما يطيعها ، فكتفت بأن أومأت
إليهما بالتحية ، وأشارت إليهما بالجلوس ، ونظرت إليهما في
صمت وتلهف ، فقال زباع بعد لحظة إطراق :

— ليس في الحرب يا مولاتي ما يوقع في النفس ذلة غير أن
يجبن المحارب أو يقصر في الدفاع . ولم تأل جنودنا جهداً منذ
وقفت على أسوار تدمر تكافح وتناضل وتلاقى المنايا وجهها لوجه
في كل يوم وفي كل ليلة .

فقالت زنوبيا وهي تغص بريقها :

— وهل من جديد يا أبا مالك ؟ .

فقال زباع :

— اليوم جاء جيش الروم مع (پروپوس) بعد أن أتم فتح مصر لمولاه أورليان ، ووقف هذا الصباح في الجانب الشرقى من المدينة فأتم حصرها .

فارتعت الملكة إلى ظهر الأريكة وقالت :

— إذا هزم تيجانين !

فقال زباع في صوت خافت :

— بل قتل يا مولاتى .

فأغمضت الملكة عينيها وصمتت لحظة طويلة ، ثم وضعت يدها على جبينها ونظرت إلى لونجين كأنها تسأله أن يدركها بلفظ ترد به ، فاستمر زباع فقال :

— وليس لنا اليوم من أمل في النصر إلا أن تحدث المعجزة .

فتدخل زبدة في الحديث عند ذلك فقال :

— وما نحن والمعجزات يا مولاتى ؟ ليس في الحروب غير

القتال بين الرجال ، وما ينبغى لنا إلا أن نلتمس العون من هرمى وأمرىء القيس :

فقالت زنوبيا مبادرة :

— ألم نلتمس ذلك العون يا أبا دعبل ؟

فقال زبدة متردداً :

— ليس لنا أن نبعث في ذلك الرسل . ما ينبغى لأحد سواك

أن يكون رسول تدعى إليه . وأمر آخر أحب أن أقوله : لتنج

مولاتى بنفسها وبأهلها قبل أن يحول العدو بينك وبين النجاة .
فنظرت زنوبيا إليه فى دهشة وارتياح ، ثم نظرت إلى زباع
وقالت :

— وأنت على مثل رأيه يا أبا مالك ؟

فأطرق زباع حيناً ثم قال فى حزن :

— لو كنت أستهال لنفسى لما وجدت غير الصبر هنا على
القتال . وماذا بقى لى من الحياة إلا أن أذهب فى طمعة من رمح
أو ضربة من سيف ؟ لقد فاضت بى الكأس ، وليس لى مأرب فى
أن أذل للملك فارس أو لذئب الحيرة الذى يعوى فى جانب الفلاة .
ولكن زبدة ينظر فى أمرك وأمر بنيك يا مولاتى . لست
أستطيع أن أشير عليك بغير رأى زبدة حرصاً عليك من
مغبة القتال .

فأطرقت زنوبيا حيناً والحزن يعصر قلبها ، ثم رفعت رأسها
إلى لونجين كأنما تسأله أن يرى لها ، ووقعت عينها عند ذلك فى
عينيه . فسرت فيه هزة أرتج لها جسمه ، وسنحت له صورة
ما يؤول إليه أمر الملكة إذا بقيت فى تدمر حتى يحكم فيها القضاء
حكمه ، وتقع فى غنائم أورليان ، وتواردت على قلبه المضطرب
خواطر سريمة جعلت رأسه يدور به ، فلم يقو على أن يجيب .
أبقى زنوبيا فى تدمر لتكون غنيمة للنصر يعمود بها الامبراطور
لتكون زينة موكبه فى روما ؟ أما فى براح الأرض منجى من ذلك

المصير الذليل ؟ ولم لا تطيع زنوبيا رأى زبدة ، وتذهب برسالتها إلى
هرم بن سابور ؟ بل لم لا تذهب إلى امرئ القيس بن عمرو لعل
في لوعة الملكة ما يلين من عداوته ، وينسيه ماضى حقه ويستميله
إلى نصرة تدمر الصريمة ؟ ولم يخل قلبه من شعاعة من السرور
عندما تصور نفسه في براح الأرض مع زنوبيا وإن كانت طريدة .
ألا تكون الأقدار قد ساقته له تلك المحنة لكي ينجو معها من
سجن الملك ، ويصبح معها رجلا مع امرأة يضربان في فجاج
الأرض لا تقوم بينهما حواجز الحياة ، ولا تحجبه عنها تلك
الأسوار الشوكية التي أقامها غرور الانسان ؟

وقطع لونهجين الصمت بعد حين فقال :

— لقد أصاب زبدة يامولاتي في رأيه . فما ينبغي أن يذهب
برسالة تدمر إلا مليكتها . أنت لا تخرجين هاربة ، ولكنك
تحتالين مع جيشك في الدفاع .

فأطرق زباع وعرض شفته ، وبدأت على زبدة رجفة لم يملك
نفسه من إظهارها ، ونظرت الملكة في وجوه القوم حيناً وهي
صامتة ، ثم قامت في شيء من العنف ، وقالت بصوت فيه رنين
الذعاس .

— لقد خرجت مرة من تدمر وحيدة وخاطرت بكل شيء ،
وكان الظلام يسد من حولى الآفاق . وسأخاطر اليوم مرة أخرى .
سأخرج وحيدة ، أضرب في فيافي الأرض لأستلين قلب هرم

ابن سابور . لست أعبأ بهذه الحياة ، ولا أريد النجاة بنفسى
وأهلى من مصير قدسى . وسأترك معكم بنى وبناتى هنا . فان
نجحت عدت إليكم بالنصر ، وإن كانت الأخرى ...

ووقفت عن القول عند ذلك واشتد اضطرابها ، فجلست خائرة
ووضعت رأسها على يدها ، ثم قالت بعد حين فى صوت باك :
— سأخرج الليلة من حيث خرجت من قبل . فدعونى
ساعة لأستجمع قوتى قبل الرحيل .

وأطلت النجوم خافتة قبل مطلع الشمس ، وكانت الملكة
تضرب فى فياق الصحراء على هجين ، وإلى جانبها لونهجين
يركب هجينه صامتاً ، وهما ينظران إلى الأفق الشرقى الذى بدا
مثل خط أغبش تقطعه رموس الربى وأمواج من الكشبان .
ولم ياتفتا إلى خلفهما مرة ، إذ كان ههما كله فيما دونهما
من أمام ، فلم يريا رجلا توارى عنهما خلف صخرة فى الطريق
بعد أن خرجا من الباب الخفى فى القصر ، فلما مرا وقف يتبعهما
ببصره فى بسمة حقد مسمومة ، وناجى نفسه وهو ينطلق فى
سبيله نحو معسكر الروم :

— لا كنت الضحيان كاهن تدمر الموتور إن جعلتهما

يفلتان .

الأسيرة

مضى الليل ، وأضاءت الشمس مرة أخرى فوق فدادين الصحراء ، وما تزال الآفاق البعيدة تطلع من الشرق في بطاء أمام نظر الملكة وهي تضرب في الصحراء الموحشة .

كانت الهجين تطوى الأرض خفيفة ، ولكنها مع ذلك كانت لا تقرب زنوبيا من سواد العراق إلا بخطى ثقيلة . ألا ليتها كانت تستطيع أن تطير مثل أسراب القطا التي كانت تخلفها وراءها ، واثبة مع خفقات أجنحتها ، وتغيب عن عينها في بعض لمحات البصر ، وتملاً قلبها حسرة من حركة مطيتها الفارسة التي خيل إليها أنها تدب على الرمال مثل ديب النملة الضعيفة .

وكانت شمس الربيع تصعد في السماء متمهلة على عاداتها ، ولم تشق مجراها في وثبات واسعة لكي تبلغ مغربها كما يشتهي قاب الملكة المتلهف ، حتى لقد خيل إليها أنها كانت تتماقل في عناد اتريد من قلقها وحنقها وخوفها . كان كل ما حول الملكة بطيئاً هادئاً موحشاً ، كأن الآلهة كلها قد أجمعت على أن تسخر من قلقها ولهفتها . ومضى اليوم كأن كل ساعة منه عام طويل ، والملكة لا تزال تتطلع نحو الأفق الشرقي في صمت ، لا تجد في نفسها موضعاً لغير الوحشة التي ملأتها ، فلم يجزؤ لونهاجين على أن يحدتها

أو أن يستوقفها لتذوق شيئاً من راحة أو طعام . فسار في آثارها يتوآب فوق هجينه ، وينظر إليها حزينا وهي مستشرفة بعينها نحو الشرق . واجتمعت عليه الخواطر تقطع عليه وحشة الصمت بصحبته ، ولكنها أبدلت من وحشته همًّا وشقاءً وألماً . جعل يسائل نفسه عما يخبئه القضاء لهذه المرأة العزيزة التي جعلتها الأقدار منذ عرفها هدفا لكل جليل من الأحران والكوارث ؛ فقد أصبحت زنوبيا عنده غير تلك الملكة التي كان يقيم في ظلها في تدمر ، بل صارت امرأة حلت في قلبه وملأت كل فراغه ، حتى لكأنه هو الذي أصبح عليه واجب حمايتها . أليسا معا يضربان في الصحراء لا ثالث لهما ، وقد قطعا ما بينهما وبين من خلفاهم وراء ظهرهما ، ولا يدران ماذا يستقبلهما من أمام ؟ وماذا جنت هذه الملكة المسكينة من الملك والمجد والساطان غير هذا القلق الدائم وهذا التشريد الذي لا يمانى مثله صمالك الصحراء في خيامهم الرثة ؟ أليست أفقر امرأة في تلك الرمال الجرداء خيراً منها ، إذ تستقر في كسر بيتها راضية بالحياة الضئيلة التي تحياها مع زوجها وبنيتها ؟ وهذا فضاء الأرض الرحب دونهما إذا شاءت الملكة انطلقت فيه إلى حيث تنسى مآكها وشقاءها ، وتعيش في أمن ودعة ، وهو إلى جانبها يبذل لها أسى ما يمكن أن يبذله رجل لامرأة من الحب والرعاية . ألا ما أعجب العقل الانساني في تصرفه واختياره ! هناك السعادة ، وهناك الشقاء ، ولكن

أستطيع الملكة أن تختار غير ذلك الشقاء الذى تعانيه ؟
أستطيع أن تختار الأمن والسلام إذا أمكن أن تجدهما فى
ركن بعيد من أركان العالم ، لا يعرف هموم الملك ، ولا يقاسى ثمن
المجد الفادح ؟ أستطيع أن ترضى بالبعد عن زحمة الحياة وزخارفها
وتقنع بصحبته هو ؟ أف لهذه الحظوظ كيف قسمت ! وأف
لهذا القلب الذى يعذبه ، ويطلعه بين حين وآخر على معنى جديد
من حماقاته ! إنها لا تستطيع بغير شك أن تختار إلا ذلك المجد ،
وما يلحق به من أحزان وكوارث ، فان ضالة الحياة الوداعة
لا ترضى إلا النفوس التى اطمأنت إلى الآفاق الضيقة .

وما الذى دفع هذه المرأة العزیزة إلى أن تخرج وحيدة من
قصرها ومن دارها ومن بين قومها ؟ أهى حقاً تحرص على
الحياة ، وتجاهد فى سبيلها من أجل نفسها ، أم من أجل بناتها
وبناتها ؟ أم من أجل واجبها نحو عرشها وقومها ؟

لقد تعودت أن تكون صريحة مع نفسها ، فلا تكذبها
ولا تخادعها ؛ فمن له أن يعرف ما كمن فى قرارة نفسها ؟ أكانت
حقاً تحس أنها هاربة بنفسها خوف الهلاك والذل ، أم كانت
ساعية إلى جهاد جديد لا تبالى فيه ما ينزل من نكبات أو شقاء ؟
وخطرت له خاطرة مزعجة فى لجة هذا التأمل المضطرب ، فسأل
نفسه عما يكون حال الملكة لو أنها بلغت قصر هرمن فى طيسفون
فألفت نفسها فيه أسيرة عند أعدائها الذين لم ينسوا ما أذاقتهم

تدمر من الهوان منذ سنين ؟ فهل تجرؤ عند ذلك على أن تقتحم
الأبدية وتهلك نفسها كما فعلت من قبل جدتها العظيمة ، التي
كانت لا تغفل عن ذكرها ؟ وكيف تكون الحياة لو آل بها
الأمر إلى مثل هذا المصير المفجع الأليم ؟ أراها تهلك تحت
ناظره وهو لا يستطيع أن يدفع عنها أو ينتقم لها ؟ وماذا يملك
أن يبذل لها من نفسه ليفتديها أو ليحميها ؟

وبدت له الحياة عند ذلك هينة ، وخيل إليه أن يسرع
حتى يسير إلى جانبها ، ثم يسبق الأقدار ، فيسل خنجره المشحوذ
ويطعن به فؤاده لكي يقع عند موطن أقدام مطيتها . ولكنه
صحا من تلك الوسوس ، وعنف نفسه أشد التعنيف على الاسترسال
في هذه المخاوف السخيفة ؛ فما كان له أن يتمجّل الأقدار ، ولا أن
يسبق إلى اليأس ، فإن أبواب الغيب ما زالت موصدة دونه ،
ولعل القضاء قد أعد لها مفاجأة عجيبة فيها فرجة إلى الأمل والنجاح
ووقع عند ذلك في سمع لو نجين صوت كأنه ينبعث إليه من
عالم الحلم ، فتلفت حوله فاذا بالملكة تناديه في شيء من البشر صائحة :
— أما ترى سواد العراق يا لو نجين ؟ هذه أنوار القرى تخفق
عند الأفق ، وما هي إلا ساعة حتى نبليح النهر .

وكانت الشمس قد غابت ، ودب الظلام إلى الأفق ، وبدأت
النجوم خافتة في سمائها الصافية ، والقمر مائل إلى كفة الغرب
كأن نصفه قد تحطم في مقارعة الخطوب .

فقال لونيحين وكأنه أفاق من سبات :

— أبشرى يا مولاتى ، فهذا مطلع النجاة .

فنظرت زنوبيا حيناً إلى ما حولها وقالت فى لهجة ساخرة :

— لكأنى بهذه النجوم يا لونيحين تسخر من همومى . أى

هموم تلك التى مضطرب من أجلها ؟ وما حياتنا هذه التى نشقى

فى سبيلها ؟ أليست سوى لحظات ضئيلة فى مجرى الأبدية التى

اطلعت عليها هذه النجوم ؟

فتنفس لونيحين وقال بعد حين :

— وهل يملك الانسان إلا ما وهبته الآلهة التى تدبر أمور

هذا الكون ؟ .

فصمتت الملكة حيناً ، ثم قالت وقد ذهب عن صومها رنين

البشر الذى سرى فيه منذ قليل :

— لست أدرى ، لم أحس فى قلبى ظلاماً وبرداً ؟ صدرى

ممتلئ بالرهبة من هذا السواد المقبل . وأكاد أثنى زمام الهجين

لأعود إلى الصحراء لألتبس فيها مضجعاً أبدياً .

وسكتت لحظة ، ولم يجد لونيحين ما يجيب به ، ثم استأنفت

قولها بعد حين فى فتور :

— ولكنى كلما فكرت فى الموت أحسست قشعريرة

تهزج جسمى . لقد قتل التفكير قوة نفسى ، ولم يبق لى إرادة

على الإقدام . ليعتني أفارق هذا العقل الذي يشرد بي ويضلاني .
إنني كلما تذكرت جدتي كايو بتره تبيندت الفرق بين القزم والعملاق ؛
كان قلبها الكبير يدفعها في حياتها حتى انتهى بها إلى الدفعة
العظمى ، فقذف بها من الحياة ، ففارقته راضية عند ما كان المجد
في فراقها . وأما أنا فقد أُمات الفكر قلبي ، لم يستطع هذا
الفكر أن يدفعني ، بل كان دائماً يترنح بي ويتردد .

ثم نظرت إلى لونيخين وقالت في حماسة :

— قل لي يا لونيخين : ماذا أعددتنا لأنفسنا إذا بلغنا هذا
الشاطئ ، ووجدنا عنده جنودهم من تستقبلنا بالسيوف ونحيط
بنا لنذهب بنا إلى سيدةها في سلاسل الأسر ؟

فدهش لونيخين إذ تتحدث الملكة إليه بالخاطر الذي سبق
إلى قلبه من قبل ، ومنعته الدهشة أن يسرع في الجواب ؛
فاستمرت الملكة تتحدث في شيء من الحنق :

— أأجرؤ عند ذلك على أن أرفع يدي بهذا الخاتم الذي
أعدته طول الحياة ليكون وسيلة الخلاص من الهوان ؟
وماذا يجديني أن أحفظ به هنا في يدي ، وأنا لا أقوى
على التفكير في الموت ، ولا أجرؤ على أن أخطو خطوة
واحدة لألقاه ؟

ولما أتمت قولها نزع الخاتم من يمينها في حركة عنيفة ،

وقدفت به إلى الرمال قبل أن يستطيع لو نجين أن يجد لفظاً واحداً للجواب .

وبعد قليل تنبه الطريدان إلى صوت يتعالى من خلفهما ؛ فكأنما نزلت عليهما صاعقة من السماء ؛ فأوقفت زنوبيا هجيتها والتفت وراءها تبين مبعث الصوت ، وقد أحست بأن أعضائها قد شلت وسرى فيها جمود الموت . وقالت في صرخة مكتومة :
— أتكون ثمة خيانة ؟ أعلم الروم بمسيري ؟

ومضى الراكبان في سيرهما صامتين ينظران نحو سواد العراق الذي بدا غامضاً في ضوء القمر الضئيل . ولكن الركب المطارد اقترب منهما يركض أفراسه حتى صار وقع سنابكها على صخر الأرض يتردد مع خفقات قلبيهما المضطربين ، فوقفا في موضعهما مرتبكين .

ووضع لو نجين يده على سيفه وتقدم يستقبل القادمين ، فاذا أشباح تلوح له تتجه نحوها مسرعة كأنها صخور تنحدر مع السيول . وما هي إلا لحظات حتى كانت كتيبة من الروم تهوى عليهما وهي تنصايح وتلاطم في عنف حركتها .

فمنظرت زنوبيا نحو لو نجين في فزع كاد يعقل لسانها وقالت بلسان متلعثم :

— أهكذا انتهى الأمر يا لو نجين ؟

فحرك لو نجين يده بغير تفكير ، ونزع سيفه من غمده

وتقدم كأنما يريد القتال . ولكن الملكة صاحت به في هلع قائلة :
— أمسك يا لونيحين وابق معي فان الخوف يملكني .
فأغمد الرجل سيفه في سرعة ، ووقف مرتبكاً ينظر إلى
الجنود وهم يقتربون منهما حتى صاروا على قيد خطوات . وصاح
قائد الكتيبة يطلب من الطريدين أن ينزلا . وما كادت الملكة
تسمع صوت القائد ، وتنظر على ضوء القمر وجهه حتى ذهب
عنها ما اعتراها من الجود ، وعادت إليها حرارة الحياة مع ثورة
من الغيظ والغضب ، ومدت يدها بغير وعي إلى قتب المهجين
تلتبس فيه موضع السوط الذي تسوق به دابتها ؛ فقد عرفت
أن صاحب الصوت ما هو إلا الضحيان كاهن تدمر الخائن الذي
طالما غدر بها . ولكنها أرجعت يدها ، وكتمت صيحة الغيظ التي
كادت تفلت منها ، واستسلمت في حلق للجندى الذي أقبل
ينميخ مطيتها .

نهاية لونهجين

لم يطل دفاع تدمر بعد أن خرجت منها الملكة تضرب في الصحراء مع لونهجين قاصدة نحو الشرق تلتهمس المعونة من هرمز ابن سابور ملك الفرس ، أو من ملك الحيرة امري القيس بن عمرو ، فان أنباء أسرها لم تلبث أن بلغت تدمر ، فخذت النفوس وفتت في عضد الجنود ، ودب الخلاف بين قوادها ، حتى غلب عليهم رأى اليأس ، فاطمأنوا إلى وعود أورليان ، وفتحوا له الأبواب ، وحل في قصر ملكها قائد الجيش الذي خلفه بها أورليان . وسار إلى حمص ليحتفل بنصره فيها ويصب نغمته على الملكة العنيدة التي أنهكت قوى جيشه في نضالها المر ودفاعها المستميت . ونسيت حمص ما صر بها من المحن ، أو كأنها غفأت عن تلك المحن حيناً في ضجة العيد الشامل الذي أقامه أورليان بها احتفالاً بنصره الباهر على تدمر . كانت طرق المدينة تموج بالآلوف من الجنود الذين أرخوا لأنفسهم العنان ليغسلوا في مباحج الحياة الصاخبة ما أصابهم من متاعب الحروب المتواصلة منذ الخريف . وكانت ميادين السباق الفسيحة تردد أصداً صيحات المرح والمجون كلما سفك المصارع الغالب دم خصمه العنيد بعد جولات من النضال العنيف ، ولم ينس أورليان أن يخلب الباب الشعب

المحتشد فوق درج المقاعد الحجرية بما لم يسبق له أن يظفر بمثله منذ عهد بعيد ، فقد بعث إلى الميدان عشرات من الأسود والفهود لكي تمزق تحت عيون ألوفه المزدحمة أجسام الأسرى الذين اختارهم للقتل من جيش تدمر المهزوم ، إذ أراد الامبراطور المنتصر أن يكون احتفاله بنصره عظيماً بعد أن أزال عن الأرض دولة تدمر التي كانت منذ حين تنافس رومة في مجدها وسطوتها وسلطانها على الشرق .

وسار الامبراطور في موكبه العظيم في طرق حمص يسوق جيشاً كثيفاً من بنى زنوبيا وقواد جيش تدمر وشيوخ قبائلها ، وتحف به محامل نضدت عليها تحف قصر أذينة ، وما غنم الامبراطور منه من فضة وذهب وجوهر ، ليملم الملاء أن تدمر قد صارت ميراث قيصر الروم . وسارت من خلفه كتائب مختارة من جيشه في سلاحها ودروعها ، تهز الأرض تحت أقدام الشعب المجتمع على جوانب الطرق ليحیی المنتصر الجديد ، كما كان يحیی من قبل أذينة العظيم . ولما بلغ الموكب القصر الذي كان أذينة يقيم فيه نزل الامبراطور مع قواده ، ووقفت جنود الجيش في الميدان الفسيح المحيط بالقصر ، ودخل أورليان في حاشيته الزاهية إلى البهو العظيم الذي أعد فيه أذينة وليته الكبرى التي شهدت مصرعه . وكان التخت الذي نصب له لا يزال قائماً في الموضع الذي رأت فيه زنوبيا جثة زوجها ، وحيث رأت شهناز مكبة عليها

تبكى بكاءها المرير . وكانت الملكة جالسة مع لونيخين في جانب من البهو في انتظار الملك الذى جعل ذلك اليوم موعداً لمحاكمتها على جريمة الثورة على روما ، والوقوف له بجيوشها .

ثم أدخل إلى البهو جماعات الأسرى ، فأجلس بنو أذينة في جانب وجلس القواد في جانب ، وقد تملقت عيونهم جميعاً بالملكة المسكينة منذ وقعت أنظارهم عليها . وأجالت زنوبيا بصرها في الجموع ، ثم أطرقت في حزن عميق ، واستسلمت لجيوش الذكريات والهموم .

ولما استقر الامبراطور في مجلسه ، وخشعت الأنفاس في انتظار كلمته نادى زنوبيا قائلاً :

— يا زنوبيا ابنة عمرو الظرب التى كانت ملكة تدمر .

فرفعت زنوبيا رأسها من جانب البهو ، وقالت في صوت هادئ :

— أنا هذه أيها الامبراطور المنتصر — زنوبيا سلميلة الملوك من بيت السميدع وبيت بطليموس .

فصمت أورليان لحظة ، ثم قال بصوته الجمهورى :

— لقد جلسنا اليوم لنسمع قولك قبل أن نوقع بك العقوبة التى أنت جديرة بها لخروجك على دولة الروم العظمى .

فقات ولم تتحرك من مجلسها :

— لم تخرج على دولة الروم ، فلم تكن لها رعية . ولكننا حاربناها .

فسرت هممة في قواد الروم ، ولعت أعين قواد تدمر ، ومد وهب اللات ابن الملكة عنقه لتقع عينه في عين أمه الباسلة . واستمر الامبراطور فقال وفي صوته رنة قسوة صلبة :

— لقد اغتررت كما اغتر زوجك من قبل ، فحسبت أن دولة الروم قد هزها الضعف ، وأنهكت قواها الثورات ، وأطمعك ما بدا لك من لين الملوك وإكرامهم ، فغزت مصر ووقفت بجندك لقتالي . فهل عندك ما تدفعين به عن نفسك ؟ أكنت صادرة عن رأيك أم قد غرك هؤلاء ؟

وأشار عند ذلك إلى قواد تدمر في ركن البهو البعيد . فقالت زنوبيا :

— أيها الملك الغالب . قد ملكت فاسجح . فاني لا أملك اليوم قتالك . فان كنت قد دبرت في نفسك حكما فامض فيه . وإن كنت تريد دفاعي ، فما عندي من دفاع سوى أنك غلبت وأنني هزمت . كنت أرى دوني ملوكا على الروم مثل جالينوس وكلوديوس ، نصرناهم فهدوا لنا في السلطان ، ثم جئت أنت فحاربتنا وساعدتك الأقدار . فهل تريد منا شيئا بعد الخضوع ؟ نخيم السكون على المجلس ، وتردد الامبراطور حينئذ ثم قال :

— إذا لقد حاربت جيوشى عامدة ، ودخلت بلادى معتدية

تلتهمسين الغلبة . لم يبعثك إلى حربى غير الأمل الكاذب والغرور
المهلك . تكلمى يا زنوبيا ولا تستنلى العقوبة على رأسك . إنك
امرأة ولا ينبغي أن تتحملى وزر من أشاروا عليك . ألم يحملك
هؤلاء على محاربتى طمعاً فى ضعفك ؟

وأشار إلى قوادها مرة أخرى ، ثم أشار إلى لوبجين
وتعالت عند ذلك ضجة من الميدان فى أسفل القصر ،
فسكنت الأصوات تستمع ، فاذا الجيش يهتف منادياً فى عنف
يطلب دم الملكة المجرمة .

وسمعت زنوبيا ذلك النداء فاهتزت وامتنع لونها واضطرب
قوادها ، ولم تجد من اللفظ ما تقوى به على الجواب .
فقال الامبراطور بعد أن سكنت ضجة الجنود .

— إن صمتك فيه الجواب . وإن فى ترددك عن اتهام هؤلاء
ما يبعثنا على بعض الرقة عليك . لا تجيبى . فحسبى منك هذا
الصمت البليغ .

ثم اتجه إلى لوبجين ونادى قائلاً :

— لوبجين المعروف بلونجين الفيلسوف .

فتحرك لونجين فى موضعه ثم وقف هادئاً وقال :

— أنا هنا أيها الامبراطور .

فقال أورليان فى جفاء :

— أأنت رومانياً ؟

قال لونيحين :

— كنت في روما .

فقال أورليان في شيء من الغضب :

— كنت في روما ؟ أليست وطنك الذي منه دمك ولحمك .

والذي أعطاك نسيم الحياة ؟ أليست روما التي وهبتك هذه الحكمة .

التي تتجرب بها في أقطار الأرض ؟

فقال لونيحين ناظرًا إليه :

— لحي ودي من مادة هذه العوالم التي خلقتها الآلهة .

ونسيم الحياة وهبته لي هذه العناصر . وأما الحكمة فقد ذهب .

أتجرب بها في رومة فلم أجد لها سوقًا .

فقال أورليان وقد زاد غضبه :

— كأنك أيها الرجل تزيد على خيانتك تهمة الجحود .

والوقاحة !

فقال لونيحين هادئًا :

— أنت أيها الامبراطور تسألني وأنا أجيب .

فنظر أورليان إلى المأساة وكانت مطرقة في صمت حزين ،

فقال يوجه الحديث إليها :

— أهذه بطانتك التي اتخذتها لحرب روما ؟ لقد رأيت

يا زنوبيا التي كانت ملكة تدمر ، كيف تدور الدوائر على من .

يستعين بالخونة .

فاهتز لونيجهين وقال وفي صوته غضب مكتوم :

— تذكر أيها الإمبراطور مصير فالريان ، واقصد في عنفك .

فسرت في المجلس رعدة تخللتها همهمة حانقة . وصاح قائد في

أقصى المكان قائلاً :

— فيم صبرك أيها الإمبراطور عن هذا الأحمق ؟

فرفع أورليان يده في هدوء ، واتجه إلى لونيجهين وقال :

— وما أنت ومصير فالريان ؟

فقال لونيجهين ثابتاً :

— ملكة تدمر أولى بعرفانك إن كنت تتحدث عن الجحود .

ألم تحطم تدمر يوماً جيوش سابور ؟ ألم يكن أذينة ملكها

أغسطس الشرق وحامى حمى روما ؟

فسرت الرعدة مرة أخرى في أركان المجلس ، وكانت أعنف

وأعلى همهمة ؛ ولكن أورليان أطرق حيناً في صمت ، ثم أشار

إلى أصحابه بالسكون ، واتجه إلى زنوبيا قائلاً بصوت فيه شيء

من اللين :

— هل هذا الذي دفعك إلى عداوة روما التي طوقت تدمر

بفضلها وجعلت منها دولة ، وأفسحت لها في السلطان بعد أن

كانت جحراً تأوى إليه القوافل في مجاهل الصحراء ؟

فرفعت زنوبيا رأسها في بطء وثبات كأنها استمدت قوة

من قول معلمها وقالت :

— ما ثارت تدمر ، ولكنها كانت تبسط يدها بالسلطان
الذى عاهدت عليه روما . وكانت تظهر قوة الروم على أعدائهم
عندما عجز عن ذلك جالينوس ، وكلوديوس . كانت تدمر قلعة
المدنية عندما كانت روما تحتبط في ثورات الأقاليم ، وكانت ملجأ
الملوك عندما كانت الفوضى تحطم دولتهم وتنثر عقدها . ولو
كانت تدمر تضمثر الثورة لدخلت جيوشها روما عندما كان جنود
الروم يقتلون الأباطرة ، ويقيمون في كل أرض إمبراطوراً .
وكان صوت الملكة الهادي^١ ين في البهو الفسيح كأنه نغم
متناسق ؛ فخشعت الأصوات ، وانجذبت إليها العيون ، حتى انتهت
من قولها ، فساد الصمت حيناً ، ثم نظر إليها أورليان في شيء
من العطف وقال :

— ولكنك ذهبت إلى مصر !

فقالت الملكة ولا تزال مالكة نفسها :

— كنت في مصر أخذ ثورتها ، إذ كنت أيتها الامبراطور

في حربك الطاحنة في أقطار الغرب

فيأدر الامبراطور قائلاً :

— ووقفت لي بجيشك في أنطاكية وفي حمص عندما

كانت جيوشي تستعيد أرض روما !

وتصاعدت عند ذلك الأصوات الحانقة مرة أخرى من

أسفل القصر ، فأمسك الامبراطور عن الحديث وخشعت الأنفاس .

من الرهبة ، وسمع النداء بدم الملكة الشائرة ؛ فاضطربت الملكة وامتقع لونها وأفلت منها زمام نفسها ، واتجه إليها الامبراطور قائلاً :
— ها هو ذا الجيش الخائف يطلب دمك يازنوبيا جزاء عادلاً على جرمك .

فأرادت الملكة أن تجيب ، ولكن الاضطراب غلبها ، فالت برأسها على يديها في ضعف ، وبلل العرق جبينها ، واعتراها دوار لم تقو معه على النطق ، ونظر إليها لونجين في حزن ، وأحس كأن سهماً طعن قلبه فزقه ، واتجه إلى الامبراطور وقال له في دفعة :
— ولكنك أيها الامبراطور تؤاخذ الملكة على أنها وقفت لك بجيوشها تمنعك من دخول بلادها . أكنت تحب أن تقبض في قصرها وأن تمنع جيوشها من الدفاع عن بلاد تدين لسلطانها ؟ ألم تكن بيثنيا من أرض تدمر منذ نزعها أذينة من القوط أيام جالينوس ؟ ألم يهب ذلك الامبراطور بلاد كبادوقيا وكليسيا وسوريا لصديقه أذينة الذي حمى بلاده من عداوة سابور ؟

فمادت الضجة إلى المجلس ، ونظر القواد في حلق إلى لونجين ، ثم نظروا إلى الامبراطور كأنهم يستعجلون عقوبته ، فرفع الامبراطور يده مشيراً بالهدوء ، ثم نظر إلى لونجين وقال له في غضب مكثوم :

— كآني بك كنت تحرضها على قتالي !

فقال لونجين هادئاً :

— وهل تحسبني أنصحها بغير القتال ؟

فقال أورليان ناظراً لأصحابه :

— أيها الأصدقاء اسمعوا وانظروا . هذه زنوبيا وهذا لونيخين

الروماني . هذه تعتذر ، وهذا يرفع صوته بالكبرياء . فأى هذين

أولى بالعقوبة ؟

فعمدت الضجة إلى المجلس وترددت سن جوانبه ألفاظ حانقة :

الخائن . المجرم . عاقب . اقتل . واستمر الامبراطور في حديثه

والضجة من حوله تغلب صوته فقال :

— إن هذا الجاهل يجمع بين جريمتي الثورة والخيانة .

وكانت زنوبيا عند ذلك قد استجمعت شيئاً من قوتها فرفعت

رأسها وتحفزت للكلام ، فقال أورليان ناظراً نحوها :

— تكلمي يا زنوبيا . ألم يحرضك هذا الرجل وأمثاله من

الحمق على الوقوف لقتالي ؟

فقالت الملكة بصوت ضعيف :

— أيها الامبراطور ترفق بضعفي وتلطف في التعنيف بهزيمتي .

الأقدار تتقلب والنصر في يد الآلهة تدفعه أحياناً وتمنعه . ولولمخات

عنك الأقدار ما كان في وقوفي لك جريمة .

فقال الامبراطور رافعا صوته في غضب :

— لقد تركت أمرك لهؤلاء ، وكنت بينهم امرأة تسيرين

وراءهم ويدفعونك حيث يشاءون . هذا الأحمق وأمثاله هم الذين

حرضوك وأفسدوا عليك رأيك . تكلمى يازنوبيا — فان العدل لا بد بالغ مداه .

وعادت ضجة الجيش من أسفل القصر مرة أخرى ، فاهتزت الملكة واختلجت أنفاسها ، ونظرت فيمن حولها في فزع : ثم مالت برأسها معتمدة على يديها ولم تجب .

وكان لونجين ينظر إليها وهي تتحدث ، حتى إذا مارأى ضعفها وجزعها تحرك في حنق واندفع قائلاً :

— وما حاجتك أيها الامبراطور إلى جوابها ولم تجد فيما قلته لك إلا إقراراً ؟ لا عيب عليك إذا أخذتني بالجريرة أنا وهؤلاء الرجال . ألم أقل لك إننى أشرت ، وإننى حرصت وإننى قاتلت ؟ ألم أقل لك إن الجيش ذهب كله إلى قتالك ليدفعك عن أرض تدمر ؟ وهل كان ينبغي له إلا أن يقاتلك ؟ أكانت الملكة تستطيع أن ترده وأن تأمره بالعودة في تدمر حتى تفرغ أنت من غزاتك غير مدافع ؟ أكنت تبغى فتحاً لا يرتفع لك فيه سيف في قتال ؟ لقد كان أولى بك أيها الجندي الباسل أن تعرف حق العدو الذى يعرف كيف يقف لك في القتال .

فهدأت الأصوات لأول مرة عند سماع قول لونجين ، ونظر إليه الامبراطور هادئاً وقال :

— أأنت رومانيا أيها المعلم ؟ أترفع السيف في وجه وطنك

الذى نشأت فيه ، وعلمك تلك الحكمة التى ضربت فى الآفاق
تتجر بها ؟

فقال لونيخين وهو ينظر إلى الامبراطور ثابتاً :

— وأى حق لك فى أن تسألنى أيها الامبراطور ؟ ألائك

غلبت على الملك ، ودانت لك رقاب هؤلاء يضربون بسيفك ؟

فقال أورليان وقد ثار غضبه :

— إنك كالسكب المقور الذى يعض يد صاحبه الذى

أطعمه . وأراك تحرضنى على قتلك بوقاحتك .

فضحك لونيخين وقال فى هدوء :

— وما حاجتى إلى أن أحرضك على قتلى ؟ إن كنت أنا

كلباً فهل أنت إلا نمر ؟ أنت تفاخر بقدرتك على سفك الدماء

كأن الآلهة قد خلقت هذا العالم ليسير فى ركابك . لست أعرفك

إلا رجلاً كسائر الرجال ، وإن كنت قد حاربك فما أنا إلا

رجل يحارب عدوآ له . أتؤاخذنى على عداوتى لأنك انتصرت ؟

فقال الامبراطور صائحاً فى غيظ :

— أنت تقر أيها الخائن بأنك قمت لمحاربتى متعمداً .

فقال لونيخين ناظراً إليه :

— وكيف أحاربك إذا لم أكن متعمداً ؟

فصاح به الامبراطور :

— لقد كدت ألين قلبى عليك أيها الخائن لأنى رأيت الناس

يتحدّثون عنك وعن حكمتك . ولكنك تأبى إلا أن تشعل
حقدي بوقاحتك وادعائك ؛ فما أنت وحربي أيها المعلم الأحمق ؟
أكنت تحاربني لولا أن هذه تمد إليك يدها بالخبز الذي تأكله ؟
فقال لونيخين في كبرياء :

— لم أكن في قولي لك وحقاً إلا إذا كان الحق عند المتكبر
وقاحة . أيها الامبراطور الغالب استمع . لقد حاربتك مختاراً ،
ولو أتيحت لي الفرصة مرة أخرى لقاتلتك أشد القتال . لقد
كان لهذه الملكة فضل إطعامي كما ذكرت . نعم قد أطعمتني عندما
جئتها جائعاً من بلاد الروم التي تطعمك أنت وجيوشك
وجلاديك ومضارعيك وأهل الفسق والفجور والكسل الذين
حولك . نعم لقد حاربتك ، وكنت أنا أدفعها إلى حربك .
فعلت ضجة عظيمة من الجمع كله ووقف الامبراطور غاضباً
وقال صائحاً :

— كنت تدفعها إلى حربي أيها الخائن الأحمق ؟ لأذيقنك
الوبال والعذاب ، ولأخرسن هذا اللسان الذي يقطر قدراً ودنسا .
ونظر عند ذلك إلى الملكة ، وكانت لا تزال جالسة خائرة
القوة تستمع إلى تلك المحاورة العنيفة مفتوحة العينين ذاهلة اللب .
فلما سمعت صيحة الامبراطور العنيفة أحست كأن الدماء تتدفق
من ثناياها ، فرفعت رأسها في ذعر ، وقامت تمد يديها نحو
الامبراطور متوسلة وقالت :

— ترفق أيها الامبراطور العظيم ، ولا تسرع إلى طاعة الكبرياء . . .

ولكن الامبراطور لم يمهلهما حتى تم قولها ، وصاح في غضب نأر مشيراً إلى القائد الذي كان إلى جانبه :

— اذهب بهذا الوغد وارو به غلة الجيش الخائى ، الآن .

فاندفعت زنوبيا نحو أورليان فى زعر حتى صارت أمامه ، وجثت على ركبتيها عند قدميه ، وهو واقف يشير بيميناه نحو لونيخين فى غضبته المنيفة ، على حين سارع القائد إلى لونيخين وأمسك بذراعه وجذبه ليخرج به ، لينفذ فيه أمر مولاه .

ولما رأى لونيخين الملكة جاثية جذب نفسه من القائد ، واتجه نحوها قبل أن يتمكن القائد منه ، وقال لها بصوته العميق :

— يا مولاتى يا سليمة الأبطال . ارفعى رأسك ، فان ركوعك يحزن الآلهة ، لست فى حاجة إلى توسلك ، وأنا ذاهب إلى الموت سعيداً .

فقامت زنوبيا فى فتور ، ونظرت نحو الرجل نظرة أودعتها كل عرفانها وإجلالها ، وقالت بصوت متهدج :

— يا صديق .

ورأت القائد يسرع نحو لونيخين ليجتذبه ، فمدت يديها إلى الامبراطور متوسلة وقالت :

— تمهل أيها الملك الباسل وكن بي رحيمًا .

فلم يتمالك القائد أن تراجع ونظر إلى أورليان ، فرفع له يده مشيرًا بالانتظار . واستمرت الملكة تحدث لونيخين :

— إن هدوءك يا صديقي يطمئن قلبي ، ويظهر لي ضعفى .

لم تكن مجرمًا ، فدعنى أتوسل . دعنى أنحن على مواطىء قدمى المنتصر ، دعنى أذرف الدمع حتى أبلاهما لى ألىن قلبه ، لعله يعفو عنك .

فقال لونيخين وهو يرفع رأسه :

— أنا الذى أعفو عنه يا مولاتى . ليس بى غل عليه ، ولست

أحس حقدًا ولا حزنًا . ولئن اشتريت اليوم الحياة بالمذلة أخلد أنا على مر الدهر ؟ بل كانت حياتى عبثًا على ، وقد آن لها أن تزاح عن كاهلى . إنى أذهب إلى الموت سعيدًا ، فلعل سفك دمي يطفىء غلته عنك ، ورفع يده بالتحية ، وأحنى رأسه ، ثم نظر إلى القائد وقال له فى هدوء :

— هلم أيها السيد الباسل أطع أمر مولاك .

ثم نظر نظرة أخيرة إلى الملكة ، وتحركت نفسه حركة بدت فى خلجة هزت جسمه ولعت فى عينيه دمة رقيقة ، ولكنه تبسم بسمه عطف ، وقال وهو يرفع يده نحوها مرة أخرى :

— تشجى يا مولاتى ، ولتصحبك الآلهة ، ولتكن بك

أكثر رحمة . وسار فى طريقه والقائد يسير عن يساره ممسكًا

بذراعه ، ومرا بين صفى الجلوس حتى إذا مرا قريبا من المكان الذى جالس فيه قواد تدمر ينتظرون ما يحكم به الامبراطور الغالب فيهم ، نظر نحوهم ورفع يميناه بالتحية ، وقال فى لهجة البشر والتشجيع :

— ابشروا أيها الشجعان ، واذهبوا إلى الموت كراما ، كما كنتم تذهبون إليه فى مواقع القتال .
ثم خرج من البهو الفسيح ، وساد بمدخوجه سكون عميق ، لم تقطعه إلا شهقات مرة لم تملكها الملكة المسكينة فى بكائها الصامت .

لم تشهد روما منذ أيام قيصر وأغسطس موكباً للانتصار يمر في طرقها مثل موكب أورليان ، إذ عاد من حروبه الطويلة في الغرب والشرق . ووقف أهل العاصمة ذات القلال السبعة يملأون الميادين الفسيحة ، وتزاحموا على الشرفات المطلة على طريق الامبراطور ، وتسئموا ظهور المنازل ، وتعلقوا بأطراف الأغصان ، لكي يتمتعوا أنفسهم بمنظر الموكب الذي علموا أن ذكره لن يزال باقية على مر الدهور . هذا أورليان يسير في موكبه بعد أن دانت له النواصي ، وخضعت لهيبته الجباه ، وعاد إلى روما يسوق الملوك والأمراء في الأصفاد ، ومن بينهم زنوبيا ملكة تدعى التي كانت تطمع أن تدخل روما ظافرة في يوم من الأيام .

وسار في طليعة الموكب عشرون من الفيلة تخطى في خطاها الثقيلة ، وقد ازدادت ظهورها بهوداج مذهبة مزركشة من الحرير . وفي آثارها أربعة من نمور الهند الملكية المخيفة حملت في أقفاص ذات عجالات يجرها حراس عماليق في سلاح يبرق في ضوء شمس الصيف الساطعة ؛ وسارت في آثارها طوائف من الوحش بعضها محمول في أقفاص ، وبعضها مطوق بالسلاسل في أيدي جماعات من المصارعين يسرون بأجسامهم العارية الضخمة تبدو

منها عضلات بارزة ، ويخبطون الأرض ثقالا ، كأنهم تمائيل
متحركة من الفولاذ . فرأى أهل روما حيوان العالم كله يتدفق
في عاصمتهم آية تدلهم على سطوة روما في أكناف الخافقين

وجاء بعد ذلك جيش عجيب من المصارعين يسرون الفين في
صفوف متراصة ، وقد كشفوا عن أعالي أجسامهم ، وسرتوا
أسافلها بسراريل من الفرو أو ارهاط من الكتان تتدلى تحت
أحزمة من الجلد ، فكانما هم بعض أجناس أخرى غريبة من
الوحش ، وقد حملوا في أيديهم الدروع الثقيلة والحراشيد ذات
الشعب الثلاث والسيوف الغليظة والخناجر المعقوفة .

وهتف الناس ألوا يحيون هؤلاء ، ويواعدونهم ميدان
الآلعب ، ليملاؤا صدورهم مرحاً ولذة بمنظر الدماء المسفوكة من
وحوش صرعى أو أناس قتل .

وأنت بعد ذلك كنوز الأمم المغلوبة يحملها العبيد على أيديهم ،
منظومة فوق الأطباق أو مكدسة فوق العجلات ، وفيها الجوهر
النفيس والتحف العجيبة ، وفيها من غريب الثياب والسلاح ،
ومن ألوان الأعلام التي غنمها الجيش الغالب من أطراف أم
الأرض ؛ وبلغ المهتاف أعلاه عندما وقعت الأعين على كنوز تدمر
من ذهب وفضة تحمل أكداساً مكومة ، ومن لآلئ وجواهر ،
ومن حلل وحلى افتن صاحب الموكب في عرضها ليرى الناس
ما حمل الإمبراطور إلى روما من نفائس تدمر التي كانت تنافسها

في سيادة الأقطار . ثم سارت الوفود من شعوب الأرض بين
الأسمر الحبشي والأصفر الصيفي والأحمر القوطي ، وفيهم من
العرب ومن الفرس ومن الهند وبلاد الترك ، وقد أخذوا زياتهم
في أزيائهم المختلفة ، وجاءوا جميعاً يشاركون في تمجيد النصر
الذي فاز به أورليان . وكان كل وفد يحمل بين يديه هديته من
ثمين المتاع ونادر السلع ؛ وجعلت وفود المدائن المغلوبة مع هداياها
تتبعنا من الذهب رمزاً للولاء والخضوع لأمبراطور روما العظيم .
وجاء بعد الوفود سيل من الأسرى يتعثرون في خطاهم بين
العتاف العنيف بالزراية والشماتة ؛ فمنهم سببايا القوط ، ومنهم شيوخ
من سائر الجرمان ، ومنهم الفرنج ، ومنهم الجلالقة . وجاء في آخرهم
أسرى تدمر ومصر ، وقد رفعت في طليعة كل فوج راية تدل عليه
من يكون بين الشعوب ، وسارت جموعهم تتلقاها العيون زمراً ،
حتى بدت زنوبيا ملكة تدمر ، فاجتمعت عندها الأنظار ، وتماقت
عند إقبالها الأنفاس ، وسكنت الجموع المتراسة تتأمل هيئتها ،
وتترسم خطاها ، وتدخر في الخيال ملامحها ، وخشمت لها
القلوب رقة في ذاتها ، ورثاء لحسنها وجلال مظهرها . وشملت الشعب
الصاحب غمرة من حزن المواساة ، عقلت أصواته في الصدور ،
فكانت منه تحية مغصوبة للملكة الأسيرة . وكانت زنوبيا تسير في
كبرياء كسيرة وفي يديها قيود من الذهب ثقيلة . وقد طوق عنقها في
سلسلة ذهبية وسار أحد العبيد إلى جوارها ليحمل عنها عبثها . وبالمخ

الأمبراطور في انتقامه الساخر ، فألبسها حلالها وحليها من جواهر
ولآلىء كادت تنوء تحت حملها من الاعياء في وقدة الحر اللافيح ،
وبهرة الضوء الساطع . وكانت تسير مطرقة وقد امتلأ قلبها من
الحزن والسخط ، إذ امتد بها الأجل حتى دخلت روما أسيرة تزين
موكب الانتصار لمنافسها الامبراطور . ولم تفارقها في سيرها
صورة جدتها العظيمة التي قضت على حياتها من خوف الهوان في
مثل هذا اليوم . فكانت الحسرة تطعن قلبها في كل لحظة وعند
كل خطوة ، وتمنت لو كانت الأقدار بها أرفق ، فصاحبت لونيحين
في حمص إلى الهلاك وشاركته في قضائه الكريم . وكانت تسائل
نفسها في مرارة كلما خطت خطوة : « أهكذا نهاية الفكر الذي
كان يهديني ؟ أهذه خاتمة الحرص الذي كان يخدعني ؟ » ، لقد
كانت كل خطوة من تلك الخطوات تبعث إلى نفسها ميتة أشد
المأ من وقع الطعنات القاتلة ، وتمزق أحشاءها كأقصى السموم
الفاثكة . ولو كان خاتمها الذي ادخرته ليكون ملجأها من العار
لا يزال في يدها للجات إليه كي يخلصها من ألم ذلك المذاب الصارم .
ولكنها قذفت به إلى الرمال في دفعة من دفعات الحظ العائر ،
كأن الأقدار قد أرادت المبالغة في التنكيل بها ، فأثارها إلى تلك
الحماقة التي حرمتها نعمة الموت قبل أن تذوق ذلك الهوان . ولم
يبق لها إلا أن تتجرع غصص الموت مترادفة متلاحقة حتى
يبلغ الموكب إلى قصاراه .

وجاءت في آثار الملكة عربات الحرب الباهرة ، كانت طليعتها
عربة زنوبيا المذهبة التي كانت تحلم أن ستدخل بها يوماً عزيزة
إلى روما ، وتسير بها في موكب باهر خلال طرقها ، وترادفت
العربات من بعدها . وهاتان عربتان أبهى زينة وأبدع
فنا : إحداها عربة أذينة ، والأخرى عربة سابور التي كان قد
سلبها أذينة . وجاء بعد ذلك أورليان يسوق عربة النصر تجرها
أربعة وعول فارهة كأنه إله الشمس يطالع من آفاقه ، وهو واقف
يحیی الناس الذين استخففتهم النشوة وطارت بهم الحماسة .

وكان في لباسه الحربى التام كأنما هو إله الحرب في جسمه
الضخم ووجهه المجدد ولحيته التي وخطها الشيب .

وسارت في آثار الأمبراطور جموع من القواد والعظماء ،
فيهم شيوخ روما ورجال دولتها ، وفيهم أعيان تجارها وممراتها .
وبلغ الموكب بعد سيره الطويل سفح الربوة التي يتوجها
السكابتول ، وأخذ يعتلى جانبها في بطاء حتى دخل القصر القديم .
فانفرط المقد وأدخلت فيه زنوبيا إلى حجرة عارية لتكون لها
سجناً كريماً حتى يرى أورليان رأيها فيها .

وكانت الساعة التي قضتها زنوبيا في حجرتها الفسيحة من
أطول الساعات التي مرت عليها في حياتها المنكودة ، اتسعت
مدتها لتحيا فيها كل أيامها وتستعيد فيها ذكريات انكبات الأقدار
التي جعلتها دون الأنعام قصداً لسهامها . ففرقت في حلم عنيف

الحركة لم تحس فيه شيئاً حولها كأنها عادت إلى مقارفة تلك الحياة الماضية التي ردت إليها ، وزارتها أطياف عزيزة عليها ، وأخرى بغمضة عندها ، ففاجت تلك في حنان وحزن ، ولكنها لم تجد في نفسها قوة على ثورة الكراهة والحقده .

أهكذا تنتهي بها الحياة إلى تلك الحجرة المارية تنتظر أن يحكم فيها عدوها الظافر ، ولا تدري ماذا أعد لها من العقاب ؟ ماذا صنعت بالحياة التي حرصت عليها ذلك الحرص ؟ وما جدوى بقائها على ظهر هذه الأرض الموحشة ؟ كانت تخادع نفسها أنها تحرص على الحياة من أجل بنيتها ومن أجل قومها ، فماذا استطاعت أن تغني عن هؤلاء أو أولئك ببقائها ؟ كان بنوها يسرون في موكب أورليان وراءها ، فهل كانت حياتها لهم سوى زيادة في الهوان ؟ أما كان وهب اللات يسير في ذلك الموكب أعلى رأساً وأقل خجلاً لو كانت أمه كليوباتره ؟ وهام أولاء بنوها قد مضى بهم الملك الظافر إلى حيث لا تعلم . أما كان أجدر بها أن تكون في بطن الأرض قبل أن تعجز عن أن تحرك في سبيلهم يمينها ؟

ودخل أورليان عليها في الحجرة وهي مكبة بوجهها على يديها غارقة في تفكيرها الحزين ، فرفعت رأسها في فتور ، ونظرت إليه بعينها المحمرتين ، وانتظرت مائة قول في ذهول ، كأنها لا تزال ترى صورة من صور أحلامها الخائفة . وجال الامبراطور القاسي بنظره في الحجرة بعد أن نظر إلى الملكة البائسة في بسمة .

ساخرة ، وهم أن يتكلم ثم أمسك فجأة عن خطابها
وجعل يتأمل منظرها حينما وهو صامت ، ثم صرت على وجهه
سحابة من الوجوم وتحرك في مكانه حركة فيها شيء من القلق ،
ثم أطرق وسار في الحجرة يخبط أرضها بقدميه الثقيلتين .
وتعلقت زنوبيا بنظرها في ذلك الرجل وهي تتمعجب مما بدا
منه ، حتى وقف فجأة ونظر إليها ، وتلاقت عيونهما ، ولحظت
الملسكة المسكينة ما عثرى ذلك الجندی الخشن من اضطراب .
وقال لها في صوت عميق امتزج فيه الجفاء بالرحمة :

— ماذا كنت تنتظرين يا زنوبيا ابنة عمرو ؟

فقالت زنوبيا في هدوء وحزن :

— وهل ينتظر من يساق إلى هذه الحجرة غير الجلاد ؟ أنت
تسميني زنوبيا ابنة عمرو ، ولست أدري بم اسميك يا أورليان ؟ انني
لا أعرف اسم أبيك .

فالتفت الامبراطور إليها متعجبا مهوتا ، وقد وقع قولها منه
موقعا أذهله . ولم يسرع إلى الجواب ، بل بقي حينما ينظر إليها عابسا ،
ثم انفرجت عبسته وصرت على وجهه بسمه ضئيلة انبسطت لها
أساريره وقال في هدوء :

— كان أبي فلاحا من إقليم بانونيا واسكنني أورليان .

فقالت زنوبيا مسرعة :

— دع أقوال المباهاة لمن يحتاجون إليهم — أيها الامبراطور
المنقصر .

فأطرق أورليان ملياً ثم قال ولا يزال هادئاً :
— صدقت أيتها الباسلة ، فما كان ينبغي لي أن أنخر بين
يديك . وإني أحس الآن نحوه وأنت أسيرة بما لم يسبق إلى
نفسى إذ كنت ملكة .

فقال الملكة وقد عادت إلى الهدوء :

— إذا ترفق بمن لا تملك معك أمرها .

فأطرق أورليان ملياً واكتسى وجهه شيئاً من الحزن وقال :
— لم أعرف الملك إلا منذ سنوات قليلة قضيتها في الحروب .
كان أبى فلاحاً ، وكنت منذ نشأت جندياً — ولو زال عني
الملك اليوم ما شعرت في نفسى من زواله نقصاً ، فعذراً أيتها
الملكة ، وسأسميك منذ الآن ملكة . أنت من سلالة ملوك ،
وستنسى الأجيال كل شيء سوى أنك ملكة تدمر .
ثم سكت لحظة أخرى وقال في تردد :

— لقد أعددت لك قصرأ على التير . ألك حاجة إلى شيء
من تحف قصرك أنقلها إليه ؟

فقال زنوبيا ولم يحركها النبأ السعيد :

— وما حاجتى إلى التحف ياسيدى ؟ حسبي بما أودعت في
قلبي من نصب الموتى .

فذهب أورليان إلى مقعد حجري قريب من مجلس الملكة
وقال وفي صوته رقة :

— ألا تكون الحياة إلا مع الملك ؟ ماذا وجدت في ملكك
من سعادة ؟ إنني أتحدث إليك كما يتحدث الصديق ؛ ولو استطعت
أن أرجع الزمن إلى الوراء ما اخترت لنفسى سبيل هذا الملك .
وسكت لحظة وهو يمسح بيده على جبينه المجمعد العريض ، ثم
قال كأنه يتحدث نفسه :

— ولكن الملك لا يزال يفتن الملوك !

والتفت إلى زنوبيا وخطبها قائلاً :

— أيسرك أن يكون وهب اللات ملكاً لأرمينية ؟
فالتفتت زنوبيا نحوه لفظة سريعة ، وقالت كأنها لا تصدق
ما تسمع :

— ملك أرمينية ؟

فقال أورليان في هدوء :

— نعم سيكون ملك أرمينية ، وسيدقى الملك فى سلالة أذينة
وبطليموس . عودى إلى بشرى إذا استطعت ، وإذا خلوت إلى
نفسك فلا تندبى بعد اليوم عرشك المسلوب

فتمنفت زنوبيا وأطرقت ملياً ثم قالت :

— ليس العرش ما أندب ياسيدى . ولكنه الخذلان . كفى

فى سباق فى هذه الحياة ، ولا يملك الخاسر إلا أن يحزن . وبعد

الخذلان كيف يتسلى من فقد الأصدقاء ؟ .

واهتزت بعد ذلك هزة شديدة وتهانفت بالبكاء .

فقال الامبراطور عاطفا :

— فقد الأصدقاء !

فقالت الملكة بين شهقاتها :

— مسكين لونيون !

فصمت أورليان حينئذ كأنه أحس بوخز الجريمة ، ثم قال في

صوت هامس :

— كان لا بد للجيش من دم ثمين . كان لا بد من قربان

يروى غلة الانتقام .

ثم اتجه نحوها وقال مغيراً مجرى الحديث :

— أصبح الماضي شبحاً فلنجمعه مع أشباح الأحلام .

ولسكني سأصل ما بقي منه ليعيد الحياة في شكل جديد .

— سأجعل تحف تدمر في معبد الشمس الذي أقيمه على

سفح الكيرينال . وسيخلد بعل تدمر في معبد روما ، ليتنى

كنت أقدر أن استصحبك اليوم إلى ميادين روما لتشهدى معي

حفل هذا الانتصار .

ليس في هذه الحياة شيء يدوم . هذه نفسى التى كانت

تتمنى أن تصل إليك يدى لى تذيبك ألوان العقاب ، تذوب

أسى لحزنك . وأكاد أنسى الآن أن هذا الاحتفال العظيم يقام
من أجل خذلانك !

دعى الزمان ينسج خيوطه فوق الذكريات ، ولن تلبث
الجراح أن تندمل ، ويرجع الانسان إلى طريق الحياة ، كأنما لم
تكن دماء ولم تكن أحقاد . لعلك تعيشين بعد موتى ، وتتعجبين
من نفسك يوماً إذ يمسك الحزن من أجلى .

ثم أدار وجهه فى سرعة ، وقام عن مقعده فى شىء من
العنف ، وقال وهو ينصرف :

— هلمى أيها الملكة إلى قصرى على التبر ، فهناك الهواء
أرفق بك وأهدأ .

ومد يده إليها فى رفق ، فقامت وقد دخل إليها شىء من
التسرية مع ألفاظ الامبراطور الخشن التى ساقها ساذجة فى غير
تجمل ، وخرجت من الحجرة تعتمد على اليد التى مدها إليها .

ولما سجا الليل وسطع القمر على ماء التبر فى أسفل القصر
جلست تفكر فى لعب الأقدار فى تصرفها .

وألقت نظرة فى لفظة من لفتاتها إلى تمثال جدتها كليوباتره
الذى أعاده أورليان إلى القصر مع تحف مختارة زين بها أبهاءه ؛
ولكنها لم تشعر بتلك الغصة التى كانت تغص بها من قبل كلما
تمثلت جدتها الباسلة ، وقصورها هى عن بلوغ بطولتها . وعادت

تنظر إلى أمواج النهر التي تلمع في تراقصها تحت ضوء القمر ،
وتنفس نفساً عميقاً ، وخيل إليها في السكون الشامل أنها
تعيش وحدها في كون فسيح خلا من الانسان . وتأملت في
ماضى أيامها وهي تنظر إلى الضفة الأخرى من النهر ، فكأنها
خلقت تلك الحياة الأولى هناك على الشاطئ ، في عالم من الخيال
قد فصلت بينها وبينه هوة سحيقة لا سبيل إلى اجتيازها . ما تلك
الأحزان التي كانت تملأ صدرها ؟ وما ذلك القلق الذي كان يقض
مضجها ؟ وما ذلك اليأس الذي كانت تشعر بالحنق على نفسها
من أجل أنها لم تقدم معه على اقتحام الموت ؟ ها هي ذى تحيا
في الحقيقة بعد أن أصبحت كل آلامها وكل أحزانها الماضية صوراً
في الخيال . هزمت في مواقع القتال ، وحوصرت في تدمر ، وهربت
إلى الفرات ، ثم أسرت وذلت ، وقتل صديقها لونيحين ، ثم سارت
في الموكب القاسي في سلاسلها وقيودها ؛ ولكنها بعد كل ذلك
تجلس في قصرها وتنظر إلى النهر وتحيا ، ولم يبق من ذلك كله
إلا طيف من الذكرى . كانت ترى الموت أهون من أى
هذه الكوارث ، ولكنها بقيت في الحياة بعد أن نزلت بها
جميعاً ، وها هي ذى تنفس وتنظر إلى النهر وإلى القمر ؛ ولو
فقدت قوة الذكرى لما كان لأطيف ذلك الماضى وجود في عالمها .
واحبها للانسان ، إذ يخشى مخاوف المستقبل ، حتى إذا ما حلت به
تلك المخاوف اطمأن لها واستقر عليها ، وسخر من حماقة وهمومه

التي كانت تعذبه قبل نزولها ! ما هذه القيم التي يقيّمها الانسان لحالات الحياة ؟ أليست الحياة واجباً يقضيه الانسان لأنه مكلف بها ؟ لقد قال لها أورليان : « دعى الزمان ينسج خيوطه فوق الذكريات ، ولن تلبث الجراح أن تندمل ، ويرجع الانسان إلى طريق الحياة » .

أى حكمة تلك التي فاه بها ذلك الجندي الجاهل الذي لم يعرف غير حياة الكفاح والدماء ؟

ونظرت زنوبيا إلى النجوم الخافتة تلمع في السماء ، وصرت على وجهها بسمّة ساخرة وهي تتنفس الصعداء وتناجي نفسها : « ماذا تقول هذه النجوم لو كانت تستطيع أن تتكلم إذا نظرت إلى الانسان ؟ ماذا قالت عندما شهدت كليوباتره وهي تقبل على الموت في جلوتها الأنيقة ؟ وماذا تقول إذ تطل على الآن بعد أن خرجت من كوارثي ، وجلست هنا أتأمل الحياة الجديدة في فتور يشبه الدهول ؟ المحمد ، الذل ، الفقر ، الفنى ، السكون ، الثورة ، الزهد ، الطمع ، اللذة ، الألم ، ما معنى كل ذلك في عين الأبدية الساكنة ؟

« أيها الانسان اضطرب في حياتك الصغيرة كما يضطرب النمل الصغير ، ولا تتطلع إلى أعلى لئلا يلحقك اليأس قبل الحياة » . ثم أغمضت عينيها وألقت رأسها على ظهر الأريكة التي جلست عليها واستسلمت إلى سِنَّة من السلام .